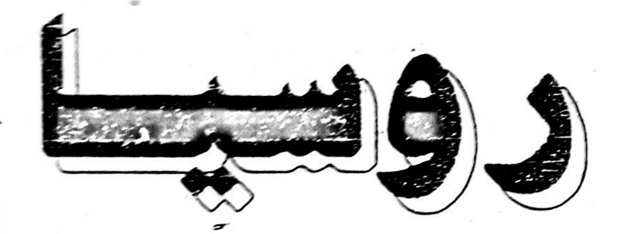
أحمد جميل

جمهورية العراق



١٧٠٠-١٩١٤

الأستاذ الدكتور
هاشم صالح مهدي التكريتي

بغداد

د.ت

المحتويات

الزمان ، كان شعب جورجيا خلالها يواصل نضاله ضد مخططات ايران الرامية الى طمس هوية جورجيا وتوطين القبائل الرحل في اراضيها . وبالنسبة الى اسيا الوسطى كان الوضع يختلف من منطقة الى اخرى ففي بخارى توحدت في اواخر القرن السادس عشر الكثير من المناطق هناك تحت سلطة امير بخارى عبد الله الثاني وقد ساعد على ذلك النهوض الاقتصادي الذي اصاب تلك المناطق في تلك المرحلة حيث بدأت عملية استقرار القبائل المتنقلة وتطورت الزراعة والرعي وعادت سمرقند وبخارى وغيرها من المدن تمارس دورها السابق مراكز للحرف والتجارة وتوسعت العلاقات التجارية مع الخارج ولاسيما مع روسيا التي اقيمت معها علاقات دبلوماسية ايضا . ولكن تحول طرق التجارة المهمة في القرن السابع عشر وغارات قبائل الرحل كانت مع ذلك تعيق التطور في آسيا الوسطى وتشكل عقبات لايستهان بها امام تقدمها . اما كازاخستان فقد كانت تقوم فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر عدة خانيات كانت منهمكة في صراع حاد فيما بينها في الداخل ومع الامارات المجاورة في الخارج . وشهد اواسط القرن السادس عشر تحسنا في العلاقات بين كازاخستان وبخارى ولكن الصراع الحاد عاد في نهاية ذلك القرن بين اقطاعيي كازاخستان وكل من خانية سيبريا وبخارى الامر الذي ادى الى تقرب الكازاخيين من روسيا فأرسلوا اليها في ١٥٩٤ سفارة هدفها اقامة علاقات ودية مع الدولة الروسية .

وازدادت الاوضاع الخارجية والداخلية في روسيا سوءاً في بداية القرن السابع عشر فقد استشرى الصراع بين الاقطاعيين واتسع ايضاً نضال الجماهير الشعبية ضد الاقطاع بحيث تحول الى اول حرب فلاحية في تاريخ روسيا . واستغلت القوى الخارجية هذه الاوضاع فتمكن الاقطاعيون البولنديون واللتوانيون والسويديون بواسطة صنائعهم في الداخل في اول الامر وعن طريق التدخل العسكري المباشر بعد ذلك من تقويض الدولة الروسية فأحتل البولنديون واللتوانيون موسكو في ١٦١٠ واستولى السويديون على نوفجورد لكن الجماهير الشعبية هبت وعلى رأسها النبلاء الروس وكذلك كبار التجار والصناعيين ورجال الدين للنضال ضد الاحتلال الاجنبي . وقد لعبت الكنيسة دورا مشهوداً في الدعوة الى طرد الغزاة وتنظيم قوات الشعب في النضال من اجل طرد القوات الاجنبية من البلاد .

وقد تكلل هذا النضال بالنجاح فطرد الغزاة من موسكو واعيدت الدولة الروسية حيث اجتمع مجلس النبلاء وانتخب في ١٦١٣ ميخائيل رومانوف (١٦١٣ - ١٦٤٥)

قيصراً(١) والف هذا القيصر وهو مؤسس اسرة رومانوف التي ظلت تحكم روسيا حتى سقوط النظام القيصري في ١٩١٧ حكومة جديدة استطاعت ان تتم تحرير البلاد من الاحتلال الاجنبي .

وتعززت بعد طرد الغزاة الاجانب سيادة الاقطاعين الاقتصادية والسياسية حيث جرى على نطاق واسع منحهم الاراضي العائدة للدولة او البلاط مع الفلاحين العاملين فيها حتى اصبح ٩٠٪ من السكان العاملين في روسيا في سبعينات القرن السابع عشر ملكا للقيصر والبويار والاديرة والكنائس . ومن عام ١٦٤٩ اصبح الفلاحون وذريتهم ملكاً الى الابد للاقطاعي ولورثته من بعده .

واضيف الى ذلك بالنسبة الى اوكرانيا وبيلوروسيا اضطهاد اخر هو الاضطهاد القومي الذي كان يمارسه ضد سكانها الاقطاعيون البولنديون الى جانب الغارات التي كان هذان البلدان يتعرضان لها من تتر القرم والدولة العثمانية وكان ذلك كله مدعاة لان يتسع ويتعمق النضال القومي والوطني في هذين البلدين وكانت الدولة الروسية تساند هذا النضال الذي انتهى بانضمام اوكرانيا الضفة اليسرى(٢) عام ١٦٥٤ الى روسيا كما استعادت روسيا سمولينسك على اثر الحرب الروسية - البولندية ١٦٥٤ - ١٦٦٧ .

- لقد استولت روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر على اوكرانيا الضفة اليسرى وعلى منطقة الفولغا وسيبريا وبذلك دخلت ضمن الدولة الروسية الكثير من الشعوب غير الروسية التي كانت تقطن هذه المناطق وقد عانت هذه الشعوب على الرغم من بعض الايجابيات التي ترتبت على انضمامها الى روسيا الكثير من الاضطهاد الديني والقومي على يد النبلاء الروس والسلطة الحاكمة في الدولة الروسية .

---

(١) عائلة رومانوف من عوائل البويار المعروفة في روسيا ، الجد المعروف بشكل موثق لهذه العائلة هو اندريه ايفانوفتش كوبيلا وكان احد بويار موسكو في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ، وقد ارتفع شان هذه العائلة عندما تزوج ايفان الرابع (ايفان الرهيب) احدى بناتها وهي انستاسيا رومانوفنا فاصبحت العائلة ترتبط بعلاقة مصاهرة مع البيت الحاكم في روسيا .

(٢) كانت التطورات العسكرية والسياسية قد ادت الى تقسيم اوكرانيا الى قسمين اطلق على الاول وهو الجزء الذي يقع الى يسار نهر الدنيبر اسم «اوكرانيا الضفة اليسرى» وقد انضم هذا الجزء الى روسيا عام ١٦٥٤ اما القسم الاخر وهو الجزء الواقع الى يمين النهر المذكور والذي سمي بـ «اوكرانيا الضفة اليمنى» فقد استولت عليه روسيا عام ١٧٩٣ .

وحلت مع بداية القرن السابع عشر مرحلة جديدة في تطور روسيا الاقتصادي تميزت بترسيخ نظام القنانة وتطور العلاقات الاقتصادية الداخلية بحيث تجمعت الاسواق المحلية الصغيرة وتحولت الى سوق روسي عام واحد يشمل الدولة باكملها . كذلك اتسع الدور الاقتصادي الذي تمارسه المدن واخذ التجار يوظفون اموالهم في فروع الصناعة المختلفة وقد ترتب على ذلك تطورات اجتماعية وسياسية كان لها اثر كبير في تاريخ روسيا اللاحق . وقد قام سكان المدن الروسية في اواسط القرن السابع عشر بانتفاضات واسعة كان من نتيجتها ان الغيت الملكية الاقطاعية في المدن واصبحت المدن الروسية تخضع للدولة خضوعاً تاماً . ولوحظت تاثيرات المدينة على تطور الثقافة والفن في روسيا حيث اخذت تتضح في الرسم والعمارة وغيرها تأثيرات دنيوية تنأى بها عن الموضوعات الكنسية التي كانت تسود الحياة الثقافية الروسية قبل ذلك .

لقد اتخذ استياء جماهير الشعب من الاوضاع في الدولة الروسية مظاهر واشكالا متعددة ابتداء من اتساع هروب الفلاحين وسكان المدن من المناطق الوسطى في روسيا الى اطرافها البعيدة تخلصا من اضطهاد الاقطاعيين وحكومة القيصر وانتهاء بحمل السلاح والثورة على السلطة ، ففي سبعينات القرن السابع عشر اشتعلت في الدون انتفاضة شعبية كبيرة لم تلبث ان تحولت الى حرب فلاحية واسعة قادها ستيبان رازين وشملت مساحات واسعة من منطقة الفولغا والاقاليم الجنوبية من روسيا . وقد اشترك في هذه الانتفاضة الكثير من الشعوب غير الروسية القاطنة في منطقة الفولغا الى جانب الفلاحين وسكان المدن الروس ولكن الحكومة الروسية تمكنت في النهاية من اخماد هذه الانتفاضة وغيرها من الانتفاضات الشعبية .

وحصل في اوائل النصف الثاني من القرن السابع انشقاق في الكنيسة الروسية كان تعبيراً عن فقدان الكنيسة الرسمية للسيادة المطلقة على الحياة الروحية للمجتمع ، كذلك ادى توتر الاوضاع الداخلية الى تعقيدات سياسية وظهرت تكتلات متنافسة بل ومتعادية داخل الحكومة . وكانت روسيا بسبب هيمنة نظام القنانة متأخرة عن اقطار اوربا الغربية التي اخذت باسباب التقدم بعد ان نفضت عنها غبار الانظمة الاقطاعية المتخلفة فحتم ذلك وغيره ضرورة اجراء اصلاحات تنهض بروسيا من حالة التأخر التي كانت تعانيها وتجعلها في مصاف الدول الاوربية المتقدمة وقد تمت هذه الاصلاحات بالفعل في الربع الاول من القرن الثامن عشر على يد القيصر الروسي الشهير بطرس الاول (١٦٨٢ - ١٧٢٥) او بطرس الكبير كما يسمى في بعض الاحيان .

الفصـــل الاول

روسيـا في النصف الاول من القرن الثـامن عشر

اصلاحات بطرس الاول ونتائجها

روسيا في النصف الاول من القرن الثامن عشر

اصلاحات بطرس الاول ونتائجها

يرتبط تاريخ روسيا في بداية القرن الثامن عشر بالاصلاحات التي اجراها بطرس الاول في مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية والادارية والثقافية . وبالرغم من ان هذه الاصلاحات ترتبط باسم بطرس الاول الا انها كانت في الواقع ظاهرة حتمية نبعت ضرورتها كما ذكرنا من تطور التاريخ الروسي نفسه ، ذلك ان الصراع السياسي الحاد في البلاد كان قد اجبر الحكومة الروسية على التفكير بتقوية جهاز الدولة كذلك كان تأخر روسيا في المجالات الاقتصادية والثقافية بالمقارنة مع بلدان اوربا المتقدمة يهددها بفقدان استقلالها الوطني ويجعل الحكومة الروسية عاجزة عن انتهاج سياسة خارجية مستقلة . ومن اجل ان تتطور روسيا بشكل طبيعي كان لابد لها ان تمتلك منفذاً الى البحر فقد كانت المواصلات البحرية في غاية الضرورة بالنسبة الى الدولة الروسية في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تهيمن على البحر الاسود ، والسويد وهي الدولة القوية آنذاك تبسط سيطرتها على بحر البلطيق وعلى الاراضي المتاخمة له .

وهكذا كان على الحكومة الروسية من اجل ان تحل كل هذه المشاكل ان تتخلص اولا من حالة الضعف والتدهور التي كانت تعانيها روسيا ، ومن هنا جاءت الاصلاحات التي بادر الى القيام بها وكان عاملها المحرك القيصر بطرس الاول .

كان بطرس الاول يدرك بأن دولته بحاجة الى فترة من السلم من أجل ان يتمكن من انجاز الاصلاحات التي يزمع القيام بها ولما كانت روسيا في حالة حرب مع الدولة العثمانية[1] بالرغم من ان العمليات العسكرية كانت متوقفة عمليا بين الدولتين ، فقد فكر بطرس بضرورة عقد الصلح مع العثمانيين ، ولكنه كان يريده صلحا مناسباً لروسيا وهو امر لايمكن تحقيقه في رأيه الا بالسيطرة على قلعة ازوف الحصينة التي اقامها العثمانيون عند مصب نهر الدون .

---

(١) كانت الحرب قد قامت عام ١٦٨٦ بين روسيا والدولة العثمانية بسبب انضمام روسيا الى «العصبة المقدسة» المعادية للدولة العثمانية والمؤلفة من النمسا وريتش بسبوليتا والبندقية .

وهكذا توجهت في ربيع ١٦٩٥ حملة روسية هدفها الاستيلاء على هذه القلعة غير انها فشلت في ذلك بسبب غياب القيادة الموحدة وعدم توفر المهندسين ورجال المدفعة في الجيش الروسي وغير ذلك من الاسباب . ورغم الخسائر الكبيرة التي أصابت الجيش الروسي لم ييأس بطرس الاول بل بادر فوراً الى تلافي نواحي الضعف في الجيش والاستفادة من أخطاء الحملة السابقة وبدأ في آيار ١٦٩٦ بمحاصرة أزوف من جديد وتمكن في هذه المرة من السيطرة عليها واخراج العثمانيين منها . وكان لهذا الانتصار صدى كبير في الاقطار الاوربية الاخرى نظراً لما كانت تتمتع به هذه القلعة من قوة الاستحكامات وحصانة وسائل الدفاع ومع ذلك فان هذا النصر الباهر لم يجعل الغرور يتسرب الى نفس القيصر ذلك أنه كان قد أدرك من تجربة الحملة على أزوف هذه مدى التأخر الذي يعانيه الجيش الروسي .

لقد اراد بطرس الاول أن يجعل من روسيا بلدا متقدما يقف على قدم المساواة مع بلدان أوربا المتطورة ولذلك فقد فكر بارسال الشبان من النبلاء الروس الى بلدان أوربا المتقدمة للدراسة والاطلاع وبالفعل سافرت في ١٦٩٧ بعثة خاصة لهذا الغرض سميت «السفارة العظمى» ضمت من بين اعضائها القيصر نفسه متنكراً وكان هدف هذه البعثة هو دراسة الشؤون البحرية والعلوم العسكرية والاطلاع على كيفية بناء السفن في ترسانات هولندا وانجلترا والمانيا .

قضى بطرس الاول في الخارج ثمانية شهور أشتغل خلالها نجاراً في ترسانات هولندا ودرس «فن بناء السفن» في أنجلترا وزار المصانع والورشات ودور سك النقود في هذه الدول وتعرف على السدود والخزانات والحصون .. الخ .

وتمكن خلال رحلته هذه من الحصول على الكثير من السلاح والكتب والالات وجلب العديد من العلماء والاطباء وخبراء المدفعية للعمل في روسيا .

وبعد أن أتم القيصر زيارته لانجلترا عرج وهو في طريق عودته على فينا حيث أجرى مع الامبراطور مفاوضات تخص تصديهما المشترك للدولة العثمانية غير ان اخبار تمرد «الرماة» أضطرته الى التعجيل بالعودة الى روسيا . ذلك ان فصائل «الرماة» التي كانت قد أرسلت من أزوف الى الحدود الغربية اعلنت تمردها وسارت باتجاه موسكو بهدف الاستيلاء عليها ولكن القوات الموالية لبطرس تمكنت من القضاء على المتمردين بالقرب من موسكو وقد أظهر التحقيق مع من بقي منهم حياً بانهم كانوا على صلة بالاميرة

(٢)

صوفيا[1] ويهدفون الى اعادة تنصيبها على العرش الروسي ، وقد نكل القيصر بالمتمردين ابشع تنكيل وأعدم المئات منهم ، أما صوفيا فقد أجبرها على الانخراط في سلك الرهبنة .

وباشر بطرس الاول عام ١٦٩٩ بأجراء أول اصلاحاته وكانت بعض أجراءاته تتعارض مع التقاليد المرعية بل اتخذت في بعض الاحيان طابع البدع التي لالزوم لها فقد امر الحاشية مثلا بالظهور في البلاط بدون لحى وبالملابس الاوربية حيث كان الروس في السابق يرتدون الملابس الشرقية الفضفاضة . وقد نفذ بطرس اجراءاته هذه باساليب فظة فكان يحلق لحي البويار ويقص ملابسهم الطويلة الذيل بنفسه[2] وقد أثار ذلك أستياء ظاهرا في مختلف الاوساط وعد أهانة للاعراف والتقاليد الوطنية . وأستعيض عن التقويم البيزنطي القديم الذي يبدأ من خلق العالم وتكون بداية السنة فيه الاول من ايلول بالتقويم الجديد الذي يبدأ من ميلاد المسيح وتكون بداية السنة فيه الاول من كانون الثاني عام ١٧٠٠ وأمر بطرس بالاحتفال برأس السنة الجديدة على أنه عيد للجميع .

أقتنع بطرس نتيجة سفرته الى الخارج بالاهمية الكبيرة التي تكتسبها سواحل بحر البلطيق بالنسبة الى روسيا على اعتبار أن هذه السواحل تؤلف لروسيا منفذا مباشرا الى أقطار أوربا الغربية المتقدمة ، لكن تلك السواحل كانت في حوزة السويد التي كانت دولة بحرية قوية في ذلك الوقت ، ولهذا عمد بطرس الى التحالف مع ملك الدنمارك وملك بولندا ضد السويد وكان ملك بولندا أغسطس الثاني ناخبا لسكونيا في الوقت نفسه ولهذا كانت سكسونيا أول من بدأ العمليات العسكرية ضد السويد بالدخول الى ليفونيا فبدأت بذلك حرب طويلة في أوربا عرفت بحرب الشمال، أستمرت من ١٧٠٠ الى ١٧٢١ وأنتهت بانتصار روسيا وتوقيع معاهدة صلح نيشتادت[3].

---

(١) كان من نتيجة تمرد سابق قام به «الرماة» في آيار ١٦٨٢ أن اعلن كل من بطرس واخوه لابيه ايفان قيصرين بالتساوي وفوض الحكم بسبب صغر سنهما الى صوفيا هذه وهي الاخت الكبرى لايفان . وقد ظلت صوفيا هذه في الحكم حتى عام ١٦٨٩ عندما عزلت وتولى بطرس الاول السلطة الفعلية في البلاد ثم مات أخوه ايفان وكان معتل الصحة في ١٦٩٦ فانفرد بطرس في الحكم .

(٢) سمح فيما بعد للفلاحين ورجال الدين باطلاق لحاهم اما سكان المدن فانهم كانوا ملزمين بدفع ضريبة خاصة مقابل الاحتفاظ بلحاهم الطويلة .

(٣) نسبة الى مدينة نيشتادت الفلندية التي وقعت فيها المعاهدة .

أستولت روسيا بموجب هذا الصلح على جزء كبير من سواحل البلطيق وبذلك تحقق لها الهدف الذي كانت تسعى اليه منذ قرون طويلة والذي من أجله شنت هذه الحرب وقد تمتعت المنطقة المتاخمة للبلطيق التي ضمت الى روسيا بموجب هذا الصلح بوضع خاص داخل الامبراطورية الروسية حيث نصت المعاهدة على أن يحتفظ سكانها بحقوقهم وأمتيازاتهم السابقة . وكان النبلاء الالمان يمتلكون الجزء الاغلب من الاراضي المأهولة في تلك المنطقة فتغلغلوا في صفوف الارستقراطية الروسية تدريجياً وشكلوا مجموعة ذات نفوذ تميل الى المانيا داخل الاوساط الحاكمة الروسية . وكان من النتائج المباشرة لصلح نيشتادت أيضاً اعلان روسيا أمبراطورية وأعتبار بطرس الاول أمبراطورا لروسيا كلها .

وقد أدت تطورات حرب الشمال الى أن تصطدم روسيا مرة أخرى بالدولة العثمانية فأشتعلت بينهما حرب جديدة كان النصر فيها هذه المرة حليف الدولة العثمانية فعقدت بين الدولتين في ١٧١١ معاهدة صلح بروث التي أستعادت الدولة العثمانية بموجبها أزوف ومدينة تاجانروج التي شيدت حديثاً على بحر أزوف .

ومن الناحية الاخرى أستغل بطرس الاول الغزو الافغاني لفارس فشن عليها حرباً قاد خلالها القوات الروسية بنفسه ونجح في ١٧٢٣ في أن يفرض عليها صلحاً أستولت روسيا بموجبه على دربند وباكو والاقاليم المتاخمة لهما وكذلك على أقاليم فارس الشمالية كيلان ومازندران وأسترا باد . واستغلت الدولة العثمانية من جانبها الفرصة واخضعت جورجيا التي كانت تابعة لفارس وقد أراد قيصر جورجيا الذي كان متحالفاً مع بطرس الاول المقاومة لكن النبلاء الجورجيين خذلوه فاضطر الى الهجرة الى روسيا مع عائلته وانصاره . كذلك حاول بطرس الاول التوسع في أسيا الوسطى فارسل الى هناك في ١٧١٧ حملة خاصة لهذا الغرض لكن سكان خيوه تمكنوا من القضاء على تلك الحملة قضاء تاماً .

الاصلاحات الاقتصادية

تطلبت الحروب الكثيرة التي خاضتها روسيا في عهد بطرس الاول صناعة الكثير من المدافع والبنادق والاقمشة وغير ذلك من المعدات التي يحتاجها الجيش ولهذا وجه بطرس أهتمامه الاول الى تطوير الصناعة العسكرية . وكان أول مشروع له في هذا الاتجاه هو توسيع وأعادة تجهيز المعامل القديمة الموجودة في تولا بحث بلغ الانتاج السنوي لهذه المعامل في نهاية عهده ١٥ الف بندقية والآف المسدسات الى جانب انواع الاسلحة

الاخرى ، كذلك أنشئت مصانع جديدة في بطرسبورغ وسيستروريتسكي[1] ثم نشأت منطقة صناعية جديدة في الاورال واقيمت مؤسسات لانتاج المصنوعات الجلدية والورقية . لقد قامت الحكومة والتجار وأصحاب رؤوس الاموال بانشاء معامل الحديد والنحاس في المناطق الغنية بخامات هذين المعدنين مثل تولا ليبتسك والاورال . اما مصانع النسيج فقد تركزت في موسكو وبطرسبورغ وياروسلافل وغيرها .

وقد أتخذت حكومة بطرس الاول جملة من الاجراءات الهادفة الى تطوير الصناعة في البلاد فشجعت كل من يرغب في أنشاء مصانع التعدين في المناطق التي تكتشف فيها الخامات المعدنية وقدمت للتجار تسهيلات واسعة بما في ذلك منحهم القروض المالية الكبيرة وأتخاذ الاجزاءات الكفيلة بتوفير الخامات لمؤسسات الانتاج الجديدة .

وكان بطرس الاول يتتبع شخصياً تطور الصناعة باهتمام كبير ويصدر باستمرار التعليمات والمراسيم اللازمة لذلك فقد منع مثلا أدخال الجوارب الاجنبية الى موسكو لضمان تصريف منتجات مصنع موسكو للجوارب كما أمر بجمع التلاميذ من المدن الاخرى في موسكو لغرض تدريبهم على أساليب الانتاج الجديدة في مجال الصناعة الجلدية ، وكان قد منع ممارسة الاسلوب القديم في الانتاج وفرض عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة على من يخالف ذلك . كذلك شجع القيصر أنشاء الشركات الخاصة وفرضت الحكومة ضرائب عالية على البضائع المستوردة من الخارج التي يمكن أن تنتج في روسيا وقد بلغت نسبة هذه الضريبة في بعض الاحيان ٣٧,٥٪ من قيمة البضاعة وكان الهدف من ذلك هو الحد من منافسة البضائع الاجنبية للمنتجات الروسية .

ولكي تؤمن الايدي العاملة للمصانع الحقت بها قرى كاملة مع سكانها الاقنان واصبح للتجار الحق في شراء القرى والحاقها بمشاريعهم الصناعية ولكن اقنان هذه القرى لم يصبحوا ملكا للتاجر الذي أشترى قراهم وانما لتلك المشاريع الصناعية التي الحقوا بها . وكذلك أرسلت الدولة فلاحيها للعمل في المعامل .

وحدث بعض التقدم في الزراعة أيضاً فقد أتسعت زراعة التبغ وصناعة الخمور في المناطق الجنوبية والشرقية وأزدادت زراعة الكتان وتوسعت تربية الاغنام والماشية في المناطق الوسطى من روسيا . وتوسع النبلاء في زراعة أشجار الفاكهة وتأسست في روسيا حدائق نباتية زرعت فيها الانواع النادرة من الاشجار والازهار والنباتات الطبيعية وأزداد

---

(١) من ضواحي مدينة بطرسبورغ .

الاهتمام بالمحافظة على الغابات . ومع ذلك فقد كانت هناك عقبات جدية تعيق الت
الزراعي منها نظام القنانة الذي كان سائداً في روسيا آنذاك وظلت الزراعة أكثر الق
تأخرا في أقتصاد الدولة الروسية .

وأصاب التجارة بعض الانتعاش ايضاً فقد أزداد في داخل البلاد التبادل التج
بين المنتجات الزراعية ومنتجات الصناعة وأزداد مع نمو سكان المدن الطلب على ا
الغذائية وأتسعت التجارة الخارجية ايضا وأزدادت أهمية موانئ البلطيق الروسية ولا
بطرسبورغ[1] وريغا وأتسع دورها في التجارة الخارجية فقد بلغ عدد السفن التي قدم
الى بطرسبورغ في ١٧٠٤ مثلا ٢٤٠ سفينة كما قدمت في السنة نفسها الى ريغا ٣
سفن والى نارفا ١١٥ سفينة والى ريفيل ٦٢ سفينة ، وفي مقابل ذلك تقلص دور ب
ارخانجلسك في الشمال خصوصا بعد أن منع تصدير البضائع عن طريق هذا الب
باستثناء البضائع القادمة من المناطق المتاخمة له . ومما ساعد على أتساع التجارة الداخ
والخارجية وزيادة أهمية بطرسبورغ أنشاء قناة تربط بحيرة لادوجا بحوض الفولغا الا
الذي أدى الى ظهور طريق مائي متصل يربط بطرسبورغ بمنطقة الاورال . وكان بطرس
الاول ينوي أنشاء قناة أخرى تربط نهر موسكو بنهر ياخروما وبذلك يتصل نهر موسك
بالفولغا بواسطة نهر ياخروما ولكن المصاعب التقنية حالت دون تنفيذ هذا المشروع
لقد كانت حكومة بطرس الاول تسعى جاهدة من أجل زيادة الصادرات وتقل
الواردات ، وكانت روسيا آنذاك تصدر الزبدة والشحم والحديد والجلد المدبوغ والنس
الكتاني والخشب وتستورد الجوخ والاصباغ والخمور والسكر والمنسوجات القطنية وك
حجم التبادل التجاري بين روسيا والبلدان الاخرى يزيد على ستة ملايين روبل

لقد أصطدمت أجراءات بطرس الاول الاقتصادية بالكثير من العقبات وكثيرا ماكا
تثير أستياء السكان وشكواهم فقد مات في أعمال البناء الكثير من الناس بسبب صع
العمل وتفشي الامراض . ولكن هذه الاجراءات كانت عميقة الاثر في المجتمع الرو
حيث غيرت الوجه الاقتصادي لروسيا بشكل جذري فقد بلغ عدد المشاريع الصناعية
روسيا في نهايه عهد بطرس الاول ٢٠٠ مشروع صناعي وبلغت كمية الحديد الزهر
تصهرها المعامل الروسية مليون ونصف بود[2] .

---

(١) بناها في ١٧٠٣ بطرس الاول عند مصب نهر النيفا في بحر البلطيق لتكون نافذة لروسيا على الغرب واص
هذه المدينة اعتبارا من ١٧١٢ عاصمة لروسيا كان أسمها حتى آب ١٩١٤ سانكت بطرسبورغ ثم تغير
بتروغراد وظل كذلك حتى ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٤ حيث أطلق عليها اسم لينينغراد .

(٢) البود وحدة للوزن في روسيا تعادل ١٦٫٨٣٠ كغم .

الاصلاح الاداري

نظم بطرس الاول ادارة الدولة على أسس جديدة واتخذ الحكم في عهده سمة الحكم الملكي المطلق فقد استطاع هذا القيصر أن يكسر مقاومة البويار ويلغي مجلسهم الذي يطلق عليه أسم «الدوما» واعلن نفسه ملكا غير مقيد واتخذ لنفسه لقب امبراطور كما أسلفنا .

لقد قسمت روسيا في ١٧٠٨ الى ثمان محافظات يتألف كل منها من عدد من الاقاليم وقد ازدادت المحافظات فيما بعد فاصبحت عشرا على رأس كل منها محافظ يعينه القيصر ويتمتع بسلطة كبيرة وكان واجب المحافظ بالدرجة الاولى جباية الضرائب والمحافظة على النظام .

وتكونت في روسيا في ١٧١١ مؤسسة عليا للادارة هي عبارة عن مجلس يعين القيصر اعضاءه يطلق عليه أسم «السينات» وكان هذا المجلس يهيمن على المؤسسات الادارية المركزية والاقليمية ويشرف على جباية الضرائب واوجه صرفها ، ويسن القوانين على أساس المراسيم التي يصدرها القيصر .

وفي ١٧١٨ تكونت مؤسسات مركزية لادارة مختلف شؤون الدولة تقوم بالوظائف التي تقوم بها الوزارات في الوقت الحاضر فكانت هناك مؤسسة للشؤون الخارجية وأخرى للشؤون العسكرية وثالثة للاسطول ورابعة للاشراف على الصناعة وخامسة للاشراف على الشؤون الدينية . وكانت كل من هذه المؤسسات لها رئيس خاص وكل من هؤلاء له مساعد وبضعة مستشارين وكانت جميع المسائل في هذه المؤسسات تحل وتتخذ بشأنها القرارات عن طريق المشاورة بين أعضائها . وكانت هناك مؤسسة خاصة تسمى المكتب السري الذي يخضع لتوجيهات القيصر مباشرة ويختص بالاشراف على قضايا الجرائم المختلفة التي تشمل أيضا المشاركة في المؤامرات السياسية والقضايا التي تتعلق باهانة شخص القيصر وما أشبه ذلك .

وقد حصلت في عهد بطرس الاول تغييرات في أدارة المدن فقد عدت المدن وحدات أدارية تدير نفسها ذاتيا ، لكن أدارة المدن ظلت مع ذلك تفتقر الى التنظيم حتى عام ١٧٢٠ ففي هذه السنة تشكلت دائرة بلدية مركزية كانت تشرف على البلديات في المدن الاخرى وكان على رأس هذه البلديات رؤساء ينتخبهم سكان المدن انفسهم . وقد قسمت المدن الروسية الى خمس فئات على أساس عدد الدور الموجودة فيها ضمت الفئة الاولى اكبر أحدى عشرة مدينة في حين شملت الفئة الخامسة أصغر المدن . وتكونت في

المدن منظمات مهنية خاصة هي «الاصناف» التي كان كل منها يضم الحرفيين ال
يشتغلون في حرفة واحدة .

وكان بطرس الاول يعمل على اخضاع الكنيسة كليا للسلطة الملكية المطلقة ولذ
عمد الى الغاء البطريركية وجعل أدارة شؤون الكنيسة من أختصاص مؤسسة دينية
يطلق عليها اسم «السينود» تتكون من كبار رجال الدين وتخضع للاوامر التي يصد
القيصر ويشرف عليها موظف مدني يعينه القيصر . وكانت هذه المؤسسة تلاحق وتعا
جميع المرتدين عن الدين وتعمل على نشر المسيحية بالقوة بين الشعوب غير الرو
وتفرض رقابتها على المطبوعات . وفي الوقت نفسه حدد بطرس الاول ملكية الكن
للارض واخذ يتصرف بضياع الكنيسة والاديرة وأموالها ويستغل هذه الاموال لـ
أمور الدولة . كذلك منع القيصر الشبان الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين سنة
الانخراط في سلك الرهبنة والزم القسس بالوعظ في الكنائس وتعليم الاطفال الص
وذلك من أجل أن يتعودوا منذ الطفولة على مخافة الله واحترام القيصر .

الاصلاح العسكري

الغى بطرس الاول فرق «الرماة» وأسس جيشا نظاميا كان أفراده من الفلا
وسكان المدن وكانت الخدمة فيه مدى الحياة أما الضباط فانهم كانوا من النبلاء الذين
يكن يسمح لغيرهم بتولي هذا المنصب . وقد جهز الجيش ببنادق من انتاج وطني وا
للجنود زي موحد وبدأوا يتدربون على شؤون القتال وفق أحدث النظريات وازدا
بشكل خاص قوة سلاح المدفعية واقيمت في المناطق الحدودية حصون جديدة بنيت
أحدث قواعد الفن العسكري في تلك الايام وانشئ أسطول قوي في بحر البلطيق
عدد سفنه حتى نهاية حرب الشمال خمسا وثلاثين سفينة شراعية كبيرة وثمانمائة سـ
أخرى من مختلف الاحجام . وأنشئت ترسانات لبناء السفن، فقد بلغ عدد السفن
بنيت في ترسانات بطرسبورغ في عهد بطرس الاول أثنين وخمسين سفينة شرا
بالأضافة الى عدة مئات من سفن المجاديف الصغيرة . وقد أدى نظام الخدمة العسـ
الذي صدر في ١٧١٦ دورا كبيرا في تقوية الجيش حيث كانت التعليمات تتطلب
الضابط الاجتهاد في تعليم الجنود أساليب القتال وتفهم قضية الجندية بكل جوا
وتأكيد أظهار المبادرات الذكية في أثناء المعركة . وكانت المدارس العسكرية التي أسـ

في عهد بطرس الاول تخرج من الضباط الروس مايكفي لسد حاجة الجيش والاسطول الامر الذي جعل بالامكان الاستغناء عن خدمات الاجانب . ولا أدل على العناية الفائقة التي كانت الحكومة الروسية في عهد بطرس الاول توليها للجيش والاسطول من حقيقة أن مصروفات الجيش والاسطول الحربي كانت تحتل آنذاك المركز الاول في ميزانية الدولة حيث بلغت نسبتها ٨٠٪ من الميزانية .

وكان من نتائج الاصلاحات التي أجراها بطرس في المجال العسكري ان أصبحت روسيا تمتلك واحدا من اقوى الجيوش الاوربية وأكثرها تنظيما وتسليحا وتدريبا على القتال ولهذا أستطاعت روسيا بفضل هذا الجيش أن تتغلب على الجيش السويدي الذي كان من أقوى الجيوش الاوربية آنذاك .

الاصلاحات في مجال الثقافة والتعليم

كان من أبرز اعمال بطرس الاول وأبعدها أثراً أنشاؤه للتعليم المدني في روسيا ، اذ لم يكن يوجد في كل روسيا قبله أي معهد دراسي مدني فقد كان المعهد الدراسي الوحيد هو الاكاديمية السلافية ـ اليونانية ـ اللاتينية وهي مؤسسة دينية كانت تعيش في حالة تدهور واضح . وهكذا أنشئت في ١٧٠١ في موسكو مدرسة للملاحة كانت تضم الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة (مدد السن المطلوب بعد ذلك الى العشرين) يدرسون فيها الحساب والهندسة وعلم الفلك والمساحة . وقد تحولت هذه المدرسة فيما بعد الى أكاديمية بحرية ونقلت الى بطرسبورغ وأصبح خريجوها يعملون معلمين في المدارس الابتدائية المختلفة التي انشئت في الاقاليم والتي بلغ عددها في عهد بطرس الأول أثنين واربعين مدرسة . وكذلك توسعت شبكة المدارس الدينية في روسيا . وفي ١٧٠٧ أفتتح معهد طبي تابع لمستشفى موسكو وأنشئت بالاضافة الى ذلك معاهد دراسة مهنية متخصصة في الاقاليم لتعليم المهن المختلفة . وعلى الرغم من ان الاساليب التربوية في المدارس كانت تتصف بالخشونة والعقاب كان شائعا في المدارس الامر الذي كان يؤدي الى هرب الكثير من التلاميذ من المدارس وحرمانهم من فرص التعليم الا ان اجراءات حكومة بطرس الاول في هذا المجال أدت الى أزدياد عدد المتعلمين واخذ التعليم المدرسي يشمل أوساطا متزايدة باستمرار من أبناء المجتمع الروسي .

وأزداد توجه الشبان الروس للدراسة في الخارج ولاسيما لدراسة العلوم العسكرية والبحرية وقد أثر ذلك في أنتشار المعرفة . وقد ظهر من بين أولئك الشبان الذين درسوا في الخارج العديد من الشخصيات العلمية التي برزت في النصف الاول من القرن الثامن عشر في مختلف فروع المعرفة .

وقد أولى بطرس الاول أهتماما كبيرا لنشر المعرفة عن طريق الطباعة فقد شارك شخصيا في تطوير الخط الروسي القديم وأستنباط خط مدني جديد أخذ يستعمل في الطباعة بحيث أقتصر أستعمال الخط القديم على الكتب الكنسية فقط الامر الذي سهل الى حد كبير قراءة الكتب وفهمها . وفي ۱۷۰۳ صدرت أول جريدة في روسيا كانت تنشر أخباراً عن المعامل الجديدة وأكتشاف معادن جديدة وغير ذلك من الامور الاقتصادية الى جانب الاخبار السياسية والعسكرية . وازداد الأهتمام في هذه المرحلة أيضاً بترجمة الكتب المهمة من اللغات الاجنبية الى اللغة الروسية .

واهتم بطرس الأول بالبحث العلمي فقد نظمت في عهده أول البعثات العلمية لدراسة المناطق المختلفة من روسيا . وكان بطرس قد وضع مشروعاً لانشاء اكاديمية علوم في روسيا وقد تحقق هذا المشروع عام ١٧٢٥ بعد وفاته بقليل . وبعد وفاته أيضاً تحقق أرسال البعثة البحرية الشمالية التي أثبتت أن هناك مضيقاً يفصل بين قارتي آسيا وامريكا وقد أطلق أسم قائد البعثة بيرنج على هذا المضيق . ولوحظ في هذه المرحلة تطور واضح في العلم والتكنيك وظهر عدد من العلماء والمخترعين الذين اسهموا في دفع عملية التقدم الى امام .

وفي ۱۷۰۲ افتتح في موسكو مسرح كان دخوله مباحاً لجميع افراد الشعب وكان ذلك تطوراً جديداً في روسيا اذ لم يكن يوجد فيها قبل بطرس الاول الا مسرح واحد تابع للبلاط .

وشمل التطور فن العمارة ايضاً حيث برزت الى مكان الصدارة العمارة المدنية بدلاً من طراز القرن السابع عشر الذي كان يغلب عليه الطابع الكنسي .

وحصل تغيير ايضاً في الفنون التشكيلية حيث استبدلت الموضوعات المستمدة من التوراة والانجيل بموضوعات مستمدة من الحياة اليومية وبرز في هذا المجال بشكل خاص رسم الصور الشخصية واقامة التماثيل والنصب للمشاهير من الشخصيات

لقد اعطت اجراءات بطرس الاول في المجال الثقافي على الرغم من كل السلبيات التي رافقتها نتائج ملموسة فقد اصبح النبيل الروسي بعد اصلاحات بطرس يتمتع بحد ادنى من الثقافة ويستطيع ان يتصرف في المجتمع الراقي . ومع ذلك لابد من ملاحظة ان التغييرات الثقافية التي جرت في عهد بطرس الاول لم تمس في اول الامر الا

المجتمع الروسي ولهذا فانها اوجدت هوة كبيرة بين السيد الروسي المتعلم والفلاح الروسي الجاهل .

التطـــورات الاجتماعيـــة

برزت في روسيا في عهد بطرس الاول ظاهرة اجتماعية هي زيادة نفوذ ومكانة النبلاء في المجتمع بحيث اصبحوا طبقة سائدة فعلاً تتركز في يدها جميع وظائف الدولة العسكرية والمدنية بالاضافة الى الاجراءات المختلفة التي اتخذتها الحكومة والتي من شأنها تعزيز الوضع الاقتصادي لهذه الطبقة .

لقد كانت الخدمة في القوات المسلحة الزامية لجميع النبلاء ولم يعف منها الا الشيوخ والمرضى والمعوقون . وكان على النبيل ان يبدأ خدمته العسكرية جندياً في المشاة او بحاراً في الاسطول . اما وظائف الخدمة المدنية التي كانت اسهل فلم يكن يسمح بالدخول اليها لاكثر من ثلث افراد كل عائلة من عوائل النبلاء . وقد كان الشبان من النبلاء يتمتعون في اثناء اداء خدمتهم العسكرية بافضليات معينة لايتمتع بها الاشخاص العاديون كما انهم كانوا ينالون ترقياتهم بشكل اسرع .

واصدر بطرس الاول في ١٧٢٢ مايسمى «لائحة الرتب» التي حددت الرتب العسكرية والمدنية في الدولة وقد ظلت هذه اللائحة رغم التغييرات التي ادخلت على تسميات الرتب الدنيا والعليا فيها قائمة حتى سقوط النظام القيصري عام ١٩١٧ م .

وقد ساعدت لائحة الرتب هذه على دخول العسكريين والموظفين المدنيين الذين لاينحدرون من اسر نبيلة الى صفوف طبقة النبلاء ذلك ان تسلم منصب معين كان يعطي لصاحبه الحق في ان يصبح نبيلاً . وقد دخل في عهد بطرس الاول في صفوف الطبقة النبيلة العديد من الناس العاديين واصبحوا من النبلاء ذوي الالقاب لاسيما ان بطرس الاول كان يوزع الالقاب الاقطاعية التي لم تكن مألوفة قبل ذلك في روسيا مثل «كونت» و «بارون» على من يروق له من الناس . وقد ادى كل ذلك الى زيادة عدد افراد طبقة النبلاء لكنه لم يؤثر في وضعها الاجتماعي ذلك ان كل شخص كان بعد ان ينضم اليها يقطع صلته على الفور بطبقته السابقة .

لقد اهتم بطرس الاول بتعزيز الوضع المادي للنبلاء الروس فاصدر في ١٧١٤ قانون وحدة وراثة ممتلكات النبلاء الذي منع تجزئة ضياع النبيل بين ورثته . فبموجب هذا القانون يورث النبيل ملكيته غير المنقولة لواحد من ابنائه فقط اما بقية الابناء فلايرثون الا النقود . وكان الهدف من هذا القانون هو دفع ابناء النبلاء الى الانخراط في وظائف

الدولة ومنعهم من العزوف عنها والعيش في ضياع آبائهم . وقد ثبت ان هذا القرار الذي احتذي في تشريعه بقواعد وراثة الارض المعمول بها في كل من فرنسا وانكلترا يكن ملائماً للواقع الروسي الذي جرت العادة فيه على تقسيم الارض بين الورثة ولذلك فقد الغي فيما بعد كما سنرى .

وكانت الخدمة في الجيش وفي وظائف الدولة المختلفة تتطلب حداً معيناً من التعليم ولهذا فقد حتم على كل نبيل ان يعرف القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وقد ساعد ذلك على تميز طبقة النبلاء كفئة خاصة في الدولة .

ومن الناحية الاخرى ادى تطور الصناعة والتجارة في روسيا الى ارتفاع شأن سكان المدن وزيادة عددهم حتى بلغ في الربع الاول من القرن الثامن عشر مايقرب من ٣٠ الف نسمة وقد قسم سكان المدن فئتين اطلق على الفئة الاولى التي تشمل الصناعيين والتجار والحرفيين وذوي المهن الحرة كالاطباء والصيادلة وغيرهم اسم «النظاميون» وعلى الثانية التي تضم الفقراء والذين يشتغلون بالاجر اسم «غير النظاميين» او «الارذال» كما سميوا رسمياً ، وكانت المشاركة في انتخاب البلديات في المدن مقتصرة على افراد الفئة الاولى فقط ، اما افراد الفئة الثانية فلم يكونوا يتمتعون بهذا الحق او بغيره من الحقوق التي يتمتع بها «النظاميون» .

كان تنامي امتيازات النبلاء والتجار على حساب الفلاحين الذين وقعت على عاتقهم مصاعب الحروب الكثيرة التي خاضها بطرس الاول كما انهم كانوا يتحملون عبء الضرائب الكثيرة ، ذلك ان النبلاء ورجال الدين كانوا معفوين من الضرائب باعتبارهم من الطبقات ذات الامتيازات . ولذلك كان وضع الفلاحين سيئاً للغاية فالالتزامات المفروضة عليهم تجاه الاقطاعيين والحكومة كثيرة للغاية ونسبة الوفيات بينهم بسبب صعوبة العمل والامراض عالية ولهذا فانهم كثيراً ماكانوا يهربون الى المناطق النائية من البلاد ، ولهذا ايضاً كثرت الانتفاضات التي قاموا بها في هذه المرحلة .

ومع تطور الصناعة في روسيا اخذت تتكون فيها الطبقة العاملة التي كانت تتألف من سكان المدن الفقراء والعمال الحكوميين وكذلك نزلاء السجون والفقراء المتشردين الذين اصبحوا في عهد بطرس الاول يجبرون على العمل في مؤسسات الانتاج بالقوة . لقد كان الاجر الذي يتقاضاه العامل واطئاً جداً بل ومعدوماً بالنسبة الى فلاحي الدولة[1] الذين

---

(١) فلاحو الدولة هم فئة خاصة من سكان روسيا في عهد القنانة تشكلت بموجب مراسيم اصدرها بطرس الاول ، من بقايا سكان الريف الذين لم يتحولوا الى اقنان بعد وهم بخلاف اقنان الملاكين واقنان العائلة القيصرية احرار من الناحية الشخصية يعيشون في الاراضي التي تعود ملكيتها الى خزينة الدولة ويستغلون الارض المخصصة لهم مقابل ايجار معين ويخضعون لادارة مؤسسات الدولة .

ارسلوا للعمل في المعامل لان هؤلاء كانوا يقومون بكل ماتتطلبه طبيعة عمل الحديد تعويضاً عن الالتزامات المفروضة عليهم تجاه الدولة . وكان على العمال الشباب ان يجتازوا مرحلة تدريب تستمر مدة سبع سنوات لايتقاضون خلالها اي اجر . وكان استخدام النساء والاطفال في المعامل منتشراً على نطاق واسع ، والظروف الصحية في المعامل وفي اماكن السكن من اسوأ مايكون فالرطوبة والقذارة والبرد وسوء الاضاءة كانت تؤدي الى انتشار الاوبئة والامراض بين العمال وكان يوم العمل يتراوح مابين ١٢ و ١٤ ساعة كما ان القانون كان يعطي صاحب العمل الحق في معاقبة العمال بالضرب بعصي خاصة او تكبيلهم بالاغلال ورميهم في السجون الباردة .

ومع كل ذلك كان للاصلاحات التي اجراها بطرس الاول في الربع الاول من القرن الثامن عشر اهمية بالغة بالنسبة الى روسيا ذلك انها زادت من قوة الدولة الروسية ووضعتها في مصاف الدول الاوربية الكبرى وخلصتها من حالة التأخر الاقتصادي والثقافي .

وقد اثارت هذه الاصلاحات رد فعل عنيفاً في اوساط البويار وكبار رجال الدين الذين اخذوا يعملون بكل السبل لوقفها وكانت هذه الاصلاحات احد الاسباب التي ادت الى تمرد «الرماة» في ١٦٩٨ كما ان الامير الكسي بن بطرس الاول نفسه انضم الى معسكر اعداء الاصلاح فقدمه ابوه الى المحاكمة وصدر عليه الحكم بالاعدام عام ١٧١٨ .

لقد كان القيصر بطرس الاول العامل المحرك الاول لهذه الاصلاحات وقد مكنه من ذلك مايتمتع به من طاقة لاتنضب ونشاط جم وبعد نظر في المجال السياسي واخلاص شديد لمصلحة الدولة . لقد عمل بطرس الاول الكثير لتقوية روسيا واعلاء شأنها لكن اصلاحاته ا ت ايضاً الى رسوخ نظام القنانة وزيادة ثقله على عاتق الجماهير والى زيادة استغلال واضطهاد الشعوب غير الروسية القاطنة في الامبراطورية الروسية ذلك ان الحكومة القيصرية كانت تستند الى جيشها القوي المدرب وتستخدمه لقمع الانتفاضات الشعبية وللتنكيل بالشعوب غير الروسية في الامبراطورية .

الانتفاضات الشعبية في عهد بطرس الاول

كان ازدياد مكانة النبلاء في عهد بطرس الاول على حساب الفلاحين لان السلطة حولت فلاحي الدولة وفلاحي البلاط الى اقنان لمصلحة النبلاء . كذلك استحوذ ملاكو حوض الفولغا واكرانيا والمناطق الجنوبية من البلاد على اراضي الفلاحين واستبدلت

الحكومة الضريبة السابقة التي كانت تفرض عن اراضي الفلاحين بضريبة جديدة تؤخذ
على الرأس كان على الفلاحين بمختلف انواعهم وعلى الذكور من سكان المدن ان
يدفعوها بغض النظر عن اعمارهم واهليتهم للعمل .

لقد ازداد وضع الجماهير سوءاً ذلك انها كانت تتحمل عبء المصاريف الهائلة التي
تطلبتها مشاريع بطرس الاول العسكرية والمدنية وكان العبء الاكبر في ذلك يقع على
عاتق الفلاحين حتى انهم اشتكوا في احدى عرائضهم من سوء الوضع الذي يعانوه
ووصفوا حالتهم بهذا الشكل المؤثر :- «نحن مساكين . . . ليس عندنا ماندفعه او
نشتري به الخبز اننا لانملك ماشية او متاعاً وليس لدينا مايباع او يرهن . . اننا نموت
جوعاً» . . غير ان امثال هذه الشكايات لم تكن تلقى اذناً صاغية من قبل الحكومة .

وهكذا لم يبق امام الجماهير الا الثورة التي اشتعلت في ١٧٠٥ - ١٧٠٦ في إستراخان
وشارك فيها «الرماة» والجنود وسكان المدينة والفلاحون الهاربون وسكان القرى المجاورة
والقوزاق[١] ، وتمكن الثوار من الاحتفاظ بالسلطة في المدينة مدة تسعة اشهر غير ان
قوات الجيش النظامي التي ارسلت لقمع الانتفاضة تمكنت من القضاء عليها في ربيع
١٧٠٦ . وذلك بسبب انشقاق الثوار على انفسهم وتفوق قوات الحكومة . ولكن الحركة
الثورية انتقلت الى بشكيريا التي ظلت الثورة مشتعلة فيها من ١٧٠٥ حتى ١٧١١ .

واندلعت في ١٧٠٧ انتفاضة كبيرة اخرى في الدون قامت بها في البداية فصائل
القوزاق والفلاحون الهاربون الذين كانوا يعيشون في المدن الواقعة على روافد الدون
العليا ، ولم يلبث ان انضم اليهم قوزاق وفلاحو اكرانيا وكذلك عمال المماالح واستطاع
القوزاق ان يتغلبوا على فصيل ارسلته السلطة لقمع انتفاضتهم غير ان متنفذي القوزاق
الذين كانوا قد انحازوا الى السلطة تمكنوا من القضاء على قوات الثورة التي كان يقودها
كوندراتي بولافين الذي اضطر الى الاختفاء . ولكنه عاد في ١٧٠٨ بقوة جديدة وتحرك
باتجاه مدينة تشركاسك وقد وجه وهو في الطريق الى هذه المدينة رسائل خاصة الى العامة
داعياً اياهم الى سحق البويار وحكام الاقاليم والى تحرير المعتقلين والانضمام الى الثورة
وتمكن من القضاء على قوة عسكرية ارسلت لمحاربته وقد بلغ عدد اتباعه عندما اقترب
من تشركاسك خمسة عشر الف شخص . واخذت الانتفاضة بالتوسع فشملت كل اعالي
نهر الدون وروافده وحوض الفولغا الاسفل وجميع الاقاليم الجنوبية في روسيا . وفي آيار

القوزاق كلمة غير روسية معناها الحرفي الشخص المقدام او الشخص الحر . اعتباراً من نهاية القرن الخامس
اصبحت هذه الكلمة اسماً يطلق على كل السكان الاحرار القاطنين في اطراف الدولة الروسية

١٧٠٨ تمكن بولافين من احتلال تشركاسك بمساعدة سكانها الثائرين ثم حاصر آزوف ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها .

ولكن بولافين لم يستطع حشد قواته في الوقت المناسب لملاقاة الجيش الحكومي الجديد الذي ارسل لمحاربته كما خانه رئيس القوزاق الذي وثق به . وكانت النتيجة ان قتل بولافين ولكن اتباعه واصلوا المقاومة مدة اخرى بعد موته ولم تنته الثورة الا في خريف ١٧٠٨ عندما تمكنت القوات الحكومية من قمعها بمنتهى القسوة .

وكانت ظروف العمال السيئة التي اشرنا اليها تدفعهم الى الثورة ايضاً ففي خريف ١٧٢٠ اضرب عمال مؤسسة نسيج الجوخ في موسكو احتجاجاً على تعسف صاحب العمل ووكلائه ، كذلك قام الفلاحون الذين نسبوا للعمل في مضانع الاورال بانتفاضات واسعة رفعوا خلالها السلاح ضد القوات الحكومية التي ارسلت للقضاء على انتفاضاتهم وقد اضطر قسم كبير منهم الى الهرب الى سيبريا .

التطورات السياسية بعد بطرس الاول

تميزت الحياة السياسية في روسيا في السنوات الاولى التي اعقبت وفاة بطرس الاول بكثرة الانقلابات السياسية حيث تعاقب على العرش الروسي عدد كبير نسبياً من القياصرة والقيصرات . وكان تبدل الاباطرة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالصراع الذي كان محتدماً بين مختلف التكتلات المتنازعة في البلاط . غير ان الصراع حول العرش لم يغير من جوهر النظام القائم باعتباره تجسيداً لسيادة الاقطاعيين ولا من مؤسسات السلطة كوسائل لتحقيق هذه السيادة ، ولهذا فان الانقلابات كانت تحدث بسهولة تثير الدهشة . ففي ١٧٢٥ ، اعتلت العرش الروسي بعد موت بطرس الاول زوجته اياكاترينا الكسيفنا (كاترين الاولى) (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ويعود الدور الرئيسي في اسناد العرش لها الى منشيكوف ومؤسسة الشؤون العسكرية التي كان رئيساً لها . وبعد موت كاترين اسند انصار منشيكوف العرش الى بطرس الثاني حفيد بطرس الاول وكان عمره اثني عشرة سنة . وقد ازداد في عهد بطرس الثاني الذي لم يستمر طويلاً (١٧٢٧ - ١٧٣٠) نفوذ التكتلات الارستقراطية فتكون بدلا من السينات مجلس سري اعلى كان النفوذ فيه لجماعة مناوئة لمنشيكوف هم آل دلجوروكي وآل جاليتسين وقد استطاع هؤلاء ان يستصدروا امراً باعتقال منشيكوف ونفيه الى سيبريا .

وبعد ان توفي بطرس الثاني في ١٧٣٠ متأثراً بالجدري انتقلت السلطة في روسيا الى المجلس السري الاعلى وقد اتفق اعضاء هذا المجلس على اسناد العرش الى أنا ايفانوفنا

(١٧٣٠ - ١٧٤٠) وهي ابنة ايفان الاخ الأكبر لبطرس الاول وقد اضطرت هذه الامبراطورة الى التوقيع على وثيقة وضعها المجلس تضمنت شروطاً لتحديد سلطتها لصالح الارستقراطية فقد نصت هذه الشروط على ان الامبراطورة لايحق لها اعلان الحرب او عقد الصلح او فرض الضرائب او صرف اموال الدولة او تعيين وريث للعرش الا بموافقة المجلس . ولكن الامبراطورة استغلت استياء الكثير من النبلاء من تصرفات المجلس فالغت هذه الشروط وانشأت مايسمى بـ «مكتب الوزراء» وعدته المؤسسة العليا في الدولة .

وقد صدر في عهد آنا ايفانوفنا قانون يسمح للنبلاء بان يقسموا ممتلكاتهم غير المنقولة بين ورثتهم بالتساوي وبذلك الغي قانون وحدة وراثة ممتلكات النبلاء الذي صدر في عهد بطرس الاول وقد أشرنا اليه سابقاً . كذلك لم يعد ينفذ القانون الذي اصدره بطرس الاول حول الخدمة العسكرية والذي كان يقضي بفرض الخدمة العسكرية الالزامية على النبلاء بحيث يبدأون من رتبة جندي فقد اصبح الآن من حق النبلاء وحدهم اشغال مناصب الضباط بعد ان اخذوا يتحايلون على ذلك القانون حيث انهم كانوا يعمدون بعد انهاء المدرسة العسكرية الى الاكتفاء بمجرد تسجيل اسمائهم في مختلف وحدات الجيش كجنود ولكنهم في الواقع ينصرفون الى اقطاعياتهم ولايأتون الى الخدمة الفعلية في الوحدات الا بعد ان يصبحوا ضباطاً .

وكانت آنا ايفانوفنا تنتهز أي فرصة تسنح لابعاد النبلاء الروس الذين ساندوها في صراعها مع المجلس السري الاعلى واخذت تحيط نفسها بالالمان[1] فازداد في عهدها الى درجة كبيرة نفوذ ارنست بيرون الذي كان يدربها على ركوب الخيل .

لقد كانت انا ايفانوفنا كسولة محدودة الذكاء تقضي أغلب اوقاتها في الاسطبل وحفلات اللهو . وقد صرفت أموالا طائلة على الاحتفالات الباذخة وحفلات اللهو. في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورة سادرة في لهوها كانت اسرة بيرون تختلس اموال الدولة ، وتنتزع الضرائب المتأخرة من الفلاحين وسكان المدن المعدمين بأساليب شديدة وتنتهج سياسة خارجية تضر بمصالح روسيا .

---

(1) كانت انا ايفانوفنا قد تزوجت في ١٧١٠ من دوق كورلياند الالماني فردريك وليم ولكنه لم يلبث ان توفي فظلت تعيش هناك . وعندما اصبحت امبراطورة لروسيا قربت الاقطاعيين الالمان من كورلياند بلد زوجها وكذلك من اقطاعيي منطقة البلطيق الالمان الذين شكلوا كما ذكرنا سابقاً مجموعة ذات نفوذ في صفوف الارستقراطية الروسية .

وقد أدى ذلك كله الى استياء النبلاء الروس فنظموا مؤامرة يزعمها أحد اعضاء مكتب الوزراء هو فولينسكي . لقد كان فولينسكي وانصاره يهدفون الى التخلص من سيطرة الاجانب واعادة مجلس السينات الى سابق سلطته والعودة الى سياسة بطرس الاول الداخلية غير ان المؤامرة اكتشفت واعدم فولينسكي واثنان من انصاره وجلد بقية المتآمرين بالسياط ثم نفوا الى سيبريا .

وبعد موت آنا ايفانوفنا بمدة قصيرة تمكن النبلاء من اسناد العرش الى اليزافيتا بتروفنا (اليزبث) (١٧٤١ - ١٧٦١) ابنة بطرس الاول وقد اعادت اليزابث هذه السينات الى سابق عهده لكن السلطة الفعلية كانت بيد حفنة من المقربين من الامبراطورة في مقدمتهم الاخوان فرنتسوف وآل شوفالوف وغيرهم . وازداد نفوذ الحرس الذي يتألف من النبلاء والذي ادى الدور الاساس في تنصيب اليزافيتا بتروفنا على العرش فقد تسلم افراده مكافآت عالية ومنحوا الترقيات والضياع .

وكانت حكومة اليزافيتا بتروفنا تعمل لمصلحة النبلاء والتجار حيث قامت بتوزيع الاراضي العائدة الى فلاحي الدولة على الملاك وخصوصاً في حوض الفولغا واكرانيا واصبح من حق النبلاء ارسال الفلاحين للخدمة في الجيش او نفيهم الى سيبريا وازداد الاضطهاد القومي للشعوب غير الروسية وانشات الحكومة مصرفاً خاصاً للاقراض اخذ يقدم للتجار والنبلاء سلفاً نقدية والغيت الضرائب الكمركية الداخلية الامر الذي سهل التجارة ووضعت تعريفة كمركية جديدة فرضت ضرائب عالية على البضائع المستوردة . واتخذت الحكومة بعض الاجراءات لتشجيع الصناعة ، وظل وضع الجماهير صعباً فقامت في اواسط القرن الثامن عشر الكثير من الانتفاضات لاسيما في موسكو وفي الاورال وغيرها من المراكز الصناعية .

وفي ١٧٥٦ قامت في اوربا حرب السبع سنوات التي اشتركت فيها الاغلبية الساحقة من الدول الاوربية وقد دخلتها روسيا الى جانب فرنسا والنمسا ضد بروسيا لان مخططات الملك البروسي فردريك الثاني كانت تهدد المصالح الروسية في المناطق المتاخمة للبلطيق . وقد أحرز الجيش الروسي في هذه الحرب انتصارات لامعة حتى ان بعض فصائله دخلت العاصمة البروسية برلين ثم انسحبت منها . غير ان موت الامبراطورة اليزافيتا بتروفنا فجأة في ١٧٦١ انقذ بروسيا حيث اعتلى العرش بعدها بطرس الثالث وهو ابن آنا الابنة الكبرى لبطرس الاول من زوجها دوق دوقية هولشتاين الالمانية . وكان بطرس هذا المانياً في تربيته وعاداته يحتقر روسيا والروس ولايتورع عن المجاهرة بذلك . وقد بادر بمجرد ان تسنم العرش الى عقد صلح مع فردريك الثاني وبدأ معه محادثات لعقد حلف عسكري بين الاثنين ضد الدنمارك وهدفه من ذلك توسيع ممتلكاته

في هولشتاين . ولم يكتف بذلك بل ارسل بعض قطعات الجيش لمساعدة فردريك ال
واصدر امراً بارسال الحرس لهذا الغرض ايضاً قبل ان تنتهي المفاوضات . وقد أثار
استياء نبلاء العاصمة فنظمت مجموعة من المتآمرين في حزيران ١٧٦٢ إنقلاباً جد
كان من نتيجته ان اطيح بالقيصر ونصبت زوجته اياكاترينا الكسييفنا (كاترين الثا
(١٧٦٢ - ١٧٩٦) امبراطورة لروسيا ، اما بطرس الثالث فقد قتل على يد الضباط
ذلك .

وكانت كاترين هذه ابنة لواحد من صغار النبلاء الالمان استطاعت ان تستغل ط
زوجها بمهارة فائقة ، وباعتلائها العرش تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التار
الروسي .

الفصل الثاني

روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

بداية تحلل نظام القنانة

روسيا في النصف الثاني

من القرن الثامن عشر بداية تحلل نظام القنانة

التطورات الاقتصادية في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

إتسعت مساحة روسيا خلال القرن الثامن عشر نتيجة لتوسعها في الغرب والجنوب فقد استولت على لتوانيا وبيلوروسيا والاراضي المتاخمة للبلطيق في الغرب وعلى اكرانيا الضفة اليمنى وجميع المناطق المتاخمة للبحر الأسود من جهته الشمالية بما فيها القرم في الجنوب كما ان جزءاً من سكان كازاخستان اصبحوا من رعايا روسيا . اما في الشرق فقد امتدت ممتلكات روسيا الى جزر أليوت في المحيط الهادي بل والى الاسكا في القارة الامريكية . وهكذا ازدادت مساحة روسيا من ٦٨٧ ألف كيلومتر مربع في نهاية القرن السابع عشر الى ٩١٣ ألف كيلومتر مربع في نهاية القرن الثامن عشر وازداد سكانها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من ١٦ مليون نسمة إلى ٣٧ مليون نسمة .

وكان القسم الاوسط من روسيا الاوربية ينقسم الى محافظات الارض السوداء ومحافظات الارض غير السوداء . وكان هذا القسم الاخير اكثر كثافة في السكان ولكنه يعطي محصولاً قليلاً بسبب تأخر أدوات الزراعة وعدم وجود الاسمدة لذلك كان سكان هذا القسم الذي تقع فيه كثير من المدن الروسية الكبيرة مثل بطرسبورغ وموسكو وياروسلافل وتفير ونوفجورد السفلى وغيرها غير قادرين على تأمين الغلال لانفسهم الامر الذي دفع الفلاحين هناك الى الاشتغال بالحرف فكانوا يذهبون الى المدن للعمل بالاجر في المؤسسات الانتاجية وغيرها وقد بلغت نسبة السكان الذين توجهوا للعمل في المدن فانقطعوا لهذا السبب عن الزراعة في نهاية القرن الثامن عشر مابين خمس وثلث عدد الرجال البالغين في هذا الجزء من البلاد الروسية . وتكونت في المحافظات القريبة من موسكو منطقة صناعية مهمة حيث تركزت في موسكو وبطرسبورغ وياروسلافل وتفير وتولا وفلاديمير ونوفجورد السفلى وكالوجا اغلبية مؤسسات انتاج النسيج بالاضافة الى المصنوعات الاخرى . كذلك قامت في جبال الاورال منطقة صناعية اخرى تركزت فيها صناعة التعدين والصناعة المعدنية ، وكانت منطقة الاورال الجبلية ايضاً تحتاج الى جلب الحبوب وغيرها من المواد الغذائية من المناطق الاخرى .

اما محافظات الارض السوداء وتقع الى الجنوب من موسكو فانها تخصصت بالزراعة وكذلك اصبحت سهوب اكرانيا من المناطق الزراعية المهمة وكانت هذه المناطق بحاجة الى تصريف منتجاتها الزراعية والى جلب البضائع الصناعية . وقد كان تخصص هذه المناطق في الانتاج الزراعي نتيجة لتوسع التبادل الداخلي كما اصبح هذا التخصص في الوقت نفسه مقدمة مهمة لمواصلة توسع السوق الداخلي في روسيا الذي اخذ يرتبط بعلاقات اقتصادية وتجارية مزدهرة مع الدول الخارجية .

لقد ظلت روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بلدا زراعيا ذلك ان ٤٪ من سكانها فقط كانوا يعيشون في المدن بشكل دائم ، كذلك ظلت الادوات المستخدمة في الزراعة متأخرة واساليب ادارة العمل الزراعي قديمة غير ان بعض الملاكين حاولوا تحسين الزراعة في ضياعهم فاستعملوا الاسمدة واتبعوا نظام الحقول المتعددة والدورات الزراعية واستخدموا الادوات الحديدية في العمل الزراعي وغير ذلك من الامور . وجرى توسع في زراعة المنتجات التي تدخل في الصناعة كالكتان والقنب والخردل . ومن الناحية الاخرى توسعت عملية استيطان الاراضي الخصبة في الجنوب واستغلالها ، كذلك انتشرت الزراعة في الاراضي المتاخمة للبحر الاسود بعد ان انضمت تلك المناطق الى روسيا حيث اخذ الفلاحون ينقلون الى هناك من المناطق الوسطى في روسيا واكرانيا . ومما ساعد على تطور الزراعة في المناطق الجنوبية توفر امكانية تصدير المنتجات الزراعية عن طريق موانئ البحر الاسود فبدأت تلك المناطق تتوسع في انتاج الحبوب والمحاصيل المستخدمة في الصناعة لغرض البيع وليس لسد الحاجة المحلية فقط .

وقد انعكس هذا التطور الذي حصل في الزراعة سلبيا على احوال الفلاحين حيث شدد الملاكون في محافظات الارض السوداء التي هي محافظات زراعية بالاساس من السخرة واوصلوها الى ٤ ـ ٥ ايام واحيانا ستة ايام في الاسبوع وخصوصا في الفترة التي تشتد فيها الاعمال الزراعية ، كذلك نقل النبلاء قسما من اقنانهم الى «الشهرية» اي انهم اصبحوا يدفعون لهم راتبا شهريا زهيدا مقابل اجبارهم على ترك اراضيهم والعمل في مزارع السادة . وكانت نتيجة ذلك ان تقلصت اراضي الفلاحين وازداد فقرهم . اما في محافظات الارض غير السوداء فقد اخذ الملاكون يستوفون حقوقهم من الفلاحين على شكل ضريبة نقدية . وبما ان ايرادات استثمارات الفلاحين لم تكن تكفي لسد هذه الضريبة التي كان مقدارها يزداد باستمرار فقد اضطر الفلاحون الى النزوح الى المدن او الى المناطق التي تعاني نقصا في الايدي العاملة للاشتغال هناك بالاجرة . وادى اشتغال الفلاحين في المدن الى ازدياد التفاوت في الثروة بين الفلاحين فظهر من بينهم فلاحون يملكون رؤوس اموال وآخرون موسرون يمارسون التجارة والصنائع ويزاولون الربا واستئجار الارض سرا من الفلاحين الفقراء .

لقد كانت المجاعات وسنوات سوء المحصول تحل في روسيا باستمرار وكان آلاف الفقراء يغرقون المدن في سنوات المجاعة يتسولون في شوارعها وكان اليأس يدفع بعضهم الى التحول الى قطاع طرق لذلك صدرت في القرن الثامن عشر الكثير من المراسيم التي تؤكد للمحافظين ضرورة القبض على الفقراء والمتشردين واعادتهم مخفورين الى محلات عملهم وارسال من لا يمتلك منهم بطاقة هوية الى الاشغال الشاقة . وكان من نتيجة ذلك كله ان تدهورت احوال الفلاحين وازدادت معاناتهم واخذ الاقتصاد الزراعي الذي هو الاساس الذي يرتكز عليه نظام القنانة بالتدهور .

ومن الناحية الاخرى جرى تطور ملحوظ في الصناعة فقد ازدادت المشاريع الصناعية من ٦٥٠ مشروعاً في سنينات القرن الثامن عشر الى ما يربو على الالفي مشروع في نهاية ذلك القرن وازدادت كمية الحديد الزهر المصهور في روسيا من مليوني بود في ١٧٥٠ الى عشرة ملايين بود في ١٨٠٠ وازداد عدد مؤسسات انتاج النسيج من ٦٠ في اواسط القرن الثامن عشر الى ٣٠٠ في بداية القرن التاسع عشر وظهرت فروع جديدة للصناعة مثل صناعة النسيج القطني واتسعت الصناعة الجلدية وصناعة الورق والاصباغ والصابون والقبعات . وكانت المؤسسات التي تنتج هذه البضائع تتخذ طابع المؤسسات الرأسمالية بشكل متزايد الوضوح فقد كانت تنتج لغرض البيع ويزداد فيها بشكل مطرد الوزن النوعي للعمل المأجور على الرغم من ان النبلاء ظلوا يحتكرون بعض الصناعات مثل تقطير المشروبات الكحولية وانتاج الاجواخ وان عمل الاقنان ظل واسع الانتشار في بعضها الاخر مثل صناعة التعدين والصناعة المعدنية في الاورال واقليم اولينتس . وقد تطورت صناعة التعدين بشكل خاص في جنوب الاروال وحوض نهر اوكا لان مؤسسات الانتاج التي تستخدم العمل المأجور كانت اوسع انتشارا هناك كما انها كانت اوثق اتصالا بالسوق الداخلي .

وقد تميزت في روسيا في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر مناطق تركزت فيها محلات حرفية صغيرة يمتلكها الفلاحون - التجار الذين اصلهم من الاقنان واخذت هذه المحلات بالتوسع واصبح مالكوها اصحاب مصانع بكل معنى الكلمة حيث يمتلكون مصانع للنسيج ودباغة الجلود وصنع السكاكين والاقفال وغير ذلك من المصنوعات .

واتخذت في ١٧٥٤ اجراءات مهمة ساعدت على تطور التجارة الداخلية كثيرا فقد الغيت الضرائب الكمركية الداخلية والغيت الضرائب التي تفرض على بيع الحبوب والمواد الغذائية الاخرى وكذلك على بيع الجلود والقطران وغيرها ومقابل نقل البضائع عبر الجسور . وادى ذلك الى جانب اتساع الملاحة النهرية بفضل انشاء العديد من القنوات التي ربطت الطرق النهرية ببعضها بحيث جعلتها تغطي منطقة واسعة تمتد من

بحر قزوين حتى بحر البلطيق ، الى نمو التجارة الداخلية والخارجية وزيادة تبادل البضائع بين المناطق الصناعية في الوسط والمناطق الزراعية واتسع دور الاسواق الموسمية وازداد حجم التجارة الخارجية حتى بلغت قيمة صادرات روسيا في ستينات القرن الثامن عشر ١٢ مليون روبل مقابل تسعة ملايين روبل هي قيمة وارداتها في نفس المدة وكانت بريطانيا وفرنسا وهولندا في الغرب والصين وايران والدولة العثمانية في الشرق في مقدمة الاقطار التي كانت روسيا تتاجر معها .

غير ان التأخر الاقتصادي الذي كانت روسيا تعانيه بالمقارنة مع اقطار اوربا الغربية اثر على تجارتها الخارجية فأزداد دور الشركات التجارية الاجنبية ازديادا كبيرا في تجارتها علما بأن روسيا لم تكن تمتلك اسطولا تجاريا بحريا يكفي لسد حاجات تجارتها الخارجية حيث لم يكن ينقل من البضائع التي تصدر وتستورد عن طريق الموانئ الروسية على سفن روسية الاخمس تلك البضائع فقط .

السياسة الداخلية قبل حرب الفلاحين

كانت الامبراطورة كاترين الثانية تختلف ايجابيا عن القياصرة الذين سبقوها مباشرة على العرش الروسي ولاسيا زوجها بطرس الثالث ، فقد اتقنت وهي الالمانية اللغة الروسية وتمثلت العادات والأعراف الروسية وسعت في مجال السياسة الخارجية الى الدفاع عن مصالح الدولة الروسية . لقد كانت كاترين الثانية ذات مؤهلات دبلوماسية بارزة استطاعت بفضلها ان تدير امور السياسة الخارجية بنجاح . وكانت مثقفة واسعة الاطلاع حاولت في الكثير من ممارساتها ان تأخذ بالحسبان موقف الرأي العام في اوربا ولهذا اقامت اتصالات مع فولتير و ديدرو و الانسكلوبيديين الفرنسيين وهدفها من ذلك ان تبدو في نظر الناس حاكمة ليبرالية متنورة . وقد استطاعت بذلك ان تغلف جوهر سياستها الموجهة للمحافظة على نظام القنانة والحكم المطلق ، ذلك انها كانت تعد النبلاء السند الاجتماعي للحكم المطلق ولهذا فأنها كانت تهتم بمصالحهم اكثر من اهتمامها بأي شيئ آخر . وقد تميز البلاط في عهدها بالاسراف والبذخ وكان لها الكثير من اصحاب الحظوة وبعضهم من الشخصيات البارزة التي اثرت في التاريخ الروسي في تلك المرحلة .

كان الوضع الداخلي في روسيا عندما اعتلت كاترين الثانية العرش متوتراً فقد افرغت حرب السبع سنوات خزينة الدولة حتى ان الحكومة عجزت عن دفع الرواتب للضباط والموظفين وساد استياء شديد بين اعضاء السينود وكبار رجال الدين بسبب مرسوم

مصادرة الاراضي الكنسية الذي اصدره بطرس الثالث . وفي الوقت نفسه توترت اضطرابات الفلاحين والعاملين في مؤسسات الانتاج فقد كان هناك في عام ١٧٦٢ وهو العام الذي ارتقت فيه كاترين الثانية العرش ٤٩ الفا من العاملين في مؤسسات الانتاج و١٥٠ الفا من فلاحي الملاكين والاديرة في حالة «هياج ظاهر» بأعتراف القيصرة نفسها . لقد حدث في السنوات الاولى من حكم كاترين الثانية ١٢٢ هياجاً فلاحياً كان الفلاحون خلالها «ينهبون بيوت الملاكين ويحرقونها» ويقتلون ساداتهم ويرفضون العمل بالسخرة ويهربون من المصانع . وكان الحرس منقسماً على نفسه الى مجموعات متصارعة واخذ من اشترك منهم في انقلاب ١٧٦٢ الذي اوصل كاترين الى السلطة يطالب بالمكافآت والرتب . حتى حق كاترين الثانية بالعرش كان موضع شك ، فمن وقت الى آخر كانت الشائعات تنتشر بين نبلاء العاصمة ضدها وضد ارلوف[1] والمؤامرات المعادية لها تكتشف بأستمرار . وكان نيكيتا بافلوفتش بانين وهو مربي ابن القيصرة بافل بتروفتش يتزعم مجموعة مؤثرة من النبلاء والموظفين ويرى تنصيب بافل علي العرش على ان تكون امه كاترين وصية عليه الى ان يبلغ سن الرشد لان عمر بافل لم يكن يتجاوز آنذاك الثمان سنوات . لقد كانت السلطة في واقع الامر بيد النبلاء والوجهاء يمارسونها عن طريق مجلس خاص اوجده بانين يسمى «المجلس الامبراطوري» ويتألف من عدد من الاشخاص يتراوح بين ستة وثمانية .

ولهذا كله لم تكن كاترين الثانية تشعر في السنوات الاولى من حكمها برسوخ سلطتها لذلك نجدها تناور وتلجأ الى الحيلة وتقدم بعض التنازلات . وبما انها كانت تدرك خطر الثورات الفلاحية فأنها حاولت ان تنظم نظام القنانة وان تعمل على تحسين التشريع والادارة وكانت اجراءاتها الاولى موجهة لاصلاح النتائج السيئة التي ترتبت على سياسة زوجها بطرس الثالث فبادرت الى ايقاف الاستعدادات للحرب ضد الدنمارك من اجل هولشتاين ثم انسحبت من حرب السبع سنوات والغت الحلف العسكري الذي عقده بطرس الثالث مع بروسيا . وقد قوبلت هذه الاجراءات بالاستحسان والرضا من جانب النبلاء . وازداد رضا النبلاء عندما اكدت كاترين الثانية «مرسوم حرية النبلاء» الذي صدر في عهد بطرس الثالث في ١٨ شباط ١٧٦٢ وكان هذا المرسوم يقضي بتوسيع حقوق وامتيازات النبلاء الروس حيث اعفاهم من الخدمة الالزامية في الجيش او في

---

(١) الكسي جريجوريفتش ارلوف هو احد المشاركين الفعالين في انقلاب ١٧٦٢ الذي اوصل كاترين الثانية الى السلطة فكوفئ على ذلك بالترقيات والضياع والاطيان وقد كان له تأثير كبير في تسيير شؤون الدولة على الرغم من انه لم يشغل من الناحية الرسمية منصبا كبيرا في الحكومة .

جهاز الدولة وأعطاهم الحق في السفر الى الخارج على ان يلتزموا بالعودة عندما تطلب الحكومة منهم ذلك وان يخدموا في الجيش اثناء الحرب وغير ذلك من الامور . اما رجال الذين فقد ارضتهم كاترين الثانية عندما عمدت لاسباب تكتيكية الى ايقاف العمل بمرسوم مصادرة اراضي الكنيسة الذي اصدره بطرس الثالث ايضا لاسيما ان الامبراطورة حرصت ان تبرز في جميع بياناتها الاولى ادانتها لموقف زوجها من الكنيسة الارثوذكسية.

وهكذا استطاعت كاترين الثانية ان تثبت اقدامها في السلطة وتحصل على تعاطف النبلاء واسنادهم وعند ذلك بدأت تنتهج سياسة تتميز بالاستقلالية والجرأة فرفضت مشاريع بانين وخططه ولم تنفذ الا واحداً من اقتراحاته وهو الاقتراح القاضي باصلاح السينات باتجاه تعزيز الحكم المطلق .

لقد دفع الوضع المتمجر في روسيا ولاسيما اشتداد واتساع انتفاضات فلاحي الكنيسة والاديرة كاترين الثانية الى مصادرة أراضي الكنيسة في ١٧٦٤ حيث حولت هذه الاراضي مع الفلاحين الذين يعيشون فيها وكان عددهم يقارب المليون فلاح الى خزينة الدولة . وقد ابقيت الاراضي التي كان هؤلاء الفلاحون يزرعونها كاقنان للكنيسة في حوزتهم كما منع تنسيب فلاحي الدولة الى المعامل ومنع التجار من شراء الفلاحين للعمل في مصانعهم وطلب منهم أن يستخدموا بدلهم العمال المأجورين . لقد زالت نتيجة لهذه الاجراءات الكثير من المساوئ وتحسنت أوضاع الفلاحين الذين كانوا في السابق يعملون في اراضي الكنيسة ، وانتهت الكثير من الاسباب التي كانت في السابق تؤدي باستمرار الى اضطرابات يقوم بها فلاحو الكنيسة .

وفي ١٧٦٥ قامت حكومة كاترين الثانية باجراء مهم آخر هو اتخاذ قرار باجراء مسح عام للارض وقد نفذ المسح بالفعل وانجز في خلال القرن الثامن عشر في ٢٢ محافظة أي نصف محافظات روسيا تقريباً . وقد عينت نتيجة لهذا المسح الحدود الدقيقة للاراضي التي تعود ملكيتها لمختلف الاشخاص والجهات فتقلصت لدرجة ملحوظة الاسباب التي كانت في السابق تؤدي الى الخلافات والمنازعات أضافة الى أن المسح الجديد أدى الى الاعتراف بشرعية أشكال الملكية التي لم تكن محددة في السابق بموجب القانون. وقد اتخذت حكومة كاترين الثانية بعض الاجراءات الاخرى مثل الغاء حق التجار واصحاب المصانع باحتكار انتاج وبيع بعض البضائع كالسكر وبعض انواع الاقمشة لكنها ابقت على حق النبلاء في احتكار صناعة الخمور التي كانت تدر أرباحاً كبيرة كذلك قامت الحكومة بزيادة الضرائب المفروضة على البضائع الاجنبية التي كان الانتاج الروسي منها يسد حاجة السوق الداخلي .

لقد تطلب غموض وتعقيد التشريع في روسيا وكذلك سوء الجهاز الاداري اتخاذ اجراءات اصلاحية في المجال التشريعي والاداري ، فمنذ مجموعة القوانين التي صدرت في عام ١٦٤٩ لم يحدث أن جمعت القوانين ونظمت في حين كان قد صدر منذ ذلك الوقت عدد هائل من المراسيم والقوانين تصعب الاحاطة بها جميعاً الامر الذي فتح المجال لسوء الاستغلال والتلاعب . كما ان حالة الادارة كانت هي أيضاً سيئة فالسينات الذي يعين حكام المدن لم يكن يعرف مثلا عدد المدن في روسيا بالضبط بل انه لم يكن يعرف مواقع البعض منها ولهذا اعلن في ١٧٦٦ عن دعوة مجلس منتخب لوضع مشروع لمجموعة جديدة من القوانين . لقد ضم المجلس ممثلين عن جميع الطبقات والفئات الحرة في المجتمع الروسي الى جانب ممثلين عن المؤسسات المركزية كالسينات والسينود ومؤسسات الحكم المركزية كما شارك في جلساته محافظو المحافظات اما الذين لم يشاركوا في ارسال ممثليهم اليه فهم الفلاحون الاقنان التابعون للملاكين وكانوا يؤلفون ثلثي فلاحي روسيا ، ورجال الدين الذين رأت الحكومة انهم اصبحوا ميالين للمعارضة بعد مصادرة اراضي الكنيسة . لقد كان انتخاب المجلس مباشرا بالنسبة الى النبلاء وسكان المدن (باستثناء بطرسبورغ وموسكو) وعلى ثلاث درجات بالنسبة الى الفلاحين . وقد جرت الانتخابات في ربيع ١٧٦٧ واجتمع المجلس في موسكو في تموز من نفس السنة وكان يتألف من ٥٧٢ نائباً ٢٢٣ منهم يمثلون النبلاء و ١٧٢ يمثلون التجار و ٣٥ منهم يمثلون الموظفين أما البقية فكانوا يمثلون الفئة العليا من القوزاق وفلاحي الدولة غير الروس في الفولغا وسيبريا والاورال .

لقد أقتصر عمل المجلس على قراءة ومناقشة التوصيات التي جلبها النواب من ناخبيهم والتي كانت تمثل مطاليب الفئات التي انتخبتهم وقد قرئت في البداية «التوصية العظمى» التي ارسلتها كاترين الثانية والتي وضعتها في ضوء فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر واقتبست الكثير من موضوعاتها من كتاب مونتسكيو «حول روح القوانين» وكتاب بيكار «حول الجرائم والعقوبات» وغيرها . لقد تضمنت توصية كاترين الثانية بعض الاسس الاجتماعية والاقتصادية وبعض مبادئ الاخلاق والحقوق واكدت ضرورة فصل السلطات الى جانب تأكيد ضرورة نظام الحكم الملكي المطلق بالنسبة الى روسيا لانه النظام الوحيد حسب رأي كاترين الثانية الذي يؤمن الصالح العام للشعب . وعلى الرغم من ان توصية كاترين الثانية هذه اشتهرت في اوربا وأثارت فيها ضجة كبيرة ساعد على تضخيمها منع حكومة الملك الفرنسي لويس الخامس عشر لترجمتها الى الفرنسية ، الا انها لم يكن لها من الناحية العملية اية اهمية بالنسبة الى اعمال المجلس فهي لم تكن لامشروع قانون ينبغي ان يقره المجلس ولاحتى تعليمات لتوجيه اعماله .

لقد كشفت التوصيات التي جلبها النواب عند مناقشتها عن مشاكل اجتماعية واقتصادية معقدة ، حيث كانت كل طبقة او فئة اجتماعية تطرح المطاليب التي تؤمن مصالحها فالنبلاء كانوا يطالبون بتعزيز حقوقهم الطبقية وبحرية التجارة والاشتغال بالصناعة ومكافحة هروب الفلاحين ، اما نواب التجار فكانوا يسعون لان يكون للتجار الحق الشخصي في أمتلاك الاقنان وكذلك أحتكار حق ممارسة التجارة والصناعة وطالب نواب القوزاق بالحق في امتلاك الاقنان ايضا في حين اكد ممثلو فلاحي الدولة والفلاحين غير الروس على المضايقات التي كان يسببها لهم موظفو الحكومة واشتكوا من التجاوز على اراضيهم ومن بطء المحاكم وتكاليفها الباهضة وعدم توفر العدالة فيها . وادى ذلك كله الى احتدام النقاش وحدة الانتقادات التي وجهها ممثلو هذه الفئات بعضهم الى البعض الاخر الامر الذي اربك اعمال المجلس الذي اثارت اعماله الحكومة فعمدت الى ايقاف جلساته العامة ونقلته الى بطرسبورغ حيث قسمت اعماله على لجان فرعية خاصة ثم لم يلبث المجلس ان حل عند قيام الحرب الروسية ـ التركية عام ١٧٦٨ اما اللجان الفرعية فقد واصلت اجتماعاتها حتى ١٧٧٤ .

ولابد ان نلاحظ ان جميع الاجراءات التي اتخذتها حكومة كاترين الثانية في المجال الداخلي لم تستطع رغم اهميتها ان تخرج روسيا من الوضع الصعب الذي كانت تعانيه لانها تمت في اطار نظام القنانة الذي تقادم واصبح عائقاً جدياً لتطور المجتمع الروسي ولهذا فان الاجراءات المذكورة لم تؤد الى تقليص البون بين روسيا وبلدان اوربا الغربية المتقدمة بل على العكس كان تأخر روسيا بالمقارنة مع تلك البلدان يزداد بمرور الزمن .

السياسة الخارجية في ستينات وسبعينات القرن الثامن عشر

وضعت امام سياسة روسيا الخارجية في عهد كاترين الثانية مهمات اساسية ثلاث هي ترسيخ سلطة روسيا في المناطق المتاخمة للبلطيق والاستحواذ على سواحل البحر الاسود والاستيلاء على اكرانيا الضفة اليمنى وبيلوروسيا . وكانت الظروف الدولية في بداية حكم كاترين الثانية ملائمة لروسيا في مساعيها لتحقيق هذه الاهداف ففرنسا وهي احد خصومها الاساسيين في تحقيق هدفين في الاقل من هذه الاهداف الثلاثة كانت قد ضعفت بعد حرب السبع سنوات في الوقت الذي تفوت فيه بريطانيا التي كانت تربطها انذاك بروسيا علاقات تجارية واسعة كما ان الحكومة البريطانية كانت تقف موقفاً ايجابياً من مساعي الدبلوماسية الروسية طالما ان هذه المساعي لاتهدد مصالحها وطالما انها تستطيع ان تنتفع من جعل روسيا وفرنسا في موقف المواجهة . وقد تعززت العلاقات

الروسية - الانجليزية عندما جدد البلدان في ١٧٦٦ المعاهدة التجارية القائمة بينها . كذلك كانت روسيا قد عقدت في ١٧٦٤ معاهدة مع بروسيا التزمت بموجبها الدولتان بضمان حدود بعضهما في اوربا .

ومن الناحية الاخرى كانت الدول المجاورة لروسيا بشكل مباشر ونعني السويد وريتش بسبوليتا (بولندا) والدولة العثمانية قد ضعفت كثيراً الامر الذي ساعد روسيا على ان تتدخل في شؤون بولندا مستغلة كون السكان الاصليين في الاجزاء الشرقية من ريتش بسبوليتا هم من الاكزانيين والبيلوروس واللتوانين الذين تربطهم منذ القدم علاقات متينة مع الروس والذين كانوا في السابق ضمن دولة واحدة هي امارة لتوانيا العظمى . كذلك سهل ضعف الدولة العثمانية لروسيا تحقيق نواياها التوسعية في البلقان وفي المناطق المتاخمة للبحر الاسود مستغلة لذلك وجود السلاف والارثوذكس الذين كانوا يتطلعون الى روسيا لتخليصهم من السيطرة العثمانية .

في مثل هذه الظروف قدم بانين الذي ظل يدير سياسة روسيا الخارجية حتى عام ١٧٨٠ مشروعه المسمى «النظام الشمالي» الذي يقضي باقامة حلف يضم روسيا وبروسيا والدنمارك وريتش بسبوليتا والسويد ويحظى بعطف بريطانيا . وكان من شأن هذا الحلف لوتم ان يوسع دور روسيا في الشؤون الاوربية ويعزز وضعها في بحر البلطيق . وعلى الرغم من فشل المشروع بسبب معارضة بروسيا وفرنسا له فان روسيا استطاعت ان تعزز مكانتها الدولية بشكل جذري بفضل المهارة التي اظهرها الدبلوماسيون الروس وهم يسعون لتحقيقه وبفضل الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدتها روسيا مع بعض الاقطار الاوربية كالمعاهدة مع الدنمارك في ١٧٦٥ والمعاهدة مع بريطانيا في ١٧٦٦ .

ومن الجهة الاخرى ادى تطور الاحداث بعد موت الملك البولندي اغطس الثالث وانتخاب مرشح روسيا ستانسلاف بونياتوفسكي ملكاً لبولندا في ١٧٦٤ الى زيادة النفوذ الروسي في بولندا بحيث اغرق هذا البلد بالقوات الروسية وتحول الى محمية روسية . وقد اثار ذلك استياء فرنسا والنمسا فأخذت هاتان الدولتان تحرضان الدولة العثمانية ضد روسيا . ولم تكن الدولة العثمانية بحاجة الى مثل هذا التحريض لان علاقاتها مع الدولة الروسية كانت متوترة على الدوام بسبب اطماع هذه الاخيرة في الاراضي العثمانية . وهكذا طلبت الدولة العثمانية من روسيا في خريف ١٧٦٨ ان تسحب قواتها من بولندا ثم تطور الامر الى حرب بين الدولتين استمرت حتى عام ١٧٧٤ .

سارت العمليات الحربية بين روسيا والدولة العثمانية في البداية ببطء حيث عجزت روسيا في اول الامر عن تحقيق انتصار حاسم على العثمانيين ، ولكن تحولا في سير الحرب لصالح الروس جرى في السنة الثالثة للحرب تتالت بعده الانتصارات الروسية الى ان

تم عقد الصلح في تموز ١٧٧٤ في قرية كجك كينارجة الواقعة على الدانوب . لقد غيرت معاهدة كجك كينارجة الوضع في البحر الاسود جذرياً لصالح روسيا فقد نصت على اعتبار خانية القرم وكذلك جميع اورطات التتار القائمة على الساحل الشمالي للبحر الاسود مستقلة عن الدولة العثمانية ، واعطت روسيا الاراضي الواقعة بين نهري الدنيبر وبوج بما فيها قلعة كينبرون التي تهيمن على مصب الدنيبر في البحر الاسود كما استولت روسيا بموجبها على جيرج وقلعة بنيكالي في القرم وبذلك حصلت روسيا على منفذ الى البحر الاسود عن طريق مضيق كيرجينسكي وتحول بحر ازوف الى بحر روسي خالص . لقد نصت المعاهدة ايضاً على حق السفن التجارية الروسية في السير بحرية في البحر الاسود والمرور من مضيقي البسفور والدردنيل وعلى حق روسيا في التحدث امام الدولة العثمانية لصالح ولاكيا وملدافيا ولصالح رعايا السلطان المسيحين وقد فتح ذلك كله الطريق واسعاً لتدخل روسيا في الشؤون العثمانية الداخلية . لقد استولت روسيا بموجب معاهدة كجك كينارجة ايضاً على مناطق اخرى في القفقاس والتزمت مقابل ذلك بعدم التدخل في شؤون جورجيا .

وكان مما دفع الحكومة الروسية الى التعجيل في عقد الصلح اشتراكها في تقسيم بولندا عام ١٧٧٢ ذلك ان الضعف الذي كانت تعانيه ريتش بسبوليتا اغرى جيرانها الاقوياء على اقتسام ممتلكاتها وكان انشطهم في هذا الامر الملك البروسي فردريك الثاني الذي بادر بمجرد ان قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية الى استغلال الظروف المناسبة فطرح موضوع تقسيم بولندا واخذ يلح عليه لكن كاترين الثانية كانت تتهرب من الموافقة على التقسيم لانها كانت تعتقد بان من الافضل لروسيا وهي صاحبة النفوذ الاقوى في بولندا ان تبقى بولندا على ماهي عليه ، لكن قيام النمسا عام ١٧٧١ بعقد حلف دفاعي مع الدولة العثمانية اجبر الحكومة الروسية على الاستجابة لالحاح الملك البروسي والموافقة على التقسيم وقد تم ذلك بالفعل في اواسط عام ١٧٧٢ حيث استولت روسيا وبروسيا والنمسا على بعض اقاليم ريتش بسبوليتا .

الحرب الفلاحية

كان من الاسباب الاخرى التي دفعت روسيا الى التعجيل في عقد الصلح مع الدولة العثمانية بالاضافة الى القضية البولندية هو قيام اكبر حركة فلاحية معادية للاقطاع في تاريخ روسيا ونعني الحرب الفلاحية التي قادها ايمليان بوجاتشوف فقد شملت هذه

الانتفاضة الفلاحية مناطق واسعة جداً من روسيا وشاركت فيها جماهير غفيرة من فلاحي روسيا واكرانيا وعمال المصانع والقوزاق والشعوب غير الروسية في الفولغا والاورال .

لقد كان السبب الاساسي للانتفاضات الفلاحية هو الوضع الاقتصادي الصعب الذي كان الفلاحون يعانونه في روسيا وكذلك تعسف الاقطاعيين واضطهاذهم للاقنان حيث كان الاقنان مجردين من اية حقوق ويتعرضون للظلم وتطاول سادتهم الملاكين الذين يهيمنون عليهم بسلطة غير محدودة ، فقد كان لهؤلاء الملاكين الحق في نفي الفلاحين وارسالهم الى الاشغال الشاقة لابسط هفوة او تجنيدهم في الجيش وكان لهم الحق في بيعهم فرادى او مع قراهم التي يعيشون فيها . لقد كان الفلاحون «امواتاً بموجب القانون» «انهم يباعون وهم مكبلون بالاغلال كالماشية» على حد تعبير راديشيف ـ احد حملة الافكار الحرة في روسيا في هذه المرحلة . لقد كان من الشائع ان يخسر الملاك فلاحه على موائد القمار او يستبدله بكلب مثلاً . وكان للنبلاء في ضياعهم سجونهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة لمحاكمة فلاحيهم . اما فلاحو الدولة ومعهم جماهير الشعوب غير الروسية في الفولغا والاورال وسيبريا فقد كانوا يعانون من تعسف موظفي الحكومة وسوء استغلالهم . ولم يكن وضع الفلاحين الذين نسبوا للعمل في المصانع بافضل من وضع زملائهم الذين ظلوا يعملون في المزارع .

لهذا كله لم يكن من الغريب ان تتواصل الانتفاضات الفلاحية في روسيا . وقد اتسعت هذه الانتفاضات بشكل خاص في ستينات القرن الثامن عشر وتحولت في ١٧٧٣ الى اكبر حرب فلاحية في تاريخ روسيا استمرت حتى عام ١٧٧٥ . لقد قاد هذه الحرب التي شنها الفلاحون ضد الاقطاعيين وقوات الحكومة ايمليان بوجاتشوف وهو احد قوزاق الدون تمكن في ١٧٧٣ من الهرب من السجن وتزعم فصيلا من الفلاحين الثائرين وانتحل شخصية القيصر بطرس الثالث زاعماً انه استطاع ان يتجنب الموت في ١٧٦٢ . لقد اخذ اتباع بوجاتشوف يتزايدون بسرعه لاسيما انه اصدر الكثير من البيانات ووزعها في كل مكان ذاكرا فيها انه يمنح الفلاحين والقوزاق «الحرية الى الابد» ويعطيهم الارض والعشب ويخصص لهم راتباً نقدياً ومؤونه من القمح ويقدم لهم الرصاص والبارود داعيا اياهم للاقتصاص من «الخونة» موظفي الحكومة والنبلاء .

لقد باءت بالفشل في بادىء الامر كل المحاولات التي قامت بها القوات الحكومية لاخماد الانتفضة خصوصاً ان الجيش كان مشغولاً بالحرب مع الدولة العثمانية ، غير ان جيشاً كبيراً تسنده فصائل من النبلاء المتطوعين تحرك في اذار ١٧٧٤ لنجدة قلعة اورنبورج الحصينة المحاصرة من قبل الثوار . وقد نجح هذا الجيش في تشتيت قوات الثوار لكن بوجاتشوف نفسه تمكن من الاختفاء في بشكيريا . ومع ذلك لم تلبث

الانتفاضة ان تجددت بشكل اعنف من السابق في ايار من السنة ذاتها حيث شارك في هذه المرة عمال مصانع الاورال واستطاع الثوار ان يحتلوا مدناً عديدة وباشروا بحصار مدينة قازان في تموز ١٧٧٤ ، لكن الحكومة استطاعت حتى ذلك الوقت ان تحشد قوات كبيرة لاخماد الانتفاضة وقد استطاعت هذه القوات ان تتغلب على الثوار في معركة حاسمة وقعت بالقرب من قازان فاضطر بوجاتشوف مع ٥٠٠ من انصاره الى الانسحاب الى الدون على امل ان يحظى بالاسناد من جانب القوزاق القاطنين هناك . وبالفعل تزايد انصاره مرة اخرى واتسعت الانتفاضة بحيث شملت مناطق الفولغا والاورال واصبحت تهدد المحافظات الوسطى في روسيا الامر الذي دفع الحكومة الروسية الى التعجيل بعقد الصلح مع الدولة العثمانية فمكنها ذلك من حشد جيش هائل تمكنت بواسطته من الانتصار على قوات الثورة في ضواحي تساريتسينا ثم انتهى الامر بأن اختطفت مجموعة من الخارجين على الثورة بوجاتشوف وسلموه الى الحكومة على امل ان يؤدي ذلك الى العفو عنهم لمشاركتهم في الانتفاضة . ثم نقل بوجاتشوف الى موسكو حيث اعدم في احدى ساحاتها العامة في كانون الثاني ١٧٧٥ . وقد اقتصت الحكومة القيصرية من الثوار بقسوة متناهية حتى انها سيرت في نهر الفولغا اطوافا خاصة تحمل مشانق تتدلى منها جثث المشنوقين وهدفها من ذلك ارهاب السكان ومنعهم من الثورة مجددا .

لقد هزت هذه الحرب الفلاحية على الرغم من فشلها اسس النظام القيصري وزعزعت نظام القنانة وهي على الرغم من سعتها وعنفها لم تكن الا تعبيراً عفويا عن استياء الجماهير يفتقر الى التنظيم . لقد عبرت عن سخط هذه الجماهير دون ان يكون لها هدف واع او برنامج عمل واضح وكان هذا في الواقع الى جانب العنف الذي واجهته به الحكومة وأخلاص ضباط الجيش للنظام القيصري وضعف زعامة بوجاتشوف ، أهم اسباب فشل هذه الحركة .

السياسة الداخلية بعد حرب الفلاحين

كشفت الحرب الفلاحية للحكومة عن الضعف وسوء التنظيم الذي كانت تعاني منه السلطات الادارية في الاقاليم ولهذا بادرت كاترين الثانية بعد ان تم اخماد انتفاضة

الفلاحين هذه الى اتخاذ جملة من اجراءات الاصلاح المهمة بالتعاون مع بوتيمكين[1] صاحب الحظوة عندها .

لقد ركزت الحكومة اهتمامها الاول على تقوية جهاز السلطة المحلية في الاقاليم وعمدت الى تقليص الحرية التي كان القوزاق يتمتعون بها فهي لم تنس ان بوجاتشوف كان واحدا من هؤلاء القوزاق وان دعواته صادفت اسنادا فعالا منهم ولهذا جرى في ١٧٧٥ تقليص الحكم الذاتي في الدون وشددت الرقابة على القوزاق ثم انشئت فرق خيالة خاصة اطلق عليها اسم قوات بشكيريا وغير ذلك من الأجراءات .

وفي ١٧٧٥ ايضا اصدرت الحكومة «قانون ادارة محافظات الامبراطورية الروسية» الذي عزز جهاز الحكم المحلي وزاد من صلته بالسكان فقد قسمت البلاد بموجب هذا القانون الى خمسين محافظة بعد ان كان عدد المحافظات عشرين محافظة فقط وأصبحت المحافظة الواحدة تضم ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ ألف نسمة من السكان . كذلك قسمت كل محافظة الى قضية اصبح عددها في البلاد ضعف ما كان عليه في السابق ، وبذلك اصبحت المحافظات والاقضية وحدات سياسية اصغر من السابق فازداد تبعا لذلك عدد دوائر السلطة المحلية ، وتوسعت امكاناتها في مراقبة السكان بشكل مباشر ويومي . ويقف على رأس المحافظة بموجب هذا القانون محافظ يمثل السلطة العليا فيها في حين يقف على رأس القضاء موظف اداري ينتخبه نبلاء القضاء من بين صفوفهم مدة ثلاث سنوات . وبموجب التقسيم الجديد للمحافظات جزئت المناطق التي تقطنها الشعوب غير الروسية الى اجزاء منفصلة عن بعضها الامر الذي سهل على الحكومة السيطرة عليها .

لقد مست التغييرات الاصلاحية التي ادخلها هذا القانون الجوانب المالية والقضائية والشرطة والخدمات وغير ذلك من الأمور كما اقترن مبدأ التعيين في المناصب المختلفة في اصلاحات ١٧٧٥ هذه بمبدا الانتخاب القائم على اسس طبقية حيث منح للنبلاء الحق في ان ينتخبوا من يشغل اهم وأكبر المناصب الادارية في الاقاليم الامر الذي عزز سلطة النبلاء هناك وزاد من دورهم القيادي .

وبعد ذلك بعشر سنوات (٢١ نيسان ١٧٨٥) اصدرت حكومة كاترين الثانية وثيقتين اصلاحيتين مهمتين اخريين زادت الاولى وهي «براءة النبلاء» من سلطة النبلاء وملاكي الارض ووسعت نفوذهم لدرجة كبيرة حيث وحدتهم في طبقة واحدة هي «طبقة نبلاء

(١) جريجوري الكسندروفتش بوتومكين هو احد اصحاب الحظوة لدى كاترين الثانية كان له نفوذ كبير في البلاط وتأثير بارز في تسيير شؤون الدولة ، وقد ظل الساعد الايمن للامبراطورة عشرين سنة وبقي يحتفظ بنفوذ كبير في البلاط حتى بعد ان افل نجمه الشخصي لدى كاترين .

عموم روسيا» ، وأكدت لأفراد هذه الطبقة الحقوق والامتيازات التي منحت لهم في السابق وهي أعفاؤهم من دفع الضرائب ومن اداء الخدمة الألزامية والعقاب الجسدي واقرت انتقال لقب النبيل بالوراثة وأكدت ان النبيل لايمكن ان يجرد من لقبه أو تصادر ممتلكاته او يعدم الا بقرار يصدر من محكمة تتألف من اشخاص يساوونه في المنزلة ، وكذلك اصبح للنبلاء الحق في تأليف جمعية خاصة بهم في كل قضاء او محافظة . اما الوثيقة الثانية وهي «براءة حقوق وامتيازات مدن الامبراطورية الروسية» فقد منحت سكان المدن الحق في المشاركة في ادارة مدنهم وقسمتهم الى ست فئات هي :-

١ . سكان المدن الحقيقيون وهم مالكو العقارات والاراضي في المدن من جميع الطبقات .

٢ . التجار من جميع الدرجات[1] .

٣ . حرفيو الطوائف المختلفة .

٤ . الضيوف الاجانب وكذلك الاشخاص الذين ينتمون الى مدن اخرى ولكنهم يسكنون في المدينة المعنية بشكل دائم .

٥ . «المواطنون الوجهاء» ويقصد بهم ذوو والمهن الحرة والمثقفون الذين يعاد انتخابهم للخدمة في وظائف المدينة مرتين وكذلك اصحاب السفن والمصرفيون وتجار الجملة .

٦ . سكان المدن الذين يعيشون من حرفة معنية او من شغل اليد او التجارة ولا يدخلون في واحدة من الفئات الخمس السابقة .

لقد كانت هذه الفئات الست تؤلف مايسمى مجتمع المدينة الذي يشترك كل من يمتلك من افراده خمسة آلاف روبل فأكثر في اجتماع عام يعقد مرة كل ثلاث سنوات لانتخاب اعضاء مجلس المدينة ورئيس المدينة واشخاص آخرين لاشغال المناصب الادارية في المدينة وهي المناصب التي جعل قانون ادارة المحافظات اختيار من يشغلها من حق سكان المدن .

وكان ستة من اعضاء مجلس المدينة يؤلفون مايسمى «مجلس النواب الستة» وهو الجهة التنفيذية في ادارة المدينة وكان يجتمع مرة في الاسبوع برئاسة رئيس المدنية . ولم يكن من حق اي شخص ان ينتخب لاشغال منصب اداري في المدينة الا اذا كان يملك رأس م

(١) صنف التجار الروس آنذاك الى ثلاث درجات تضم الدرجة الاولى جميع التجار الذين يتراوح راسمالهم مابين ١٠ و ٥٠ الف روبل ، اما تجار الدرجة الثانية فهم الذين يتراوح راسمالهم مابين ٥ و ١٠ الاف روبل في حين ... التجار الذين يتراوح رأسمالهم مابين ١٠٠٠ و ٥٠٠٠ روبل تجاراً من الدرجة الثالثة .

لايقل عن خمسة الآف روبل وقد جعل ذلك ادارة المدينة حكراً على التجار والموسرين من فئات السكان الأخرى في المدن .

لقد حددت براءة المدن بدقة حقوق وامتيازات كل فئة من الفئات الست التي سبق ذكرها وكانت هذه الحقوق والامتيازات متواضعة جداً بالقياس الى مامنح للنبلاء بموجب البراءة الخاصة بهم ثم ان هذه الحقوق والامتيازات لم تكن تنفذ بشكل تام ودقيق دائماً ، ولكن البراءة مع ذلك منحت المدن حقوقاً ملحوظة وحددت نمط الحياة في المدن الروسية وظلت الاساس الذي ترتكز عليه ادارة المدن حتى صدور قانون آخر للمدن عام ١٨٧٠ .

السياسة الخارجية في أواخر القرن الثامن عشر

ازدادت مكانة روسيا وتعززت مواقعها على المسرح الدولي بعد انتصارها على الدولة العثمانية في حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤ وحصولها على الضفة الشمالية للبحر الاسود وخروج الاسطول الروسي الى البحر المتوسط لاول مرة والنجاحات الامعة التي حققها هناك . وقد عززت كاترين الثانية هذه المكانة عندما اتخذت دور الحكم بين الحكام الالمان في حرب الوراثة البافارية التي قامت بين بروسيا والنمسا فكان صلح تيشينسك في ١٧٧٩ الذي انهى هذه الحرب نجاحاً دبلوماسياً كبيراً لروسيا .

ان النجاحات التي حققتها روسيا في حربها مع الدولة للعثمانية اثارت القلق لدى الحكومة البريطانية التي اصبحت تتخذ بعد معاهدة كجك كينارجة مواقف عدائية من روسيا واخذ ممثلوها الدبلوماسيون يحوكون الدسائس ضد روسيا في بلاط السلطان العثماني . ثم جاءت حرب الاستقلال الامريكية فأدت الى زيادة التردي في العلاقات الروسية الانجليزية فقد رفضت كاترين الثانية الطلب الذي تقدم به الملك الانجليزي لاستئجار جزء من القوات الروسية لاستخدامها في تلك الحرب ثم اصدرت في ١٧٨٠ اعلاناً حول الحياد البحري المسلح اكدت فيه حق سفن الدول المحايدة في الدفاع عن نفسها بقوة السلاح في حالة هجوم السفن الحربية عليها وتضمن الاعلان ايضا تهديدا لبريطانيا بالحرب في تكرار الاضرار بالمصالح التجارية للبلدان المحايدة .

لقد كان هذا الاعلان كما هو واضح موجها بالدرجة الاولى ضد بريطانيا التي كانت سفنها الحربية تهاجم السفن المحايدة بحجة فرض الحصار على المستعمرات الانجليزية الثائرة في العالم الجديد ... وقد صادف هذا الاعلان قبولا من الدول الاوربية الاخرى

حيث وقعته بالاضافة الى روسيا كل من هولندا والدنمارك والسويد وبروسيا والبرتغال ومملكة الصقليتين ، فكان بذلك النجاح الدبلوماسي الثاني الذي حققته روسيا بعد صلح تيشينسك . ومن الناحية الاخرى ازداد التقارب بين روسيا والنمسا ثم توج بلقاء بين كاترين الثانية والامبراطور جوزيف تم في ١٧٨٠ في موجيليوف وأسفر عن عقد حلف دفاعي بين الدولتين موجه ضد بروسيا والدولة العثمانية في آن واحد .

وفي ١٧٨٣ ضمت حكومة كاترين الثانية القرم الى روسيا واعتبرتها محافظة من محافظات الدولة الروسية . وفي السنة التالية بنت فيها مدينة سيفاستيبول التي اصبحت اكبر قاعدة عسكرية بحرية لروسيا في البحر الاسود لاسيما بعد ان عكفت السلطات الروسية على انشاء اسطول حربي كبير في هذا البحر . وهكذا ادى الاستيلاء على القرم الى تعزيز المواقع الروسية في البحر الاسود بدرجة لم يسبق لها مثيل . وقد ادى هذا العمل العدواني الواضح الذي يعد خرقا واضحا من جانب روسيا لمعاهدة كجك كينارجة التي نصت على استقلال القرم الى توتر العلاقات مع الدولة العثمانية الامر الذي ادى في النهاية الى ان تعلن الدولة العثمانية الحرب على روسيا في آب ١٧٨٧ مطالبة اياها بأعادة القرم . وقد انضمت النمسا الى جانب روسيا في هذه الحرب التي استمرت اربع سنوات وانتهت بتوقيع معاهدة صلح ياسي في ٩ كانون الثاني ١٧٩٢ التي اكدت ضم القرم الى روسيا واستيلاء روسيا ايضا على الاراضي الواقعة بين نهري بوج والدنيستر واصبح هذا النهر الاخير يؤلف الحدود بين الدولتين . كذلك التزمت الدولة العثمانية بموجب هذه المعاهدة بعدم التدخل في شؤون جورجيا . وكان لهذه المكاسب الاقليمية التي حققتها روسيا اثر كبير في تعزيز وضعها وزيادة مكانتها في الشؤون الدولية فقد اصبحت الاراضي الروسية تحيط بالمحافظات الجنوبية الشرقية لريتش بسبوليتا كما ان المجرى الاسفل لنهري بوج والدنيستر يغلق منفذ هذه الاخيرة الى البحر الاسود . وكان لذلك اهمية كبيرة لاسيما ان المسألة البولندية قفزت آنذاك مرة اخرى لتحتل مكان الصدارة في العلاقات بين روسيا وكل من النمسا وبروسيا . فلقد دفع ضعف بولندا المتزايد الوطنيين البولنديين الى المطالبة باصلاح الدولة الامر الذي ادى الى ان يقر المجلس البولندي في ٣ آيار ١٧٩١ ، دستوراً جديداً الغى مبدأ انتخاب الملك وعزز دور المجلس وزاد من عدد اعضائه ونص على ان تتخذ القرارات فيه بأغلبية الاصوات لكن ذلك لم يرق للعناصر الرجعية التي بادر زعماؤها الى طلب مساعدة عسكرية من الحكومة الروسية وعقدوا مؤتمراً صادق على دخول القوات الروسية الى بولندا فدخلت بالفعل واحتلت وارشو والقسم الاغلب من ريتش بسبوليتا في صيف ١٧٩٢ . وفي الوقت نفسه دخلت القوات البروسية الاراضي البولندية من الغرب اما النمسا فانها

تشترك في هذه المرة في الشؤون البولندية لانها كانت مشغولة بالصراع مع فرنسا . وكانت النتيجة ان عقدت في ١٧٩٣ بين روسيا وبروسيا اتفاقية قسمت بولندا بموجبها مرة ثانية بين هاتين الدولتين بحيث لم يبق من ريتش بسبوليتا الا منطقة صغيرة لاتمتلك مقومات البقاء لانها ليس لها منفذ الى البحر ولاتمتلك مصبات الانهار التي تجري في اراضيها . وقد حصلت روسيا بموجب هذا التقسيم على مناطق واسعة يقطنها ثلاثة ملايين من الاكرانيين والبيلوروسين ومعهم اقلية بولندية صغيرة .

ولم تسكت العناصر الوطنية في بولندا على ما احاق ببلادها فهبت لانقاذ ريتش بسبوليتا . وهكذا اشتعلت انتفاضة واسعة في بولندا استطاعت في البداية ان تجبر القوات الروسية على التراجع فحرر الثوار وارشو واقاموا فيها حكومة موقتة لكن قوات روسيا وبروسيا والنمسا توغلت في بولندا مجدداً واخمدت الانتفاضة فتنازل الملك البولندي ستانسلاف بونياتوفسكي عن العرش واخذ الملك البروسي يلح على تقسيم بولندا مجدداً وقد وافقت كاترين الثانية على ذلك لانها لم تكن تريد ان تدخل في نزاع مع بروسيا في وقت كان فيه الوضع الدولي في اوربا متوتراً بسبب النجاحات التي حققتها فرنسا الثورة . وهكذا تم في ١٧٩٥ التقسيم الثالث لبولندا الذي ازال الدولة البولندية نهائياً ووزع اراضيها بأجمعها بين روسيا وبروسيا والنمسا .

ومن الناحية الاخرى كانت كاترين الثانية بعد ان قامت الثورة في فرنسا في ١٧٨٩ قد ادركت على الفور الخطر الذي تؤلفه هذه الثورة على الانظمة الاقطاعية وانظمة الحكم المطلق في اوربا وفي مقدمتها نظامها هي ولهذا فانها رأت ان مصلحة النظام الروسي تقضي باسناد لويس السادس عشر وعدم السماح بان يذهب «ضحية للبرابرة» لان «اضعاف السلطة الملكية في فرنسا يعرض جميع الممالك الاخرى للخطر» على حد تعبيرها . ولهذا فانها اتخذت اجراءات شديدة ضد الثورة الفرنسية وضد تأثيرها الثوري في روسيا فقد طلبت من الروس المتواجدين في فرنسا العودة الى روسيا ثم قطعت كل علاقة لها بفرنسا بعد اعدام لويس السادس عشر وطردت من روسيا كل من يوجد فيها من الفرنسيين ممن اعترف بشرعية حكومة الثورة في فرنسا ، اما الذين رغبوا في البقاء فقد اجبرتهم على اداء قسم خاص بتنصلهم من الاحداث الثورية الجارية في بلادهم . كذلك لاحقت السلطات الروسية العناصر الثورية في روسيا واحرقت الكتب ذات الطابع الثوري وشددت الرقابة على اصدار الكتب بكل انواعها حتى الدينية منها واغلقت جميع المطابع الخاصة . اما في الخارج فقد وقفت حكومة كاترين الثانية موقفاً عسكرياً ودبلوماسياً معادياً لفرنسا الثورة فقد ساعد السفير الروسي في باريس لويس السادس عشر وماري انطوانيت في محاولتهما للهرب الى خارج فرنسا وفتحت كاترين

الثانية ابواب روسيا امام العناصر المناهضة للثورة وجاء بالفعل الى البلاط الروسي بضعة الاف من الملكيين الفرنسيين وعلى راسهم اخوا لويس السادس عشر واصبحت روسيا بؤرة التجمع الاوربي المعادي للثورة الفرنسية ، وفي ١٧٩١ - ١٧٩٢ الفت الدبلوماسية الروسية بالاشتراك مع البروسية والنمساوية اول تحالف معاد للثورة في فرنسا[1] . غير ان التعقيدات التي قامت في بولندا منعت كاترين الثانية من المشاركة في العمليات العسكرية ضد فرنسا لكنها بالمقابل جهدت لان تدفع كلا من بروسيا والنمسا والسويد الى محاربة فرنسا وكان هدفها من ذلك ، بالاضافة الى كرهها للثورة الفرنسية ، هو ابعاد النمسا وبروسيا عن القضايا البولندية . وبعد ان اتمت حكومة كاترين الثانية الاقتصاص من العناصر المتعاطفة مع الثورة في الداخل وانهت القضية البولندية على النحو الذي رأيناه في الخارج باشرت بالعمل الفعال ضد الثورة الفرنسية فأعدت الحكومة الروسية جيشاً تعداده ٦٠ الف مقاتل للتدخل ضد فرنسا لكن كاترين الثانية توفيت في تشرين الثاني ١٧٩٦ قبل ان تنجز الاستعدادات اللازمة لهذه الحملة .

بافل الاول وسياسته في المجالين الداخلي والخارجي

اعتلى العرش الروسي في اليوم الذي توفيت فيه كاترين الثانية ابنها بافل (بول) الاول بتروفتش (١٧٩٦ - ١٨٠١) وكان هذا يختلف في عاداته واساليبه عن والدته فقد تسنم العرش بعد ان تجاوز سن الاربعين وبعد ان عانى الكثير من نزوات والدته التي كان يعدها مغتصبة للعرش . لقد كان بافل هذا بغروره وسرعة تيهجه يبدو لمن يحتك به شخصاً مريضاً يفتقر الى الاتزان . وقد عمد بعد ان وصل الى السلطة الى الغاء الكثير من الاجراءات التي اتخذتها كاترين الثانية حتى بدا كما لو ان القيصر الجديد يريد ان يمحو كل ما يذكره بامه وبوتومكين ومجمل الانظمة السابقة . لكن جميع التغييرات التي اجراها كانت تقتصر على الشكل دون الجوهر فقد كان في نهاية المطاف كامه يسعى لان يرسخ القنانة كنظام ويعزز نظام الحكم المطلق .

اصدر بافل الاول في ٥ نيسان ١٧٩٧ قانوناً حدد بشكل دقيق نظام وراثة العرش في روسيا حيث تقرر بموجبه ان ينتقل العرش بعد موت الامبراطور الى ابنه الاكبر ثم

---

(١) اشتركت في التحالف الاول ضد فرنسا بالاضافة الى روسيا وبروسيا والنمسا كل من بريطانيا وهولندا واسبانيا ونابولي وسردينيا والدويلات الالمانية .

الى ذرية هذا الابن من الذكور . أما اذا لم يكن لدى الامبراطور ذرية من الذكور فان العرش ينتقل بعده الى اخيه الذي يليه في السن .[١]

تسنم بافل الاول العرش في وقت تميز بنهوض واضح في الحركة الفلاحية في روسيا بحيث شملت انتفاضات الفلاحين في ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ، اثنين وثلاثين محافظة من اصل ٥١ محافظة . ولهذا كان عليه ان يخمد هذه الانتفاضات اولاً . وبعد ان تم له ذلك اصدر في اليوم الذي اصدر فيه قانون وراثة العرش مايسمى «بيان حول السخرة لمدة ثلاثة ايام» منع فيه اجبار الفلاحين على اعمال السخرة في ايام الاحاد والاعياد الدينية الكبرى ونصح الملاكين بعدم مطالبة الفلاحين بالسخرة لاكثر من ثلاثة ايام في الاسبوع . وعلى الرغم من ان هذا البيان لم يكن له اهمية كبيرة من الناحية العملية لان الملاكين لم يلتزموا به الا ان اهميته كانت تكمن في انه اول اجراء قانوني تتخذه الحكومة باتجاه تحديد سلطة الملاكين على فلاحيهم الاقنان .

ومن الناحية الاخرى توسع بافل بتوزيع فلاحي الدولة على الملاكين واصدر في ١٧٩٦ مرسوماً خاصاً اضفى فيه الصفة القانونية على نظام القنانة في نوفوروسيا وشمال القفقاس . لكنه عد حق الانتخاب الذي منحته كاترين الثانية للنبلاء امراً يحد من سلطته فعمد الى غلق مجالس النبلاء القائمة في المحافظات ومنع انتخاب النبلاء في المؤسسات المحلية ، فكان ذلك الى جانب غرابة طباعه ونزواته التي لم ينج منها احد سبباً اثار القلق الشديد وعدم الشعور بالامان لدى النبلاء بدرجة ان احد المؤرخين كتب عن ذلك يقول : «ان السنوات الاربع التي حكمها بافل بترونتش ظلت في ذاكرة المجتمع الروسي سنوات خوف ورعب» .

اما في مجال السياسة الخارجية فقد عمد بافل الاول في اول الامر الى الغاء الاستعدادات التي بدأتها والدته للتدخل ضد الثورة الفرنسية واعلن الالتزام بسياسة الحياد والتخلي عن الحرب . ثم اوقف الحملة التي وجهتها كاترين الثانية الى ايران في السنة الاخيرة من حكمها . ومع ذلك فقد وقف بافل الاول موقفاً معادياً من الثورة الفرنسية وكان يرى حتى قبل ان يعتلي العرش ضرورة استخدام القوة ضدها ويلوم لويس السادس عشر على تهاونه تجاه الثوار . ولم يلبث موقفه هذا ان دفع بروسيا الى المشاركة في الحرب ضد فرنسا وكان من اسباب ذلك بالاضافة الى الكره الذي يكنه بافل للثورة الفرنسية التأثير الذي كانت تمارسه الاعداد الكبيرة من الملكيين الفرنسيين الذين وفدوا على روسيا واتخذوا منها مقراً لهم يواصلون منه العمل ضد الثورة ، وكذلك السياسة التوسعية التي انتهجها نابليون ، الذي كان نجمه في ذلك الوقت اخذاً بالصعود في سماء السلطة في فرنسا ، مما كان يمس مصالح روسيا في

البحر المتوسط . فلقد احتل نابليون مالطة فوجه بذلك ضربة الى مكانة بافل الاول الذي كانت منظمة فرسان القديس يوحنا التي تحكم الجزيرة قد منحته قبل ذلك بقليل لقب الاستاذ الاعظم للمنظمة . ثم جاء اعلان الفرنسيين بأنهم سيغرقون اية سفينة روسية تظهر بالقرب من مالطة او الجزر الايونية ليؤلف تهديداً مباشراً للمواقع الروسية في الشرق الادنى وليزيد من استياء بافل الاول ويدفعه الى ان يعقد ، بعد ان ارسلت فرنسا حملتها على مصر ، حلفاً عسكرياً معادياً لفرنسا مع الدولة العثمانية . وعلى اساس هذا الحلف غادرت عمارة بحرية روسية بقيادة الاميرال اوشاكوف البحر الاسود الى البحر المتوسط واحتلت الجزر الايونية بعد ان اجبرت القوات الفرنسية على مغادرتها . وهكذا تم رسمياً انضمام الدولة العثمانية الى التحالف الثاني الذي اشتركت فيه ضد فرنسا كل من روسيا والدولة العثمانية وبريطانيا والنمسا ومملكة نابولي وسردينيا . وعندما اطاحت القوات الفرنسية بملك نابولي واعلنت الجمهورية فيها وجه بافل الاول قواته الى ايطاليا عبر الاراضي النمساوية وهدفه اعادة الانظمة السابقة التي كانت قائمة في ايطاليا قبل مجيء الفرنسيين اليها . وقد استطاعت القوات الروسية التي كان يقودها سوفوروف ان تحتل ميلانو وتورينو وتستعيد شمال ايطاليا بأجمعه ثم انتقلت بطلب من القيادة النمساوية الى سويسرا واستطاعت هناك على الرغم من الصعوبات الاستثنائية التي واجهتها ان تنتصر على الفرنسيين وتنجد قوات روسية كان النمساويون قد تركوها وحدها في مواجهة القوات الفرنسية المتفوقة عليها وانسحبوا الى الراين الاوسط .

لقد اثار هذا الموقف غير الودي من جانب النمسا وكذلك موقف الترقب الذي اتخذته بريطانيا استياء شديداً لدى بافل الاول فبادر الى الغاء تحالفه مع النمسا . ثم جاء احتلال بريطانيا لمالطة فقطع كل علاقة له مع الحكومة الانجليزية لانه اعتبر هذا الاحتلال اهانة له لكونه رئيساً لمنظمة فرسان القديس يوحنا . وقد استغل نابليون ذلك فأعلن بانه على استعداد لان يتنازل لروسيا عن مالطة بعد ان تتم استعادتها من الانجليز فدفع ذلك بافل الى التقرب من نابليون فأستدعى السفير الروسي من بريطانيا وبدأت المفاوضات بين القيصر الروسي ونابليون الذي كان في هذا الوقت يستعد للقيام بانقلابه المشهور . وعندما حصل الانقلاب في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ وتمكن نابليون نتيجته من الاطاحة بحكومة الادارة وأعلن نفسه قنصلاً اول رحب بافل بهذا التغيير الذي جرى في الحكومة الفرنسية لانه اعتقد بأن ذلك سيؤدي الى عودة الملكية الى فرنسا ان لم يكن بالأسم فبالفعل وهذا هو الاهم . وكانت نتيجة ذلك كله ان عقدت روسيا في كانون الثاني ١٨٠١ حلفاً مع فرنسا حيث اتفق

الطرفان على ان يعد نابليون حملة للهجوم على الجزر البريطانية في حين يجهز بافل الاول حملة ويرسلها الى الهند براً .

لقد شدد هذا التحول الجذري في سياسة روسيا الخارجية من الاستياء من حكم بافل الاول في روسيا فالعداء مع بريطانيا اثر سلبياً في تجارة روسيا الخارجية كما ان التحالف مع فرنسا التي كانت في نظر النبلاء الروس المصدر الاساس للهزات الثورية في اوربا قد اسقط بافل نهائياً في نظر هؤلاء النبلاء : وهكذا نظم النبلاء المعادون لبافل في العاصمة الروسية مؤامرة ادى فيها الحرس الدور الرئيسي وكان ابنا القيصر الكسندر وقسطنطين على علم بها . وكان المتآمرون يهدفون الى اجبار بافل على التنازل عن العرش . وقد جرى تنفيذ المؤامرة في ليلة ١١ على ١٢ آذار ١٨٠١ حيث اقتحم المتآمرون القصر وطلبوا من بافل التنازل عن العرش وعندما رفض حدث عراك قتل القيصر خلاله واعتلى العرش الروسي في الليلة نفسها ابنه الاكبر الكسندر بافلوفتش (١٨٠١ - ١٨٢٥) .

العلم والثقافة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

إتسع التعليم وزاد عدد المدارس في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وذلك على الرغم من تحول المدارس العسكرية التي انشأها بطرس الاول الى مدارس مغلقة لايدخلها الا ابناء النبلاء فقد تأسس في بطرسبورغ معهد خاص للبنات تدرس فيه فتيات النبلاء وانفتحت في كل المحافظات مدارس دينية خاصة كانت تقبل اولاد رجال الدين بالدرجة الاولى . وقد ادى التطور الصناعي المتنامي الى تزايد الحاجة الى المتعلمين ولهذا نجد حكومة كاترين الثانية تؤسس معهداً للمعلمين وعدداً كبيراً نسبياً من المدارس بلغ ٢٨٨ مدرسة يتعلم فيها مايزيد على ٢٠ ألفاً من أبناء الشعب . هذا بالاضافة الى وجود مدارس اخرى ملحقة بالحاميات العسكرية يتعلم فيها ابناء الجنود القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة العسكرية . كذلك اتسع التعليم العالي بعض الشيء حيث اسست جامعة اخرى الى جانب جامعة موسكو التي تأسست في ١٧٥٥ بموجب مشروع وضعه العالم الروسي المشهور لومونوسوف[1] وانفتحت معاهد للتعدين واخرى للطب وثالثة لاعداد الضباط البحريين وغيرها .

---

(١) ميخائيل فاسيليفتش لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) احد مشاهير العلماء الموسوعيين الروس شمل نشاطه العلمي حقولاً متنوعة من المعرفة فقد كان فيزياوياً وكيمياوياً وجيولوجياً ومؤرخاً وشاعراً واستطاع ان يكون مبرزاً في جميع هذه الحقول.

اما في مجال العلم والتكنولوجيا فقد اصبحت اكاديمية العلوم في بطرسبورغ وجامعة موسكو مركزين رئيسين لتطوير العلوم في روسيا وقد اسهم العلماء الروس في هذه المرحلة بشكل ملحوظ في تطوير بعض فروع المعرفة المعاصرة كالجيولوجيا والجغرافيا والرياضيات والفلك . وبرز آنذاك ايضاً العديد من التكنيكيين والمخترعين من امثال فرولوف الاب وفرولوف الابن وكوليبين وغيرهم ابتدعوا عدداً من الآلات استخدمت في مختلف فروع الانتاج منها على سبيل المثال جهاز يعمل بقوة المياه يستخدم لسحب المياه ورفع الخامات من المناجم وساعة تعلن الوقت كل ربع ساعة وتنشد في منتصف النهار نشيداً خاصاً وضعه لها مخترعها نفسه وسفينة نهرية ذاتية الحركة وغير ذلك .

اما عن الادب فقد نجح كتاب القرن الثامن عشر في التعبير عن حياة المجتمع الروسي بشكل واضح وظهر في هذه الحقبة عدد من الادباء والشعراء الروس تميزت نتاجاتهم بالابداع والثراء والبلاغة اللغوية وقد تغنى هؤلاء بانتصارات الجيش الروسي وامتدحوا كاترين الثانية . كذلك ظهر من الادباء من انتقد بشدة اخلاق الحاشية وهزيء بالاستقراطيين والاعيان وفضح قسوة الملاكين وتعسفهم وهاجم مساوئ نظام القنانة وتعسف القضاة وموظفي الحكومة . ولم ينج من الانتقاد حتى رجال الكنيسة . لقد اغنى كتاب وشعراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر اللغة الادبية الروسية وامتلكوا كل فنون الابداع الادبي فقد كتبوا التراجيديا والكوميديا والشعر الهجائي والروايات والقصص والقصائد والشعر الغنائي وكان ذلك كله اساساً للنهوض الذي حققه الادب الروسي الواقعي في القرن التاسع عشر . ومن الملاحظ ان هذه المرحلة شهدت ظهور شعراء مبرزين من بين الشعوب غير الروسية مجدوا في نتاجاتهم نضال شعوبهم وتغنوا بأمجادها .

وتقدم فن العمارة الروسية في هذه الحقبة تقدماً ملحوظاً حيث نفذ المعماريون الروس العديد من الابنية التي تعد من روائع فن البناء واعترف ببعض المعماريين الروس اعضاء في اكاديميات العمارة في خارج روسيا كما حدث بالنسبة للمعمار المشهور باجينوف (١٧٣٧ - ١٧٩٩) .

وتطورت الفنون التشكيلية ايضاً فظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مجموعة من افضل النحاتين والرسامين والمؤلفين الموسيقيين والعاملين في الفنون المسرحية واشتهر في هذه الحقبة بشكل خاص رسامو الصور الشخصية ونحاتو تماثيل الأشخاص على الرغم من ان مواضيع البطولة في التاريخ الروسي ووقائع الحياة اليومية الطبيعية كانت من المواضيع الشائعة التي تناولها الرسم والنحت . وفي الموسيقى ... الغنائية والفت قطع موسيقية تعزف على الكمان والبيانو ووضعت

الاوبرات ناجحة . وينبغي ان نذكر بان دور مايسمى بمسارح الاقنان كان واضحاً في تاريخ الفنون المسرحية الروسية ففي هذه المسارح التي كانت تعود لمالكي الاقنان كان الممثلون والمخرجون وقائدو الاوركسترات واعضاء الكورس جميعهم من الاقنان .

واخيراً لابد ان نشير بان النصف الثاني من القرن الثامن عشر في روسيا تميز ببروز الافكار الحرة ، ولقد ظهر في روسيا لاول مرة مفكرون متنورون ثوريون تغنوا بالحرية ودعوا للقضاء على انظمة القنانة السائدة في المجتمع الروسي وبناء مستقبل افضل للشعب . ومن هؤلاء اثنان من مشاهير المفكرين الاحرار في روسيا هما نيكولاي ايفانوفتش نوفيكوف (١٧٤٤ - ١٨١٨) ، والكسندر نيكولايفتش راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢) ، فقد ندد الاثنان في المجلات والمؤلفات الكثيرة التي اصدراها بالنبلاء واستغلالهم الوحشي وبالمساوئ القائمة في المجتمع الروسي ودعيا الى تحسين احوال الشعب والقضاء على استغلال الاقطاعيين . وقد تعرض الاثنان بسبب ذلك الى اضطهاد الحكومة القيصرية وملاحقتها فقد اعتقلت السلطات نوفيكوف في ١٧٩٢ وألقته في زنزانة مظلمة وباردة في احدى القلاع ولم يطلق سراحه الا بعد ان تسنم بافل الاول العرش الروسي وبعد ان انهارت صحته تماماً . اما راديشيف فقد اعتقل وحكم عليه بالاعدام ثم استبدل الحكم بالنفي الى سيبريا ولم يسمح له بالعودة الا في ١٨٠١ ، ولكنه انتحر في السنة التالية مدفوعاً بمضايقة السلطات واضطهادها له بسبب عودته الى ممارسة نشاطه الثوري .

الفصل الثالث

روسيا في النصف الاول من القرن التاسع عشر

تدهور نظام القنانة

روسيا في النصف الاول من القرن التاسع عشر
تدهور نظام القنانة

التطورات الاقتصادية في النصف الاول من القرن التاسع عشر

ظلت روسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر بلداً زراعياً متأخراً يسوده نظام القنانة ولكن هذا النظام اخذ بالتدهور اعتباراً من النصف الثاني من ذلك القرن وازداد تدهوره في النصف الاول من القرن التاسع عشر وقد برزت علائم هذا التدهور في جميع فروع الاقتصاد الروسي ، ففي الصناعة أخذ الانتقال الى الانتاج الآلي يجري بشكل متزايد وظهرت المحركات البخارية في مؤسسات الانتاج وبدأ الانقلاب الصناعي في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر حيث جرى استخدام الآلات في صناعة النسيج القطني اولاً ثم في مؤسسات الانتاج الاخرى وكانت الآلات في البداية تستورد من الخارج ثم اصبحت تنتج في روسيا ذاتها فيما بعد . وقد بلغ العدد الاجمالي للمؤسسات الصناعية في روسيا حتى عا ١٨٢٥ خمسة آلاف ومائتي مؤسسة ازدادت حتى ١٨٥٤ الى عشرة آلاف مؤسسة تستخدم اغلبيتها العمل المأجور . واخذت هذه المؤسسات بالتطور حتى تحولت الى معامل على النمط الرأسمالي وان كانت اغلبيتها الساحقة من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة . وازداد نتيجة لذلك سكان المدن ففي حين كانت نسبة سكان المدن الى السكان ١ر٤٪ في ١٧٩٦ ، أصبحت هذه النسبة ٤ر٤٪ في ١٨١٢ و ٨ر٥٪ في ١٨٣٥ و ٨ر٧٪ في ١٨٥١ . ومع ان ذلك ادى الى توسيع السوق الداخلي الا ان اغلبية العمال في تلك المؤسسات كانت من الفلاحين الاقنان الذين كانوا مضطرين الى ان يقدموا قسماً كبيراً من الاجرة التي يتقاضونها الى الملاكين وكان بمقدور الملاك اعادتهم الى القرية في اي وقت يشاء الامر الذي يؤدي الى اشاعة البلبلة والارباك في الانتاج .

وبرزت في النصف الاول من القرن التاسع عشر في روسيا ظاهرة تخصص بعض مناطقها في نشاطها الاقتصادي فمحافظات الارض غير السوداء في الوسط والشمال اصبحت محافظات صناعية بالاساس في حين تطورت الزراعة وتربية الماشية في المحافظات الجنوبية والغربية . كذلك تخصصت المحافظات الشمالية الغربية في زراعة المحاصيل المستخدمة في الصناعة ولاسيما الكتان والمحافظات الجنوبية والشرقية في انتاج اللحوم وغيرها بتربية الخيول وهكذا .

وعلى الرغم من التقدم القليل الذي حصل في الزراعة فقد ظل دخل ضياع الملاكين منخفضاً بسبب تأخر الادوات المستخدمة في الزراعة واعتمادها على عمل الاقنان ولم تؤد محاولات بعض الملاكين لتحديث العمل الزراعي الى نتائج مهمة لان الاساليب الحديثة

كانت تتعارض مع عبودية القن . ولهذا رأى اغلبية الملاكين ان الوسيلة الوحيدة لزيادة مدخولاتهم هي تشديد استغلال فلاحيهم الاثنان وهكذا نجدهم يتوسعون في السخرة حتى اصبحت في محافظات الارض السوداء تتراوح بين ٤ و٦ أيام في الاسبوع ويواصلون الاستحواذ على اراضي الفلاحين بعد تحويلهم الى العمل لديهم لقاء اجر يدفع عيناً .

كان من نتيجة ازدياد عدد السكان المشتغلين بالصناعة وتخصص المناطق المختلفة في نشاطها الاقتصادي ان اتسعت التجارة الداخلية فقد كان الشمال الصناعي يجهز الجنوب الزراعي بالبضائع التي تنتجها مؤسساته الصناعية في حين تنقل اليه من الجنوب المحاصيل والمنتجات الزراعية والحيوانية التي يحتاجها . وقد لعب التطور الذي شهده النقل دوراً بارزاً في اتساع التجارة حيث استخدمت في هذه الفترة الباخرة لاول مرة في روسيا واخذ استعمالها في الشيوع فيها حتى بلغ عدد البواخر قبيل ١٨٥٠ حوالي المائة باخرة وشرع في هذه الفترة ايضاً ببناء السكك الحديد ومدت خطوطها وان ظلت روسيا من حيث طول السكك الموجودة فيها في مؤخرة اقطار اوربا الاخرى . كذلك ادت الاسواق الموسمية دوراً مهماً في التجارة الداخلية فقد كانت هذه الاسواق تقام بشكل منتظم في كل مدينة الى جانب الاسواق التي كانت تقام في القرى الكبيرة وكان بعض هذه الاسواق يستمر لاسابيع بل ولشهور في بعض الاحيان . واتسعت التجارة الخارجية ايضاً فازدادت قيمة التبادل التجاري من ١٢٧٫٨٧ مليون روبل في المتوسط في ١٨٠١-١٨٠٥ إلى ٤٣١٫٤٦ مليون روبل[1] في ١٨٥٦ - ١٨٦٠ أي ان قيمة التبادل تضاعفت ثلاث مرات في نصف قرن . وكانت صادرات روسيا الى اقطار اوربا الغربية تتألف بالاساس من المنتجات الزراعية كالكتان والقصب والشحم في حين تألفت صادراتها الى ايران والدولة العثمانية وخانيات آسيا الوسطى من المنتجات الصناعية . اما بالنسبة للواردات فقد كانت روسيا تستورد من اوربا الغربية المنتجات الصناعية بالدرجة الاولى كالمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والسكر والاصباغ وخمور العنب والخردوات والورق وكذلك المكائن التي اصبحت اعتباراً من الربع الثاني من القرن التاسع عشر تحتل مكاناً بارزاً في الاستيراد الروسي . وكانت بريطانيا في مقدمة الدول التي تتاجر معها روسيا فاليها كان يذهب ٧٣٪ من القشطة و ٩١٪ من الكتان و ٧٧٪ من الشحم و٨٠٪ من الشعير و ٧١٪ من الحديد و ٤٣٪ من قماش الاشرعة المصدرة من روسيا . اما واردات روسيا من بريطانيا فكانت تشمل الانسجة القطنية والصوفية والادوات المعدنية والآلات والمكائن والغزل القطني وغيرها ، كذلك كان التبادل التجاري مع ... يحتل مكاناً بارزاً في تجارة روسيا مع الاقطار الآسيوية .

---

(1) ... الواحد في ١٨٩١ - ١٨٩٢ يعادل ١٧٢ فلسا عراقيا .

يتضح من ذلك ان روسيا كانت في الفترة موضوع البحث مصدراً للخامات
بالنسبة لاوربا ومصدراً للمنتجات الصناعية بالنسبة للاقطار الآسيوية .

الكسندر الاول وسياسته في المجال الداخلي

قوبل اعتلاء الكسندر الاول العرش الروسي (١٨٠١ - ١٨٢٥) بابتهاج ك
بدا للوهلة الاولى ان القيصر الجديد سيبدأ عهداً جديداً في روسيا فقد كا
متنوراً رقيق الماشية واسع الثقافة ملماً بالعديد من اللغات الاوربية الحية بالا
اليونانية واللاتينية اخذ عن بعض اساتذته نزعة التعاطف مع الافكار الا
الليبرالية وكان يحب ان يذكر عنه بأنه من انصار الاصلاح والنظام الدستوري
كان يعتقد بان بعض الشعوب ومنها الشعب الروسي لم تكن مؤهلة بعد لتقبل ا
الدستورية . وقد استطاع ان يستغل مقدرته العالية على اخفاء افكاره ومشاعر
المشهودة في التعامل مع الناس وامكانيته الكبيرة في التظاهر نير مايبطن لاخفا
الحقيقية كحاكم مستبد يساند نظام القنانة والحكم المطلق ولان يكون دبلوماس
تشهد له بذلك علاقاته الواسعة في فترة عاصفة جداً من تاريخ اوربا هي فترة
النابليونية .

على اية حال قابل النبلاء والموظفون اغتيال بافل الاول واعتلاء الكسند
العرش بسرور بالغ حتى ان احد المؤرخين يذكر بان الشمبانيا نفدت من
العاصمة في اليوم الاول من حكم الكسندر فقد اشتراها كل من يستطيع ، ل
بالمناسبة . وقد كان لذلك مايبرره فقد كان حكم بافل الاول عبئاً ثقيلاً بالفعل
قابل الناس برضا البيان الاول الذي اصدره العاهل الجديد والذي تضمن
حكمه لاسيما وانه ذكر فيه بانه عازم على ان «يحكم بموجب القوانين وبروح . .
العظمى» . ولقد ظهر في الشهور الاولى من حكم الكسندر ان لهذا الرضا ماي
صدرت العديد من المراسيم والبيانات الغت القرارات الممقوتة التي صدرت
بافل حيث اعيد الى الخدمة الضباط والموظفون الذين جرى نفيهم في عهد با
محاكمة وسمح بالدخول الى روسيا والخروج منها بحرية وبدون قيود والغي الحظ
كان مفروضاً على دخول الكتب والمطبوعات الى روسيا واعيدت الى النبلاء وسكا

---

(١) كان عمره عندما تسنم العرش في ١٨٠١ ، اربعاً وعشرين سنة .

الحقوق التي تضمنتها البراءات التي منحت لهم. في عهد كاترين الثانية ، اطلق سراح بعض السجناء والمنفيين وانشئت هيئة استشارية للقيصر هي عبارة عن مجلس يتألف من اثنى عشر شخصاً اطلق عليه اسم «المجلس الدائم» . وكان ذلك كله دافعاً حفز عدداً من النبلاء الشبان ذوي النزعة الليبرالية على الاعتقاد بامكانية ان يقوم القيصر بتحديد السلطة المطلقة واقامة مؤسسات تحافظ على سيادة القانون وقد الف القيصر من هؤلاء حلقة صغيرة تضم «اصدقاءه الشبان» لمناقشة قضية الاصلاحات في روسيا وقد اطلق على هذه الحلقة اسم «اللجنة السرية» وكان القيصر يسميها مازحاً «لجنة الانقاذ العام» . مارست اللجنة المذكورة نشاطها طيلة الفترة من ١٨٠١ حتى ١٨٠٣ وناقشت قضايا ومشاريع الاصلاح المختلفة وصدر على اساس القرارات التي اتخذتها عدد من المراسيم منها مرسوم صدر في ١٨٠١ سمح للتجار وصغار البرجوازيين وفلاحي الدولة بشراء الاراضي غير المأهولة ومرسوم آخر «حول المزارعين الاحرار» صدر في ١٨٠٣ سمح لكل من يرغب ويجد في ذلك فائدة له من الملاك ان يحرر فلاحيه مع اراضيهم مقابل تعويض يحدد مقداره بالاتفاق بين الملاك والفلاح واعتبر الفلاحون الذين يتحررون بموجب هذا المرسوم فئة اجتماعية جديدة من المزارعين الاحرار . وعلى الرغم من ان نسبة الفلاحين الاقنان الذين حصلوا على حريتهم بموجب هذا المرسوم قليلة ، اذ لم يتحرر منهم طيلة عهد الكسندر الاول الا ٥ر٠٪ فقد كان هذا المرسوم اول اجراء حكومي رسمي يشير الى امكانية التخلي عن نظام القنانة ولهذا بالذات فقد جوبه بعداء ظاهر من جانب الملاكين اصحاب الاقنان . وكان من نتيجة نشاط اللجنة السرية ايضاً ان اجريت جملة من التغييرات في مجال الادارة المركزية والتعليم فقد الغيت مؤسسات الحكم المركزية التي اوجدها بطرس الاول واستعيض عنها بوزارات حدد عددها بموجب مرسوم ٨ ايلول ١٨٠٢ بثماني وزارات هي وزارة شؤون المشاة العسكرية ووزارة شؤون البحرية العسكرية ووزارات الشؤون الخارجية والعدل والشؤون الداخلية والمالية والتجارة والتعليم وقد حلت السبع الاولى منها محل مؤسسات كانت قائمة قبلها في حين استحدثت الوزارة الثامنة لاول مرة وبذلك يكون المرسوم المذكور قد انشأ لاول مرة في تاريخ روسيا مؤسسة حكومية مركزية تدير قضايا الثقافة . وقد قامت هذه الوزارة بنشاط واسع ومفيد في مجال توسيع شبكة المدارس ونشر المعرفة وتأسيس عدد اخر من الجامعات في بعض المدن الروسية كما ساعد قيامها على ضبط وتنظيم الرقابة الحكومية على المطبوعات وكانت لجنة الوزراء التي شكلت للتنسيق بين اعمال الوزارات المختلفة تجتمع في البداية برئاسة القيصر نفسه . ومع وجود هذه اللجنة و «المجلس الدائم» فقد مجلس السينات كلياً تقريباً طابعه السياسي الحكومي وتحول الى مجرد مؤسسة قضائية للرقابة .

وكان الكسندر قد قرب احد رجال الدولة هو ميخائيل ميخائيلوفتش سبيرانسكي وكان عصامياً لاينتمي الى طبقة النبلاء ، وجعله سكرتيراً له ثم فوضه بان يضع في شتاء ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩ خطة للاصلاح في روسيا . وقام هذا بالفعل بوضع خطة تضمنت انشاء مؤسسات منتخبة للادارة والتشريع حيث قضت بتقسيم السلطة التشريعية بين القيصر الذي ظلت له المبادرة التشريعية وبين مجلس دوما الدولة الذي اقترح سبيرانسكي انشاءه على ان ينتخب اعضاؤه من قبل الشعب بموجب شروط مالية معينة ينبغي ان تتوفر في الناخبين . ونصت الخطة ايضاً على انشاء مجلس دولة تابع للامبراطور يتألف من اشخاص يعينهم الامبراطور نفسه ومهمة هذا المجلس هي النظر مسبقاً في جميع لوائح القوانين . وقضت خطة سبيرانسكي كذلك بتقسيم المجتمع الروسي الى ثلاث طبقات هي : ١ . «النبلاء» ٢ . «متوسطو الحال» ويقصد بهم التجار وصغار البرجوازين وفلاحو الدولة وسكان الارياف الذين لديهم ملكية غير منقولة ٣ . «طبقة العاملين» الذين يقصد بهم اقنان الملاكين وخدم البيوت . وقد منحت الخطة الحقوق السياسية كالمشاركة في الادارة وفي انتخاب الدوما الى الطبقتين الاولى والثانية اما افراد الطبقة الثالثة فيمكن ان يحسبوا على «طبقة متوسطي الحال» اذا بلغت ملكيتهم غير المنقولة حداً معيناً . وقد صادق القيصر على هذه الخطة على ان تنفذ على مراحل ونفذ بالفعل بعض ما تضمنته في ١٨١٠ ـ ١٨١١ حيث انشأ مجلس الدولة واستحدثت وزارات جديدة .

وعلى الرغم من ان خطة سبيرانسكي لم تتعرض لاسس النظام القائم في روسيا ولم تمس نظام القنانة وسيادة النبلاء وسلطة الامبراطور فمن الواضح انها كانت ترمي الى التمهيد لتحويل نظام الحكم الملكي المطلق في روسيا الى نظام ليبرالي ولهذا فانها جوبهت بمعارضة شديدة من قبل النبلاء الذين اخذوا يكيلون الاتهامات لواضعها فاتهموه بالخيانة والعمل لصالح فرنسا النابليونية والسعي لالغاء القنانة والتطاول على حقوق النبلاء وسلطة القيصر . وكانت النتيجة ان ابعد سبيرانسكي عن البلاط في ١٨١٢ ونفي الى سيبريا بأمر الكسندر الاول الذي كان بحاجة الى مساندة النبلاء نظراً لان خطر الصدام مع نابليون بدأ يلوح في الافق مجدداً . وهكذا لم تؤد محاولات الاصلاح في روسيا الى نتيجة مهمة في هذه المرة ايضاً .

التوسع والسياسة الخارجية في العقد الاول من القرن التاسع عشر

اصدر الكسندر الاول في ١٢ ايلول ١٨٠١ بياناً اعلن فيه ضم جورجيا الى روسيا وقد تم بموجب هذا البيان اقصاء الاسرة الحاكمة في القسم الشرقي من جورجيا التي اصبحت تسمى «محافظة جورجيا» وشكلت فيها حكومة جورجية عليا تتألف من امراء جورجين وموظفين روس غير ان السلطة الحقيقية لم تكن بيد هذه الحكومة التي لم تكن في الواقع الا شكلاً معدلاً من المؤسسات الاقليمية التي كانت قائمة في المحافظات الروسية وانما بيد القائد الروسي العام في القفقاس . وقد اتخذت الحكومة الروسية هذا القسم من جورجيا نقطة ارتكاز لتوسيع ممتلكاتها في ماوراء القفقاس فاستولت في الفترة من ١٨٠٣ حتى ١٨١٠ على اراضي جورجيا الغربية الامر الذي اعطى لروسيا منفذاً الى البحر الاسود في منطقة ماوراء القفقاس . ثم استولت على اقاليم اخرى في الاجزاء الشرقية من ماوراء القفقاس وبذلك تكون كل جورجيا تقريباً قد دخلت في حوزة روسيا . لقد ادى استيلاء روسيا على جورجيا الى قيام الحرب الروسية ـ الايرانية ١٨٠٥ ـ ١٨١٣ والحرب الروسية ـ التركية ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ وقد انتهت الحربان لصالح روسيا وفشلت محاولات كل من ايران والدولة العثمانية لابعاد روسيا عن منطقة ماوراء القفقاس فتعززت نتيجة لذلك المواقع الروسية في تلك المنطقة اضافة الى انها استولت بموجب معاهدة صلح جولستان التي عقدتها مع ايران في ١٨١٣ على الجزء الشمالي من اذربيجان واستحوذت بموجب معاهدة صلح بخارست التي عقدتها مع الدولة العثمانية في ١٨١٢ على بسارابيا فجعلها ذلك دولة متاخمة لنهر الدانوب المهم .

في هذه الاثناء كانت تجري في اوربا حوادث عاصفة فقد تشكل هناك بعد ان اصبح نابليون امبراطوراً في ١٨٠٤ تكتل اوربي جديد معاد لفرنسا عرف بالتحالف الثالث ضم كلا من روسيا وبريطانيا والنمسا والسويد ثم انضمت اليه فيما بعد مملكة نابولي ، وقامت الحرب بين فرنسا وجيوش التحالف وقد تمكن نابليون من الحاق هزيمة كبرى بالجيشين الروسي والنمساوي في معركة اوسترليتز في ٢ كانون الاول ١٨٠٥ . لقد كانت الهزيمة ساحقة الى درجة بحيث اضطر الامبراطوران الروسي والنمساوي الى الفرار من ساحة المعركة . وكان من نتيجة ذلك ان خرجت النمسا من الحرب واجبرت روسيا على التخلي عملياً عن مواصلة العمليات العسكرية غير ان بروسيا لم تلبث ان اعلنت الحرب على نابليون في ١٨٠٦ فقام بذلك التحالف الرابع ضد فرنسا لكن نابليون تمكن من تحطيم القوات البروسية واحتل برلين فهرب الملك البروسي باتجاه الشرق . ونظراً لان نابليون كان يتحدث باستمرار عن احياء الدولة البولندية وكذلك بسبب اعلانه الحصار القاري

على بريطانيا وهو امر كان يضر بشكل مباشر بالمصالح الروسية لان روسيا كانت ترتبط ببريطانيا علاقات تجارية واسعة فقد ، استأنفت روسيا الحرب ضد نابليون من جديد وبعد معارك لم تكن حاسمة تمكن نابليون من الحاق هزيمة جديدة بالقوات الروسية في معركة فريدلاند في ١٤ حزيران ١٨٠٧ فبدأت بعد هذه المعركة مفاوضات بين الكسندر الاول ونابليون انتهت بعقد معاهدة صلح تلست في ٧ تموز ١٨٠٧ التي نصت على ان تتألف من جميع الاراضي التي كانت بروسيا قد استولت عليها عند تقسيم بولندا ، عدا محافظة بيلوستوك التي ذهبت الى روسيا ، دولة مستقلة سميت «دوقية وارشو العظمى» كذلك التزمت روسيا بموجب اتفاقية سرية خاصة بالتعاون مع فرنسا وبالانضمام الى الحصار القاري ضد بريطانيا . وقد كان الاستياء من هذه المعاهدة في روسيا شديداً لدرجة كبيرة لم يقلل منها حتى انتصار روسيا في حربها ضد السويد في ١٨٠٨-١٨٠٩ واستيلائها نتيجة ذلك على فنلندا لان النبلاء الروس اعتقدو بأن الحكومة الروسية شنت هذه الحرب بالحاح من نابليون الذي كان يريد معاقبة السويد على اشتراكها في التحالفات المعادية له . على كل حال اعتبرت فنلندا امارة تتمتع باستقلال ذاتي ضمن الامبراطورية الروسية سميت «آمارة فنلندا العظمى» ومنحت دستوراً خاصاً بها .

حملة نابليون على روسيا في ١٨١٢

اخذت العلاقات بين روسيا وفرنسا بالتوتر فالصلح الذي عقد بينهما في ١٨٠٧ لم يكن يستجيب لمصالح روسيا الاقتصادية ففرنسا المتأخرة في تطورها الاقتصادي بالقياس الى بريطانيا آنذاك لم يكن بمقدورها التعويض عن بريطانيا لافي مجال استيعاب الصادرات الروسية ولافي مجال تجهيز روسيا بما تحتاجه من منتجات صناعية . ولهذا كانت العلاقات التجارية بين روسيا وبريطانيا ، على الرغم من انقطاع العلاقات الدبلوماسية بينهما ، تتسع بالتدرج في الوقت الذي تضيق فيه العلاقات التجارية بين روسيا وفرنسا رغم قوانين الحصار القاري . كذلك اصطدمت المصالح الروسية والفرنسية في الشرقين الادنى والاوسط حيث كان الدبلوماسيون الفرنسيون يحوكون الدسائس ضد روسيا في الدولة العثمانية ويناهضون المخططات الروسية الرامية لترسيخ النفوذ الروسي ولاسيما في البلقان والمضايق . كما ان سياسة نابليون في المسألة البولندية أثارت القلق الشديد لدى الحكومة الروسية فتأسيسه لدوقية وارشو وتوسيعه لها وتلويحه

للمبرء البولنديين برغبته في ان يضم لها مناطق اخرى تقع ضمن الحدود الروسية الـ
حكومة القيصر واستفزها . ومن الناحية الاخرى استاء نابليون من عدم التزام روسـ
بقوانين الحصار القاري فقرر معاقبتها وشرع بالاعداد لغزوها وانتهت استعداداته لذلك
في منتصف عام ١٨١٢ .

اجتازت قوات نابليون في ليلة ١١ على ١٢ جزيران ١٨١٢ الحدود الروسية وبدأت
توغلها في الاراضي الروسية . وكان نابليون يسعى لملاقاة الروس في معركة كبيرة لانه
يعرف ان التفوق كان بجانبه ذلك انه كان قد اعد لهذه الحملة جيشاً كبيراً بلغ عدد
مقاتليه ٦٨٥ الف مقاتل مسلحين بشكل ممتاز يقودهم نابليون نفسه ومعه عدد من
مارشالات الجيش الفرنسي المشهورين كما ان الكثير من الجنود سبق لهم ان خاضوا مع
نابليون معارك مظفرة في العديد من الاقطار الاوربية لذلك فقد اعتادوا على النصر
وكانوا يثقون بقدرة نابليون على تحقيقه . ومع ذلك فقد كانت هناك نقاط ضعف مهمة
في جيش نابليون اهمها انه لم يكن متجانساً من الناحية القومية فلم يؤلف الفرنسيون الا
اقل من نصفه في حين جمع الباقون من مختلف الاقطار التي اخضعها نابليون في اوربا كما
ان اهداف الحملة ومعناها لم يكن واضحاً لا للجنود ولا للضباط .

اما القوات الروسية التي كانت متواجدة على حدود روسيا الغربية عند بدء الحملة
فقد كانت اقل عدداً بشكل ظاهر اذ لم تكن تتعدى ٢٢٥ الف شخص كان منهم تحت
السلاح فعلياً ١٨٠ الف مقاتل فقط كما ان هذه القوات لم تكن محتشدة في محل واحد بل
موزعة على نقاط متعددة على طول الحدود وذلك بموجب خطة وضعها مستـ
الامبراطور العسكري وبسبب عدم معرفة القيادة الروسية للنقطة التي سيوجه اليها
نابليون ضربته الرئيسية . وهكذا لم يكن توازن القوى لصالح الروس لكن الجيش
الروسي كان يمتاز على القوات الفرنسية بميزة مهمة هي انه كان موحداً من الناحية القومية
كما انه كان يدرك بأنه يحارب دفاعاً عن وطنه وقد اعطى ذلك زخماً كبيراً لحماسة الجنود
والضباط واستماتتهم في القتال هذا بالاضافة الى انه كان يضم عدداً من القادة لا يقلون
خبرة وموهبة عن مارشالات فرنسا المشهورين .

لقد اعتمد الروس ستراتيجية دفاع تراجعي فكانوا يقاتلون متراجعين امام جيش
نابليون دون ان يلتحموا معه في معركة كبيرة وقد مكن ذلك الجيش الفرنسي من احتلال
مناطق واسعة فقد استولى على لتوانيا وبيلوروسيا وجزء من منطقة البلطيق . وفي
آب تمكن الجيشان الروسيان الاول والثاني من الالتقاء ببعضهما ففشلت بذلك
نابليون في تحطيمهما كلا على انفراد . وفي نفس الوقت بدأ الجيش الفرنسي
مصاعب النقل والتموين وكانت هذه المصاعب تزداد بمقدار ماكان يتقدم نحو الشرق

ومن الناحية الاخرى اخذ تراجع القوات الروسية وتقدم الجيش الفرنسي في اقاصي روسيا يستثير المشاعر القومية للروس الذين هبوا لاسناد قواتهم المسلحة وشكلوا فرقاً من الانصار اخذت تهاجم الجيش الفرنسي الزاحف . ونقم الجنرالات الروس على ستراتيجية التراجع وبدأوا يوجهون الاتهامات الى قائد الجيش الذي اعتمدها فاستجاب الكسندر لذلك وعزل القائد العام السابق وعين بدلاً منه احد القادة المجربين هو ميخائيل ايلاريونفتش كوتوزوف الذي كان محبوباً من قبل افراد الجيش . ومع ذلك فقد واصل كوتوزوف التراجع الى ان وصل في نهاية آب على بعد ١١٠ كم الى الغرب من موسكو وهناك قرر بعد ان درس توازن القوى بين الجيشين الدخول مع نابليون في معركة كبيرة . وقد وقعت المعركة في ٧ ايلول ١٨١٢ في قرية بورودينو وكانت معركة في غاية العنف والشدة على الرغم من انها لم تستمر الا يوماً واحداً ابلى فيه الجانبان بلاءً حسناً وحقق الفرنسيون نجاحاً نسبياً . وكانت خسائر الجانبين كبيرة جداً حيث فقد الجيش الروسي الذي اشترك في المعركة وكان عدده ١٢٠ الف مقاتل نصف عدد افراده بالاضافة الى ٢٣ جنرالاً اما خسائر الفرنسيين فكانت ٥٨ الف جندي و ٤٧ جنرلاً . قرر كوتوزوف بعد هذه المعركة مواصلة التراجع واخلاء موسكو . وهكذا اخليت موسكو وغادرها مع الجيش جميع سكانها المدنيين تقريباً قبل ان يدخلها الجيش الفرنسي .

غير ان القوات الفرنسية لم تجد في موسكو ماكانت تنشده من الراحة والهدوء ففي اليوم الاول لحلولها في المدينة حدثت حرائق متفرقة في مختلف انحاء المدينة لم تلبث ان تحولت بسبب الريح الى حريق عام ثم اخذت روح الضبط بين افراد الجيش الفرنسي بالضعف واصبحت حوادث النهب والخروج على اوامر الضباط تتكرر فالمقنع ذلك كله بالاضافة الى وجود الجيش الروسي متربصا خارج المدينة وفشل عدة محاولات قام بها نابليون للدخول في مفاوضات مع الروس ، اقتنع القائد الفرنسي باحتمال خسران الحرب الامر الذي دفعه الى ان يقرر اخلاء موسكو والعودة من حيث اتى ، وبدأت القوات الفرنسية في ٦ تشرين الاول تغادر المدينة بالفعل . عند ذلك بدأ الروس هجومهم المضاد الذي اجبر الفرنسيين على سلوك نفس الطريق الذي قدموا منه ، وكانت الحرب قد خربته ولم تعد القوات الفرنسية تجد فيه ماتحتاجه من مؤن ، بعد ان حاولوا في البداية سلوك طريق آخر لم يتعرض للدمار بسبب الحرب . فادى ذلك بالاضافة الى حلول البرد وسقوط الثلج الذي لم يستعد له الفرنسيون الى تحلل الجيش الفرنسي وانهياره بحيث اضطر نابليون الى ان ينفصل عن بقية الجيش سرا ويسرع باتجاه باريس متنكرا في زي ضابط بسيط ليجمع جيشا جديدا .

الانتصار على نابليون ونتائجه بالنسبة الى روسيا

في نهاية كانون الاول ١٨١٢ غادر آخر جندي فرنسي الارض الروسية لكن نابليون لم يستسلم للهزيمة بل جمع جيشا جديدا على عجل واخذ يستعد للحرب من جديد. وكان الكسندر الاول من جانبه يريد مواصلة الحرب للقضاء على نابليون نهائياً واتخاذ دور «محرر» اوربا من النير النابليوني ولكي يحصل من وراء ذلك على مكاسب اقليمية جديدة على حدود روسيا الغربية ولهذا امر بمواصلة العمليات الحربية خارج الحدود الروسية حيث عقدت روسيا مع بروسيا حلفا انضمت اليه النمسا فيما بعد. وبعد معارك تبادل فيها المتحاربون النصر تمكنت القوات المتحالفة من تحقيق نصر حاسم على قوات نابليون في معركة «الامم» التي وقعت عند لايبزك في تشرين الاول ١٨١٣ دخلت بعدها جيوش التحالف باريس وتنازل نابليون عن العرش وارسل منفيا الى جزيرة البا واعيدت اسرة بوربون الى الحكم في فرنسا. وفي مؤتمر الصلح الذي عقد في فينا في ايلول ١٨١٤ تصادمت بشكل حاد مصالح الدول الاوربية الكبرى الى درجة بحيث بادر حلفاء الامس الى عقد احلاف عسكرية بعضهم ضد البعض الاخر فقد تحالفت روسيا مع بروسيا في جانب وبريطانيا والنمسا ومعها فرنسا في جانب آخر، لكن هروب نابليون من البا وعودته الى حكم فرنسا مرة اخرى اجبر هذه الدول على تجاوز خلافاتها والتحالف من جديد. وكانت النتيجة ان انتصر الحلفاء على نابليون مرة اخرى في واترلو في حزيران ١٨١٥ فارسلوه في هذه المرة اسيرا الى جزيرة سانت هيلانه ثم استأنفوا اجتماعاتهم في فينا حيث توصلوا في صيف تلك السنة الى تسوية عامة قسمت بموجبها الاراضي البولندية وجزء من اراضي سكسونيا بين روسيا وبروسيا والنمسا حيث ذهب القسم الاغلب من دوقية وارشو العظمى بما فيه مدينة وارشو نفسها الى روسيا واعتبرت الحكومة الروسية هذا الجزء مملكة دستورية تتمتع باستقلال ذاتي ضمن الامبراطورية الروسية لها الحق في انشاء قوات مسلحة خاصة بها ولكن ليس لها استقلال في الشؤون الخارجية. وكان الامبراطور الروسي الذي يحكم روسيا حكما استبداديا مطلقا هو في الوقت نفسه ملكا دستوريا للمملكة البولندية التي منحت دستورا واصبح لها برلمان يتألف من مجلسين يجتمع مرة كل سنتين ومهمته مناقشة لوائح القوانين. وقد القى الكسندر الاول عندما افتتح البرلمان البولندي لاول مرة في ١٨١٨ خطابا اكد فيه عزمه على ان ينشئ بالتدريج «مؤسسات قانونية حرة» في جميع الاقطار الخاضعة لسلطته وقد اثار هذا التصريح موجة من الابتهاج والامل لدى الاوساط التقدمية في المجتمع الروسي لكن الكسندر لم يلبث ان خيب هذه الامال اذ بدا هو نفسه يخرق الدستور الذي منحه لبولندا

كانت الاطاحة بنابليون ايذانا بمحاولات متعددة جرت لاعادة الانظمة التي كانت قائمة في اوربا قبل قيام الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ . وقد اتخذت القوى السياسية الرجعية في اوربا لهذا الغرض في حلف اضفي عليه الطابع الديني المسيحي ، لكي تستبعد الدولة العثمانية من الانضمام اليه ، عرف باسم «الحلف المقدس» وقد وقع على هذا الحلف في ١٨١٥ في البداية الامبراطوران الروسي والنمساوي والملك البروسي ثم انضم اليه بعد ذلك ملوك اوربا المسيحيون الاخرون باستثناء ملك بريطانيا رغم ان بريطانيا كانت آنذاك تتعاطف معه . لقد تحول الحلف المقدس الذي كان الدور القيادي فيه لألكسندر الاول ولمستشار النمسا مترنيخ الى حصن للرجعية الاقطاعية المستبدة في اوربا . وكان الملوك الذين وقعوا عليه يجتمعون من حين لاخر لمناقشة القضايا السياسية المستجدة في لقاءات عرفت بمؤتمرات الحلف المقدس . وقد كرست اهم هذه المؤتمرات وهي مؤتمر اكس لاشابيل في ١٨١٨ وتروباو في ١٨٢٠ ولايباخ في ١٨٢١ وفيرونا في ١٨٢٢ لمناقشة الاجراءات اللازمة لتلافي قيام ثورة جديدة في فرنسا ولمكافحة الافكار الثورية في اوربا ولبحث الأجراءات الواجب اتخاذها لقمع الحركة الثورية وحركة التحرر القومي في بيدمونت ومملكة نابولي واسبانيا حيث فوضت النمسا باخماد انتفاضتي نابولي وبيدمونت وفرنسا بالقضاء على الثورة في اسبانيا . ان السياسة الرجعية التي مارسها الحلف المقدس جعلته مكروها من شعوب اوربا باسرها كما ان الدور البارز الذي كان يلعبه الكسندر الاول في هذه السياسة جعل القيصرية الروسية ممقوته جدا في نظر الرأي العام التقدمي في روسيا وفي اوربا بشكل عام . لكن قيام الثورة في اليونان عام ١٨٢١ وما ادت اليه من تفاقم المسألة الشرقية[1] ، ولد عقبة امام مواصلة الحلف المقدس لسياسته الرجعية فقد اضطر الكسندر الى ان يتخذ موقفا يتسم بالتردد والازدواجية حيث كان عليه ، باعتباره احد قادة الحلف المقدس الذين نادون باستمرار بالمحافظة على الشرعية ان يقف موقفا سلبيا من الثورة اليونانية ضد السلطان العثماني الحاكم الشرعي لليونان . ولكن رغبته في توسيع النفوذ الروسي في البلقان وفي فتح المضايق امام السفن الحربية الروسية دفعته الى مساندة اليونانيين سرا . غير ان مساعيه لبسط النفوذ الروسي في البلقان والمضايق جوبهت بعداء ظاهر من جانب النمسا وبريطانيا فاخذت هذه الاخيرة تساند الثورة اليونانية ايضا تحقيقا لاهدافها الخاصة في المنطقة مما ادى الى رجحان

---

(١) المسألة الشرقية : مصطلح يستخدم في الدبلوماسية وفي الكتابات التاريخية للدلالة على المنازعات والخلافات التي اشتدت بين الدول الاوربية الكبرى منذ نهاية القرن الثامن عشر بسبب اضمحلال الدولة العثمانية وتدهورها والصراع بين تلك الدول من اجل اقتسام ممتلكاتها .

النفوذ الانجليزي على الروسي في اليونان . وهكذا بدأ الحلف المقدس يعاني اعتبارا من
١٨٢٥ ازمة مافتئت تشتد مع الزمن فأخذ الكسندر الاول بعد ان اقتنع بعدم استطاعته
حل قضايا الشرق الادنى لمصلحته بواسطة الحلف المقدس يستعد للحرب ضد الدولة
العثمانية ولكن المنية عاجلة قبل ان يتمكن من تحقيق ذلك اذ توفى فجأة في ١٩ تشرين
الثاني ١٨٢٥ في مدينة نائية من مدن الجنوب .

السياسة الداخلية بعد الغزو الفرنسي

ساعد فشل الاصلاحات التي حاول الكسندر الاول القيام بها والاخفاقات التي من
بها في سياسته الخارجية في السنوات الاولى من حكمه على تقوية نزعة الشك عنده
وكانت نزعة النفور من الناس وميله الى التصوف والزهد تزداد لديه مع الوقت وقد اقتر
ذلك عنده بالشعور بتأنيب الضمير حيث كان يشعر على الدوام بان الناس سيظلو
يذكرونه على انه القيصر الذي ارتقى العرش على جثة ابيه . ومن الجانب الاخر اتسعت
نتيجة للحرب ضد القوات الفرنسية في روسيا الحركة الجماهيرية لدرجة كبيرة جدا بحيث
كانت السلطات المحلية تضطر في بعض الحالات الى الاستنجاد بقوات الجيش لقمع
الاضطرابات الفلاحية التي كانت اضخمها تلك التي حصلت في الدون في الفترة
١٨١٨ - ١٨٢٠ . كذلك حدثت اضطرابات في بعض وحدات الجيش كان اكبرها
حصل في فوج سيمينوف في بطرسبورغ عام ١٨٢٠ .

لقد ادى ذلك كله الى بروز الاتجاهات الرجعيه في سياسة الكسندر الاول وحكومته
اكثر فاكثر على الرغم من ان القيصر كان يظهر في بعض الاحيان ميلا الى العودة
سياسة الاصلاح التي حاول انتهاجها في بداية عهده . من ذلك مثلا ماحصل في ١٨١٦
عندما فوض اراكتشيف[1] بان يضع خطة لتحرير الاقنان تدريجيا لكن هذا المشروع
ينفذ بل بالعكس تاكدت امتيازات النبلاء التي تضمنتها البراءة التي منحت لهم
١٧٨٥ كما تأكد ايضا حق الملاكين في نفي الفلاحين الذين يذنبون بحقهم الى سيـ

(١) ...اكسي اندريفتش اراكتشيف (١٧٦٩ - ١٨٣٤) احد العسكريين تقلد في عهد بافل الاول والكسندر الاول ... من المناصب المهمة في الدولة منها منصب وزير الحربية الذي شغله في الفترة من ١٨٠٨ الى ١٨١٠ ... الكسندر الاول بسلطة كبيرة جدا وكان يتمتع بثقة غير محدودة من جانب القيصر ...

دون تحقيق او محاكمة . ومن مشاريع القيصر الاصلاحية في هذه الفترة الغاء القنانة في ١٨١٦ - ١٨١٩ في المناطق المتاخمة للبلطيق حيث حصل الفلاحون الاستونيون واللاتيفيون على حريتهم الشخصية ولكنهم جردوا من الارض . كذلك وضع نوفوسيلتسيف[1] في ١٨١٩ بتفويض من القيصر مشروع «براءة نظام الدولة للامبراطورية الروسية» وهو مشروع اصلاحي حاول ان يوفق بين الانظمة الدستورية التمثيلية وبين الحكم غير المقيد ولكن هذا المشروع لم يتح له التنفيذ ايضا .

وفي ١٨١٧ اعيد تنظيم وزارة التعليم واصبح اسمها وزارة الشؤون الدينية والتعليم وتحول السينود الى دائرة ملحقة بها . وفي ١٨٢٤ استقلت الشؤون الكنسية في دائرة قائمة بذاتها .

لقد اتضحت السياسة الرجعية للقيصر في السنوات العشرة الاخيرة من حكمه على وجه الخصوص حيث تركزت السلطة بيد اراكتشيف الذي سبق ذكره وكان شخصا قاسيا بليدا يفتقر الى التعليم تنحصر كل كفاءته في خضوعه المطلق للقيصر وتنفيذه كل ما يطلب دون تردد . لقد اصبح اراكتشيف هذا مصدر السلطة كلها بحيث لم يعد لمؤسسات الدولة المختلف كلجنة الوزراء ومجلس الدولة وغيرهما الا معنى شكليا فقط . وقد اضطلع اراكتشيف في ١٨١٦ بعملية تنفيذ المشروع الجديد للقيصر ونعني مشروع انشاء ما يسمى بـ «المستوطنات العسكرية» حيث قرر الكسندر رغبة منه في تخفيض مصروفات الجيش وزيادة الكوادر المدربة فيه ، تحويل افواج الجيش النظامي الى مستوطنين عسكريين يستقرون في قرى خاصة في المناطق الريفية من البلاد . لقد كان على هؤلاء المستوطنين العسكريين ان يؤدوا الخدمة العسكرية ويجتازوا التعليم العسكري في نفس الوقت الذي يقومون فيه بالعمل الزراعي الذي يعيلون انفسهم بواسطته . وقد اقيمت المستوطنات العسكرية هذه على طول الحدود الغربية لروسيا فكونت جدارا اريد له ان يحمي روسيا من الاخطار التي تاتيها من اوربا الغربية لكن هذه المستوطنات اصبحت مسرحا للعديد من الاضطرابات كان سببها الظروف القاسية التي كان المستوطنون يعيشون في ظلها في تلك المستوطنات .

لقد اتسعت الاتجاهات الرجعية وبرزت في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية وشن وزير التعليم جوليتسين الذي امتاز بالتعصب الشديد حملة على الجامعات والمدارس

---

(١) نيكولاي نيكولا يفتش نوفوسيلتسيف (١٧٦١ - ١٨٣٦) احد كبار النبلاء الروس شغل في عهد الكسندر الاول العديد من المناصب العليا في الدولة وكان واحداً من اعضاء اللجنة السرية التي سبق ذكرها .

العليا ابعد بنتيجتها العديد من العلماء المبرزين وانتشرت الاتجاهات الصوفية والنفاق ولاسيما في العاصمة واوساط البلاط وازداد تحت الرقابة واتسعت شبكة البوليس لمراقبة العناصر المعارضة . وهكذا خابت الامال الكبيرة التي علقت على الكسندر الاول في بداية حكمه واتسع نتيجة لذلك الاستياء السياسي الذي ادى بالنتيجة الى قيام انتفاضة الديسمبريين .

انتفاضة الديسمبريين

كانت السنوات التي سادت فيها مبادئ الحلف المقدس الرجعية في اوربا في الوقت نفسه سنوات نهوض ثوري ملحوظ واتساع واضح لحركة التحرر القومي في كل الاقطار الاوربية حيث انشأت الاوساط الثورية المعارضة جمعيات سرية كانت تعمل ضد سياسة الحلف المقدس وضد الانظمة المستبدة في اوربا وتسعى لتحقيق اهداف سياسية واجتماعية وقومية تحررية . وفي روسيا عرفت ثلاث جمعيات من هذا النوع هي «منظمة الفرسان الروس» (١٨١٥) و «اتحاد الانقاذ» او «جمعية ابناء الوطن الامناء المخلصين» (١٨١٦) و «اتحاد اليسر» (١٨١٨) .

كان «اتحاد الانقاذ» هو اول المنظمات التي شكلتها العناصر الثورية التي عرفت فيما بعد باسم «الديسمبريين» وقد ادت الخلافات التي قامت بين اعضاء هذه الجمعية حول اسلوب العمل ، وكان عددهم ثلاثين شخصا تقريبا ، الى حلها والاستعاضة عنها بجمعية جديدة هي «اتحاد اليسر» التي ضمت ما يزيد على مائتي شخص . لقد سعت هذه المنظمة الى جذب اكبر عدد ممكن من العناصر المعروفة بميولها التقدمية ولذلك فانها اعلنت انها تسعى لتحقيق اهداف ثقافية وخيرية واقتصادية عقلانية واسعة لكن الهدف السري الذي كان قادة الجمعية يسعون لتحقيقه هو القيام بانقلاب حكومي يستبدل بالحكم المطلق نظاما دستوريا والغاء نظام القنانة . وكان لهذه الجمعية فروع في موسكو وبطرسبورغ واوديسا وكيشينوف . وقد اراد قادة هذه الجمعية التخلص من العناصر المترددة فيها فاعلنوا عن حلها لكن هذا الحل لم يكن الا شكليا فقط حيث واصل قادة الجمعية العمل بسرية تامة للاعداد للانقلاب موزعين على جمعيتين سريتين كان مركز الاولى في بطرسبورغ ومقر الثانية فى تولتشينا في اوكرانيا عرفت الاولى باسم «الجمعية الشمالية» والثانية باسم «الجمعية الجنوبية» واتسمت افكار الثانية باتجاهات اكثر ثورية واكثر ديمقراطية من الافكار التي اعتمدها اعضاء الجمعية الاولى . وبالاضافة الى ذلك نشطت في الجنوب في الفترة من ١٨٢٣ الى ١٨٢٥ جمعية سرية اخرى هي «جمعية

السلاف المتحدين» التي كانت افكارها قريبة من افكار الجمعيتين السابقتين والتي انضم اعضاؤها في خريف ١٨٢٥ الى الجمعية الجنوبية وقبلوا برنامجها .

لقد ناقش اعضاء هذه الجمعيات اكثر من مرة خطط الانتفاضة المقبلة ولكنهم لم يتوصلوا الى وضع خطة موحدة مدروسة مقبولة من الجميع ولذلك فان موت الكسندر الاول فجأة في ١٩ تشرين الاول ١٨٢٥ اثار البلبلة في صفوفهم وجعلهم ينهضون للثورة قبل الوقت المحدد مستغلين فترة البلبلة التي حدثت في روسيا في مسالة وراثة العرش ذلك ان الكسندر الاول لم يخلف اولادا ولهذا فان العرش كان ينبغي ان ينتقل بموجب قانون وراثة العرش الى اخيه الذي يليه وهو قسطنطين لكن قسطنطين هذا كان قد تنازل عن حقه في العرش لصالح اخيه الاخر نيكولاي (نيقولا) منذ فترة طويلة غير ان هذا التنازل لم يعلن على الملأ في حينه ولهذا عمد نيقولا بعد ان وصله خبر وفاة اخيه الكسندر الى مبايعة قسطنطين مدفوعا بالاعتقاد في ان احدا لن يصدقه اذا ما اعلن بان قسطنطين قد تنازل له . وقد فعل الشيء نفسه كل من السينات والسينوذ وحامية بطرسبورغ وجميع السكان . اما قسطنطين الذي كان في ذلك الوقت فى وارشو باعتباره عاملا للامبراطور في مملكة بولندا فانه اعلن بعد ان بلغه خبر وفاة الكسندر عن مبايعة اخيه نيقولا امبراطورا جديدا ملتزما بالاتفاق الذي اشرنا اليه حول تنازله عن العرش . وهكذا اصبح لروسيا امبراطوران قامت بينهما مراسلات استمرت بعض الوقت وانتهت بتأكيد قسطنطين تنازله لصالح نيقولا . وقد قرر اعضاء الجمعيات السرية استغلال هذه الظروف للقيام بالانتفاضة لاسيما وانهم علموا بان الحكومة عرفت بوجود مؤامرة ترمي الى القيام بانقلاب فاعتقلت رئيس الجمعية الجنوبية في ١٣ كانون الاول ، ولهذا فقد قرروا القيام بالانتفاضة في اليوم الذي تقرر فيه ان تجري البيعة الثانية لنيقولا وهو يوم ١٤ كانون الاول «ديسمبر» ١٨٢٥ ومن هنا جاءت تسميتهم بالديسمبريين.[1] وكانت خطتهم تقضي باستغلال الاشاعات التي كانت منتشرة بين الجنود حول عزم قسطنطين على التخفيف من الوضع الصعب الذي كان الجنود والفلاحون يعانون منه في روسيا لدفع اولئك الجنود الى رفض البيعة لنيقولا ومن ثم توجيه القوات التي ترفض تأدية قسم البيعة الى ساحة مجلس السينات . ولم يقرروا ماذا سيفعلون بعد ذلك . لكن البيعة جرت في صباح اليوم المذكور في حامية بطرسبورغ بهدوء ولم يستطع الثوار ان يجمعوا في ساحة السينات الاحوالي ثلاثة آلاف شخص كما انهم لم يستغلوا المفاجأة التي اصابت

---

(١) يطلق عليهم في روسيا اسم «ديكابرستي» اي «الدبكابريون» من كلمة «ديكابر» وهو الاسم الذي يطلق على شهر كانون الاول (ديسمبر) باللغة الروسية .

نيقولا الاول في البداية ولم يستفيدوا من تعاطف السكان المتجمهرين في الساحة للقيام بخطوات ثورية لاحقه ولذلك تمكن نيقولا بعد ان أفاق من الصدمة الاولى من ارسال قوات عسكرية من القطعات التي ادت له تسم البيعة الى ساحة السينات واحاطت هذه القوات التي بلغ عددها ١٢ ألف مقاتل مزودين بـ ٣٦ مدفعا بالثوار واطلقت عليهم النار بعد ان فشلت محاولة قام بها نيقولا للتفاوض معهم لانهم رفضوا التفاوض بل واطلقوا النار على رسل القيصر . واشاع الهجوم الاضطراب في صفوف الثوار فبادروا الى التفرق بحيث لم يحل مساء اليوم نفسه الا وكانت الانتفاضة قد اخمدت ، ثم بدأت الاعتقالات واقتيد المعتقلون الى نيقولا الذي كان اول من باشر التحقيق معهم .

وهكذا فشلت انتفاضة الديسمبريين في بطرسبورغ كما فشلت أيضا حركة نظمتها الجمعية الجنوبية في احد الافواج العسكرية في منطقة فاسيلكوف في كانون الاول ١٨٢٥ .

لقد كانت انتفاضة الديسمبريين هذه اول محاولة للقيام بانقلاب ثوري يهدف القضاء على نظام القنانة والحكم المطلق فكانت بذلك دليلا على تدهور هذا النظام وتخلفه عن روح العصر .

نيقولا الاول وسياسته الداخلية

استمر حكم نيقولا الاول في روسيا ثلاثين سنة (١٨٢٥ - ١٨٥٥) ، ونيقولا هو كما اشرنا الابن الثالث لبافل الاول بعد الكسندر وقسطنطين ولهذا كان احتمال تسنمه العرش ضعيفا الامر الذي جعل الاهتمام الذي اولى لتربيته وتعليمه اقل من الذي اولى لاخويه الكبيرين ، ولذلك فقد اتصف بقلة الثقافة وضيق الافق وكان مزهوا بنفسه مستبدا شديد القسوة يعتقد ان مهمته الاساسية هي مكافحة الثورة ومناهضة اي مظهر من مظاهر الليبرالية والفكر الحر ورفض اي انتقاد يوجه للوضع القائم فقد صرح بعد انتفاضة الديسمبريين قائلا : «ان الثورة تقف على عتبة روسيا ولكني اقسم بأنها لن تدخل اليها طالما في عرق ينبض» . ولهذا نجده وقد شعر باضمحلال وتدهور النظام الاقطاعي المستبد تحت تأثير الظواهر المستجدة في المجتمع الروسي يحاول ان يقوي القيم والانظمة الاقطاعية القديمة ويعزز نظام الحكم المطلق وكان يرى ان الوسيلة الاساسية لتحقيق هذا الهدف هي العنف المباشر والتنكيل الشديد . وهكذا بدأ حكمه بتقوية

البوليس السياسي وبأتخاذ الاجراءات الكفيلة بتشديد مركزية الادارة وتركيز السلطة في يده بشكل مباشر فقد كان مكتبه الخاص الذي يشرف عليه بنفسه بشكل مباشر يهيمن على موسسات الدولة الاخرى وقد تضخم هذا المكتب بحيث أصبح يتألف من ست شعب انشأت الشعبة الثالثة منها بمساعدة قوة عسكرية خاصة هي فيلق الدرك جهازا للبوليس السياسي على درجة من السعة لم تشهدها روسيا من قبل .

وكانت نظرة نيقولا الاول الى المدرسة والعلم والادب تتصف بالريبة وعدم الارتياح لانه كان يعتبر الطباعة والمدرسة من بين المصادر الاساسية للنزعات الليبرالية والأفكار الحره التي يمقتها ولهذا فأن جميع من تولى منصب وزير التعليم في عهده كان من غلاة الرجعيين الذين مارسوا في مجال التعليم سياسة مغرقة في رجعيتها ، كما أنه أصدر في ١٨٢٦ مايسمى «نظام الرقابة» الذي حدد بدرجة كبيرة امكانات النشر واخضع المطبوعات لرقباء هم موظفون جهلة بعيدون عن العلم والثقافة وفي ١٨٢٧ اصدر مرسوما منع فيه قبول الاقنان في المعاهد الدراسية المتوسطة والعليا .

غير أن ذلك كله لم يمنع تسرب الافكار الثورية الى روسيا ولاسيما الى بولندا فقد قامت في هذه الاخيرة في ١٨٣٠ أنتفاضة ضد الحكم القيصري كان من أسبابها الاحداث الثورية في أوربا الغربية بالاضافة الى سياسة نيقولا الاول الرجعية وتوسعه في خرق الدستور البولندي الذي كان الكسندر الاول قد منحه للبولنديين كما أشرنا سابقاً ، كما أن النبلاء الروس كانوا يصمون آذانهم عن مطاليب النبلاء البولنديين الذين كانوا يطالبون بضم لتوانيا وبيلوروسيا واكرانيا الضفة اليمنى الى مملكة بولندا . وأدى ذلك كله الى أشتداد المعارضة في صفوف البولنديين وتألفت على هذا الأساس في بولندا جمعيات سرية كان بعضها يسعى للقيام بأنقلاب عسكري يفضي الى تحرير أراضي مملكة بولندا من السيطرة الروسية وأقامة نظام حكم جمهوري .

أشتعلت الأنتفاضة في وارشو في ٢٩ تشرين الثاني ١٨٣٠ فاضطر عامل مملكة بولندا وهو قسطنطين أخو نيقولا كما ذكرنا ، الى الهرب فأنتقلت السلطة في المدينة الى الثوار الذين أنضم اليهم الجيش البولندي ثم تشكلت حكومة مؤقتة واجتمع المجلس البولندي واعلن المجلس ان الانتفاضة البولندية هي انتفاضة قومية واتخذ جملة من القرارات منها قرار بعزل نيقولا الاول عن العرش البولندي وآخر بضم لتوانيا وبيلوروسيا واكرانيا الضفة اليمنى الى بولندا . وبدأت الحرب بين الثوار وقوات نيقولا الاول في كانون الثاني ١٨٣١ واستمرت حتى ايلول من نفس السنة لكنها انتهت بهزيمة الثوار بالرغم من الشجاعة التي ابدوها والتفاني الذي اظهروه وذلك بسبب الفرق الكبير في قوة كل من الجانبين والاخطاء السياسية والاجتماعية التي ارتكبتها قيادة الانتفاضة . لكن الانتفاضة

البولندية أدت مع ذلك الى انهيار خطط نيقولا الاول الرامية الى قمع الثورات القائمة في فرنسا وبلجيكا . وقام نيقولا الاول بعد اخماد الانتفاضة بالغاء الدستور البولندي وتشديد الاجراءات الرجعية في بولندا وعين الجنرال باسكيفتش الذي اخمد الانتفاضة عاملاً جديدا له على بولندا .

وقد اقترنت الانتفاضة البولندية بنهوض واسع للحركة الجماهيرية في روسيا نفسها فقد قامت في مختلف انحائها اضطرابات سميت «عصيانات الكوليرا» لانها كانت مرتبطة بظهور وباء الكوليرا وباجراءات الحجر الصحي التي اتخذت لتلافيه خيث انتشرت اشاعات تقول ان السادة هم الذين «يطلقون الكوليرا» ويسممون الآبار . ففي صيف ١٨٣٠ قام البحاره والجنود في سيفاستيبول بانتفاضة كبيرة وفي صيف السنة التالية انتفض الجنود في بعض انحاء محافظة نوفجورد كذلك تحولت المستوطنات العسكرية التي مربنا ذكرها الى مسرح لصدامات دموية متواصلة . وكانت السلطات تقمع هذه الانتفاضات بمنتهى القسوة . وكانت هذه الاضطرابات من الاسباب التي دفعت الحكومة الى تشديد سياستها الرجعية للسيطرة على الوضع فصاغ وزير التعليم اوفاروف «نظرية الشعبية الرسمية» التي كانت تقوم على مبادئ ثلاثة هي : الارثوذكسية والشعبية والحكم المطلق وتعتمد منهاجاً يقضي بـ «زيادة الحدود الفكرية» بين روسيا والحركات المتقدمة في اوربا الغربية . كذلك اصدر نيقولا الاول عددا من القوانين التي تهدف الى «تنقية» طبقة النبلاء من العناصر الاجتماعية غير المرغوب فيها التي تغلغلت في صفوفها والى توسيع ضياع النبلاء ومزارعهم .

ومن الناحية الاخرى فوض نيقولا الاول سبيرانسكي الذي مربنا سابقا وكان قرار ابعاده قد الغي منذ ١٨١٦ ، بتنظيم وترتيب القوانين ، وبالفعل جمعت كل القوانين التي صدرت بعد ١٦٤٩ وطبعت مرتبة حسب الاسبقية الزمنية في خمسة واربعين مجلداً تحت اسم «مجموعة القوانين الكاملة للامبراطورية الروسية» . اما القوانين النافذة فقد صدرت في ١٨٣٣ في مجموعة خاصة اخرى بلغ عدد مجلداتها خمسة عشر مجلدا واطلق عليها اسم «مجموعة قوانين الامبراطورية الروسية» . وقد رفض نيقولا الاول اقتراحاً تقدم به سبيرانسكي يقضي باعادة النظر في القوانين النافذة وتعديلها بما يتفق والظواهر الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في المجتمع الروسي .

وكانت المسالة الفلاحية إعقد المسائل التي جابهها نيقولا الاول في سياسته الداخلية واكثرها حدة فحركة الفلاحين المتسعة باستمرار هي التي اضطرت اصحاب الاراضي والموظفين وعلى رأسهم القيصر الى البحث عن طريقة لحل قضية الارض والقنانة . لقد كتب رئيس الدرك في احد تقاريره الى القيصر يقول : «ان حالة القنانة هي مستودع

بارود تحت الدولة والاخطر من ذلك ان الجيش يتألف من الفلاحين ايضا . وكان ذلك في الواقع هو الدافع الكامن وراء محاولات حكومة نيقولا الاول لايجاد طريقة لحل مسألة الفلاحية حلا هادئا وتدريجيا يخلو من الخطر ويقبل به الملاكون . ولهذا خصصت احدى شعب مكتب الامبراطور وهي الشعبة الخامسة للاشراف على شؤون ادارة فلاحي الدولة كما تعاقبت في عهد نيقولا الاول مايقرب من عشر لجان شكلت خصيصا للنظر في قضية الفلاحين . وقد برز في هذا المجال كبير مرافقي نيقولا الاول بافل دمتريفتش كيسيليوف وهو ملاك عرف بنظراته الاصلاحية الليبرالية ارتبط بأسمه اكبر مشروع يخص شؤون الفلاحين في عهد نيقولا الاول ونعني به اصلاح احوال فلاحي الدولة الذي نفذ في الفترة من ١٨٣٧ الى ١٨٤١ حيث أنشئت وزارة خاصة لممتلكات الدولة عين كيسيليوف نفسه وزيرا لها ومنح فلاحو الدولة الادارة الذاتية وانيط الحكم في القضايا الصغيرة بقضاة ينتخبهم الفلاحون بأنفسهم واتخذت الاجراءات لحماية اراضي فلاحي الدولة من النهب ولمنع تحويل الفلاحين الى صنف المستوطنين في المستوطنات العسكرية . وكان جهاز الوزارة المذكورة يسيطر بشكل تفصيلي ومباشر على مؤسسات الادارة الذاتية للفلاحين ومحاكمهم وعلى جميع نواحي حياتهم اليومية .

اما عن اقنان الملاكين فقد صدر بشأنهم في ١٨٤٢ «قانون الفلاحين ذوي الالتزامات» الذي منح الملاكين الحق في تحرير فلاحيهم الاقنان مع الاحتفاظ بالارض كلها لانفسهم على ان يتركوا للفلاح قطعة منها يستغلها مقابل التزامات معينة يؤديها على شكل سخرة او ضريبة . ولم يحدد القانون المذكور لامساحة قطعة الارض التي يأخذها الفلاح ولا حجم الالتزامات التي يأخذها على عاتقه . وواضح ان هذا القانون الذي كان الاجراء الوحيد الذي اتخذ بحق اقنان الملاكين في عهد نيقولا الاول يؤلف خطوة الى الوراء بالمقارنة مع «قانون المزارعين الاحرار» الذي مربنا سابقا فقد حرر ذلك القانون الفلاح من الارتباط بالملاك في حين عزز قانون ١٨٤٢ هذا الاتباط ورسخه لاجل غير محدود .

وهكذا لم تسفر سياسة نيقولا الاول بشأن الفلاحين الا عن نتائج متواضعة وذلك لان رجال الدولة كانوا يعتبرون التعرض للمسألة الفلاحية امرا في غاية الخطر على النظام القائم مهتدين بذلك بتصريح القيصر في مجلس الدولة حين قال «ان نظام القنانة عندنا في وضعه الحالي هو شر يراه ويحسه الجميع ولكن التعرض له الان امر اكثر وبالا» .

وقد اهتم نيقولا الاول بالكنيسة الأرثوذكسيه وكانت الدعوة للمذهب الأرثوذكسي والتعصب له واحدا من الأركان الأساسية لحكمه وقد اصدر العديد من القوانين منع

فيها التبشير بالاديان والمذاهب الأخرى وفي عهده عادت الكنيسة الوحدوية وهي الكنيسة التي يقر أتباعها بزعامة البابا الدينية ويدعون الى الوحدة مع كنيسة روما فانضمت مجدداً الى الكنيسة الارثوذكسية .

سياسة نيقولا الاول الخارجية

كرست حكومة نيقولا الاول سياستها الخارجية لتحقيق هدفين اساسيين هما مكافحة الحركة الثورية في اوربا والسعي لحل المسألة الشرقية لصالح روسيا . فقد كان نيقولا الاول يرى بالنسبة للهدف الاول ان المهمة الرئيسية لسياسته الخارجية هي المحافظة على التسوية الرجعية التي وضعت في مؤتمر فينا وفي فترة الحلف المقدس ، ولهذا فقد جهد طيلة حكمه في المحافظة على علاقات ودية مع العاهلين النمساوي والبروسي وهما اكبر الحكام الاقطاعيين المستبدين في وسط اوربا وتزعم بالتعاون معهما القوى الاوربية الرجعية وفعل كل ما في وسعه لاخماد الثورات التي اشتعلت في مختلف اقطار اوربا الغربية اثناء فترة حكمه .

اما عن الهدف الثاني فقد سعى نيقولا الاول بدأب وبأستمرار لحل المسألة الشرقية لصالح روسيا وهو امر كان القيصر يعتبره واحدا من اهم اهدافه ان لم يكن اهمها على الاطلاق فقد صرح في احدى المناسبات يقول : «لقد اورثني اخي [الكسندر الاول] قضايا في غاية الاهمية ، اهمها جميعا - المسألة الشرقية» . وقد اخذت المسألة الشرقية بالتفاقم اعتباراً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر حيث كانت الدول الاوربية الكبرى الطامعة في اراضي الدولة العثمانية تسعى كل منها لحل هذه المسألة لمصلحتها واذا ما كان الامر الاساسي في هذه القضية بالنسبة لمنافستي روسيا الرئيستين في الشرق الادنى ونعني بريطانيا وفرنسا هو الحصول على مستعمرات ومناطق نفوذ جديدة والحيلولة دون وصول روسيا الى البحر المتوسط ، فان روسيا توخت في هذه المسألة بالاضافة الى خططها التوسعية على حساب الدولة العثمانية وسعيها لاقتطاع اجزاء من اراضيها وممتلكاتها المطلة على البحر الاسود . وكانت روسيا في صراعها مع الدول الاوربية الاخرى في هذه القضية تمتلك افضليات مهمة على منافسيها تتمثل في كون اغلبية سكان شبه جزيرة البلقان هم من السلاف اقرباء الشعب الروسي الذين تربطهم علاقات قديمة بالدولة الروسية وفي تعاطف الشعوب المسيحية القاطنة في الامبراطورية العثمانية معها

تحقيق اهداف اخرى هي امتلاك منفذ حر من البحر الاسود الى البحر المتوسط

لقد تكونت في بداية حكم نيقولا الاول ظروف مواتية لتحقيق اهداف السياسة الروسية في الشرق الادنى فقد ادت الثورة اليونانية التي قامت في ١٨٢١ ضد السيطرة العثمانية وتدخل كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا في هذه الثورة لصالح اليونانيين الى تأزم العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا الى درجة بحيث اصبحت الحرب بين الدولتين امرا حتمياً ولاسيما بعد ان اشترك الاسطول الروسي مع الاسطولين البريطاني والفرنسي في تحطيم الاسطولين العثماني والمصري في موقعة نافارينو في تشرين الاول ١٨٢٧ .

لكن روسيا لم تكن مؤهلة لخوض مثل هذه الحرب لان قواتها كانت منشغلة بالحرب التي قامت بين روسيا وايران في ١٨٢٦ واستمرت حتى عام ١٨٢٨ . وقد حققت ايران في البداية بعض النجاح في هذه الحرب واستطاعت قواتها ان تتوغل في الاراضي الروسية لكن القوات الروسية لم تلبث ان غيرت الوضع فتمكنت من اخراج القوات الايرانية من الاراضي الروسية والتوغل في اراضي ايران في اقليمي ارمينيا وجنوب اذربيجان واحتلت يرفان التي كانت اقوى قلعة ايرانية فيما وراء القفقاس . وانتهت الحرب اخيراً بعقد معاهدة تركمان جاى في ٢٢ شباط ١٨٢٨ التي استولت روسيا بموجبها على اراضي خانيتي يرفان وناخجيوان واصبح لها الحق في امتلاك اسطول حربي في بحر قزوين .

بمجرد ان انهت روسيا حربها مع ايران توجهت الى الدولة العثمانية واعلنت عليها الحرب بعد شهرين فقط من توقيع معاهدة تركمان جاى وقد انتهت هذه الحرب التي استمرت من ١٨٢٨ الى ١٨٢٩ لصالح روسيا بتوقيع معاهدة «أدريانوبل» «أدرنة» في ١٤ أيلول ١٨٢٩ حيث التزمت الدولة العثمانية ، بموجب هذه المعاهدة بمنح اليونان استقلالاً تاماً وولاكيا وملدافيا وصربيا استقلالا ذاتيا واسعاً . كذلك استولت روسيا بموجبها على ساحل القفقاس الواقع على البحر الاسود فيما بين مصب نهر كوبان وحصن القديس نيقولا الواقع الى الجنوب من بوتي وعلى باشلاقية أخالتيسخ فيما وراء القفقاس واصبح لها الحق في ان ترابط قواتها في ولاكيا وملدافيا الى ان تدفع الدولة العثمانية الغرامة الحربية التي فرضت عليها وتأكد لها مرة أخرى الحق في مرور سفنها التجارية من خلال مضيقي البسفور والدردنيل وقد شمل هذا الحق السفن التجارية للدول الاخرى ايضاً .

شغلت الاحداث الثورية التي وقعت في اوربا الغربية في ١٨٣٠ والانتفاضة البولندية التي سبق ذكرها نيقولا الاول عن الاهتمام بالمسألة الشرقية بعض الوقت ولكنه لم يلبث ان عاد الى هذا الاهتمام بعد أن تم اخماد الانتفاضة في بولندا واعيد نظام الحلف المقدس في اوربا مستغلا بذلك الطلب الذي تقدم به السلطان العثماني لمساعدته ضد والي مصر محمد علي الذي تمرد عليه وارسل قواته فاحتلت بلاد الشام وهددت بالزحف الى

استنبول بعد ان احرزت انتصاراً حاسماً على قوات السلطان التي ارسلت للإطاحة بها
وقد استجاب نيقولا الاول على الفور لطلب السلطان مدفوعاً بالرغبة في عدم السماح
بقيام دولة قوية موحدة في المنطقة تفرض سيطرتها القوية على المضايق والمناطق الاخرى
التي كانت روسيا تطمح بالاستيلاء عليها وهو ماكان محمد علي يسعى اليه ويخطط له
وهكذا نزلت بعض قوات اسطول البحر الاسود الروسي بالقرب من اسطنبول في شباط
١٨٣٣ بموافقة السلطان العثماني فادى ذلك الى اثارة القلق الشديد لدى الدبلوماسيين
البريطانيين والفرنسيين فأخذوا يبذلون جهوداً مكثفة لانهاء النزاع بين السلطان ومحمد
علي وبالفعل جرى الاتفاق على ان يعترف السلطان العثماني بالحاق بلاد الشام بولاية
محمد علي وان يتخلى هذا الأخير عن مواصلة الزحف باتجاه العاصمة العثمانية . وقد
حصل نيقولا الاول على ثمن كبير مقابل اسناده للسلطان فما ان صعدت القوات الروسية
التي تقرر سحبها الى السفن لتعود الى روسيا حتى وقعت روسيا مع الدولة العثمانية في ٨
تموز ١٨٣٣ على معاهدة تحالف مدتها ثمان سنوات عرفت بمعاهدة هنكار اسكله سي
التزمت روسيا بموجبها بأبداء المساعدة العسكرية للدولة العثمانية عند تعرضها للخطر
وتعهدت الدولة العثمانية في مقابل ذلك بان تغلق الدردنيل امام السفن الحربية الاجنبية
عندما تطلب روسيا ذلك . وبهذا تكون المعاهدة قد وسعت لدرجة كبيرة مواقع روسيا في
الشرق الادنى وجعلت حدودها على البحر الاسود بمنأى عن أيّ خطر فكانت بذلك
نجاحاً كبيراً حققته الدبلوماسية الروسية في مجال توسيع النفوذ الروسي في الدولة
العثمانية ، ولهذا فقد جابهتها بريطانيا وفرنسا بعداء ظاهر وشنت الدبلوماسية البريطانية
وعلى رأسها وزير الخارجية البريطاني بالمرستون حملة مركزة ضدها واخذ الانجليز يحوكون
الدسائس المعادية لروسيا في ايران وافغانستان وخانيات اسيا الوسطى ويوسعون من
إسنادهم لثوار القفقاس الجبليين ضد السلطة الروسية . ولهذا لم تجدد المعاهدة عندما
انتهت مدتها في ١٨٤١ بل عقد في هذه السنة مؤتمر دولي في لندن تمخض عن ميثاق
وقعته الدول الخمس وهي روسيا وبريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا . وقد الزم ميثاق
لندن هذا الدولة العثمانية بغلق المضايق امام السفن الحربية لجميع الدول في وقت السلم
ولم يشر الى الاجراء الواجب اتخاذه عند قيام الحرب . وبذلك تكون بريطانيا قد نجحت
في تجريد روسيا من الافضليات المتميزة التي وفرتها لها معاهدة هنكار اسكلة سي
لوحظ في نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر نهوض ثوري جديد في اوربا
وقامت في ١٨٤٨ سلسلة من الثورات في اغلبية الاقطار الاوربية الامر الذي اثار القلق
لدى نيقولا الاول لاسيما وان الثورة التي كانت تتطور بنجاح في هنغاريا (المجر) كانت
ستؤدي في حالة نجاحها الى انهيار الامبراطورية النمساوية والى حدوث انتفاضة جديدة

في بولندا ولهذا فانه بادر الى الاستجابة الفورية لطلب الامبراطور النمساوي فارسل جيشه لقمع الثورة في هنغاريا . وقد تمكن هذا الجيش من اخماد الثورة واعاد لامبراطور النمسا سلطته على هنغاريا . لقد ساعدت القيصرية الروسية بدرجة كبيرة على فشل ثورات ١٨٤٨ وانتصار الرجعية مرة اخرى في اوربا الامر الذي ادى الى ان تقفز المسألة الشرقية مرة اخرى لتحتل مركز الصدارة في العلاقات الدولية اذ لم تلبث الخلافات بين الدول الكبرى في الشرق الادنى ان تفاقمت مجدداً وتحولت في النهاية الى حرب كبيرة عرفت بحرب القروم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) .

قامت حرب القروم بالاساس بسبب الاطماع الروسية في الدولة العثمانية فقد اعتقد نيقولا الاول بعد اخماد ثورات ١٨٤٨ في اوربا بان الوقت قد حان لحل المسألة الشرقية لصالح روسيا فالاوساط الحاكمة في الدول الاوربية ، وهي التي لم تستطع اخماد العاصفة الثورية التي هبت على اوربا في ١٨٤٨ ، الا بصعوبة كبيرة وبمساعدة فعالة من جانبه لن تستطيع في هذه المرة ان تولي ، حسب اعتقاده ، اهتماما كبيراً لشؤون الشرق الادنى ، فقد كان يعتقد بأن المحافظين الانجليز بعد ان اقتنعوا بأهمية روسيا كحصن للنظام وسند للانظمة الرجعية في اوربا سوف يمنعون بريطانيا من الوقوف بوجه روسيا في قضايا الشرق الادنى في حين ستبقى فرنسا لفترة طويلة مشغولة بشؤونها الداخلية وبأعادة ترتيب اوضاعها الداخلية بعد التغيير الثوري الذي حصل فيها عام ١٨٤٨ . اما النمسا التي انقذها التدخل الروسي من الانهيار فانها كانت واقعة تحت تأثيره مما جعله يعتقد بأنها لن تعارض مخططاته بشأن المسألة الشرقية .

لكن تصورات نيقولا هذه لم تكن قائمة على اساس ذلك انه لم يدرك العداء الذي كانت تكنه الاوساط البرجوازية والقوى الديمقراطية في اوربا المؤثرة في الرأي العام وفي الصحافة لروسيا الاقطاعية ولنظام حكمها المستبد . فقد كانت تلك الاوساط ترى في نيقولا الاول واحداً من اقطاب الرجعية الاوربية ولهذا فأنها كانت تسعى لاندحاره . كذلك ظل القيصر فترة طويلة غافلا عن النشاط المعادي لروسيا الذي كان يقوم به الدبلوماسيون البريطانيون والفرنسيون في الدولة العثمانية .

على كل حال طلب نيقولا الاول مدفوعاً بتصوراته السابقة وثقته بقوته ونفوذه في اوربا الوسطى من السلطان العثماني ان يسلمه البولنديين الذين اشتركوا في الثورة الهنغارية والذين التجأوا بعد فشل الثورة الى الدولة العثمانية . لكن السلطان العثماني عمل بنصيحة الدبلوماسيين الانجليز والفرنسيين في اسطنبول ورفض الطلب في الوقت الذي اقترب فيه الاسطول الانجليزي من الشواطئ العثمانية الامر الذي اجبر نيقولا على التخلي عن طلبه ودفعه الى محاولة التوصل مع بريطانيا الى اتفاق حول تقسيم الدولة

العثمانية . وعندما فشلت محاولته هذه قرر العمل منفرداً فاختار النزاع القديم بين الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية حول الاماكن المقدسة في فلسطين وحق حماية السكان المسيحيين في الامبراطورية العثمانية وسيلة ضغط جديدة على السلطان العثماني . ومن هذا المنطلق قدم منشيكوف ، وهو مبعوث فوق العادة ارسله القيصر الروسي الى اسطنبول لتحقيق الاهداف الروسية انذاراً الى الحكومة العثمانية بمنح الكنيسة الارثوذكسية حقوقا استثنائية والاقرار لروسيا بالحق في حماية السكان المسيحيين في كل الدولة العثمانية لكن السلطان العثماني رفض هذا الطلب مدفوعاً بنصيحة السفيرين البريطاني والفرنسي ومستندا الى وعدهما بالمساندة . واجاب نيقولا على ذلك بأحتلال ولاكيا وملدافيا في تموز ١٨٥٣ ، ورد العثمانيون بالقيام بعمليات هجومية في الدانوب وماوراء القفقاس وعلى ساحل البحر الاسود . ثم لم تلبث الحرب ان اعلنت رسميا وكانت في بدايتها حرباً بين روسيا والدولة العثمانية حيث رجحت كفة الروس منذ البداية فقد تمكنوا بسرعة من ايقاف العمليات الهجومية التي قامت بها القوات العثمانية واحبطوا محاولاتها لاخراجهم من ولاكيا وملدافيا وانتصروا عليها في ضواحي قارص فيما وراء القفقاس كما تمكن الاسطول الروسي في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ من احراق الاسطول العثماني واغراقه في ميناء سينوب الذي استولى عليه الروس وازالوا تحصيناته . عند ذلك ارسلت بريطانيا اسطولها الى البسفور وبعد فشل محاولة للتوسط قامت بها بريطانيا وفرنسا بالاشتراك مع النمسا دخلت عمارتان بحريتان بريطانية وفرنسية الى البحر الاسود تبع ذلك اعلان روسيا الحرب على الدولتين . ثم اشتركت في الحرب ضد روسيا بعد ذلك ايضاً مملكة سردينيا .

لقد خسرت روسيا الحرب بعد ان تمكن الحلفاء في ٨ أيلول ١٨٥٥ من احتلال ميناء سيفاستيبول ، اكبر قاعدة عسكرية روسية في البحر الاسود على الرغم من ان القوات الروسية استطاعت احتلال قارص في جبهة القفقاس .. وكان نيقولا الاول قد مات في ١٨ شباط ١٨٥٥ بعد مرض قصير متأثراً بالفشل الذي منيت به مخططاته وأنتشرت اشاعات تشير الى انه مات منتحراً ، وتولى العرش الروسي بعده ابنه الكسندر الثاني الذي اقتنع بعدم جدوى مواصلة الحرب فوافق في بداية ١٨٥٦ على الشروع بمفاوضات الصلح . وهكذا عقد في باريس مؤتمر دولي لوضع شروط الصلح وقد تمخض المؤتمر عن عقد معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦ .

لقد فقدت روسيا بموجب هذه المعاهدة حقها الاستثنائي في حماية صربيا وولاكيا وملدافيا وانيطت حماية السكان المسيحيين في الدولة العثمانية بجميع الدول الاوربية وقد اعيدت لروسيا سيفاستيبول ولكنها فقدت الجزء الجنوبي الغربي من بسارابيا واعادت

قارص الى الدولة العثمانية . ومع ذلك فان اصعب بنود المعاهدة وانقلها على روسيا كان البند القاضي بأعلان حياد البحر الاسود والزام روسيا بازالة جميع القلاع والتحصينات الروسية القائمة على سواحله ومنعها من ان يكون لها اسطول حربي في هذا البحر الذي اعتبر مفتوحاً امام السفن التجارية العائدة لجميع الدول .

كان من الواضح ان نظام القنانة السائد في روسيا الذي يؤلف سبب تأخرها المزمن بالقياس الى الدول الاوربية الاخرى كان واحداً من الاسباب الاساسية التي ادت الى اندحارها في حرب القرم . لقد كان ذلك واضحاً لدرجة دفعت احد مفكري تلك الفترة الى القول : «كلما امعن التفكير ازداد اقتناعاً بان ذلك [تحرير الفلاحين] هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ روسيا وبأنه اذا لم يحصل ذلك بسرعة فاننا سنضرب ونهان اكثر من مرة» . بل ان الكسندر الثاني نفسه كان يكثر من الحديث عن افضلية ان يجري تحرير الفلاحين الاقنان من قبل الحكومة على ان يجري هذا التحرير بجهود الفلاحين انفسهم . وهكذا اخذت الحكومة القيصرية التي اضعفها الاندحار في حرب القرم واربكتها الانتفاضات الفلاحية المتواصلة تعد لالغاء نظام القنانة في روسيا .

الشعوب غير الروسية في الامبراطورية في النصف الاول من القرن التاسع عشر

دخلت الامبراطورية الروسية في النصف الاول من القرن التاسع عشر العديد من شعوب وقبائل القفقاس وكازاخستان وقد حصل ذلك باشكال مختلفة فالجورجيون اختاروا بأنفسهم التقارب مع روسيا والانضمام اليها مدفوعين الى ذلك بتطاولات التي كانوا يتعرضون لها من جانب ايران والدولة العثمانية . اما اراضي ارمينيا التي كانت موزعة بين الدولة العثمانية وايران فقد استولت عليها روسيا بالقوة كما استولت ايضاً على اراضي اذربيجان الشمالية وداغستان وشمال القفقاس وضمتها الى الامبرطورية الروسية . ومن الناحية الاخرى أخذت القبائل والاورطات الكازاخية بالتقارب مع روسيا والارتباط بها اقتصادياً ابتداء من اوائل القرن الثامن عشر ووقعت تحت نفوذها السياسي بالتدريج . وهكذا دخلت كازاخستان حتى اواسط القرن التاسع عشر كلياً ضمن الامبراطورية الروسية في نفس الوقت الذي اقامت فيه الكثير من الشعوب والقبائل والاتحادات القبلية في اواسط اسيا علاقات تجارية وسياسية مزدهرة مع روسيا .

ومع كل التنوع الذي تمتاز به الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية القائمة لدى شعوب القفقاس وكازاخستان واواسط اسيا والاختلافات اللغوية والاثنوغرافية بينها فان هناك رابطة عامة مشتركة ومصيراً تاريخياً واحداً يوحد هذه الشعوب في كل ثقافي واحد ونعني في ذلك الدين الاسلامي الذي تغلغل عميقاً في نفوس هذه الشعوب ومؤسسات الدولة العربية الاسلامية التي كانوا جميعاً فيما مضى جزءاً منها . ولهذا فان الجورجيين والارمن وهم من الشعوب المسيحية هم وحدهم الذين كانوا يتطلعون الى روسيا المسيحية لمساعدتهم ضد السيطرة التي مارستها عليهم في فترات متعاقبة كل من الدولة العثمانية وايران وقد استغلت روسيا ذلك وباشرت بنشر نفوذها في الشرق عن طريق التجارة والسلاح والتأثير الثقافي لاسيما وان الدولة العثمانية وايران والصين وغيرها من دول الشرق كانت قد بدأت في هذه الفترة بالتدهور والضعف..

وهكذا استغلت روسيا انضمام جورجيا اليها فاتخذتها رأس جسر للتوسع في القفقاس فكان قادة القوات الروسية هناك لايتورعون عن اللجوء الى اية وسيلة ابتداء بالاقناع والرشوة وانتهاء بالقوة والخداع لتوسيع الممتلكات الروسية في تلك المناطق فتمكنوا بعد استيلائهم على داغستان وشمال اذربيجان من اجبار الكثير من الشعوب الصغيرة في المناطق الجبلية من القفقاس على الاعتراف بالسلطة الروسية واحتلوا جانجا في ١٨٠٤ واستولوا على باكو بعد ذلك بسنتين .

لقد كان من نتيجة انضمام القفقاس الى روسيا ان توقفت المنازعات والحروب الداخلية هناك ولم تعد المنطقة ساحة للحروب المتواصلة بين الدولة العثمانية وايران وتوثقت الصلات التجارية بين مختلف مناطق القفقاس وقامت السلطات الروسية ، مدفوعة باعتبارات عسكرية وتجارية ببناء طرق حديثة وشق ممرات في الغابات الجبلية الكثيفة . ولكن شعوب القفقاس من الناحية الاخرى ظلت محرومة من الاستقلال واقامت السلطات الروسية في اراضيها سيطرتها المباشرة وانتهجت تجاهها سياسة استعلائية ولم تفعل شيئاً لتطوير هذه الشعوب وانتشالها من حالة التخلف التي كانت تعاني منها بل كان همها ان تستنزف من الفلاحين مختلف انواع الضرائب والاتاوات والغرامات التي كانت تفرضها عليهم لاتفه الاسباب وتجنيها منهم بأساليب قاسية ولهذا ظلت مناطق القفقاس مسرحاً لانتفاضات عفوية متواصلة كانت تقوم بها شعوب المنطقة ضد الحكم الروسي .

وبعد انضمام جورجيا الى روسيا اتسع نضال الارمن ضد الاضطهاد الفارسي وكان عدد منهم قد انتقل للسكن في روسيا حيث تحول بعضهم الى تجار كبار اخذوا يعملون ، مدفوعين بمصالحهم التجارية ، على ان تنضم ارمينيا الى روسيا لكن السلطات الروسية

مارست في ارمينيا بعد ان استولت على خانيتي يرفان وناخجيوان والاراضي الارمنية الاخرى استغلالا كولنيالياً واسعا وانتهجت سياسة استعلائية .

لقد اثارت السياسة التوسعية والاستعلائية التي مارستها الحكومة الروسية في القفقاس رد فعل عنيفا من جانب جبليي القفقاس الذين كانوا يتميزون بشدة المراس وعدم التعود على الخضوع لاحد فتكتلوا بقيادة زعمائهم الدينيين الذين كان يطلق عليهم اسم «الائمة» واعلنوا الجهاد على السلطة الروسية . وقد اتسع نضالهم لدرجة لم يسبق لها مثيل في عهد احد هؤلاء الائمة وهو شامل الذي تزعم نضال مواطنيه لفترة امتدت ربع قرن (١٨٣٤ - ١٨٥٩) واستطاع ان يؤسس دولة فريدة من نوعها اطلق عليها اسم «الامامة» وكانت عبارة عن دولة مركزية شبه ثيوقراطية اخضع تنظيمها كله لخدمة هدف واحد هو الحرب ضد روسيا . لقد انشأ شامل جيشاً منظماً كبيراً واقام نظاماً صارماً للضبط وجبى الضرائب واسس خزينة موحدة للدولة وحاول ان يجتث الخلافات والمنازعات المحلية وان يحكم بموجب احكام الشريعة الاسلامية . لكن شامل على الرغم من قابلياته المشهودة والانتصارات العديدة التي احرزها على القوات الروسية في صراع طويل استمر ربع قرن لم يستطع تحقيق النصر التام ، فقلة الجبليين وقلة قواتهم العسكرية ومحدودية امكاناتهم بالقياس الى روسيا والخلافات التي اخذت تدب بين صفوفهم حكمت على شامل وانصاره بالفشل ومكنت روسيا في النهاية من الانتصار عليهم واسر زعيمهم شامل عام ١٨٥٩ . ومع ذلك لم تتوقف مقاومة الجبليين نهائياً الا في ١٨٦٤ عندما تم الاستيلاء على شمال غرب القفقاس .

اما كازاخستان فقد كانت توجد فيها ثلاث اورطات اقطاعية اطلق عليها اسماء : الاورطة الصغرى والاورطة الوسطى والاورطة الكبرى بالاضافة الى عدد من القبائل الرعوية المتنقلة . وقد ازدهرت العلاقات التجارية بين روسيا من جهة وكازاخستان وآسيا الوسطى من جهة اخرى ولاسيما في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . والواقع ان اتساع علاقات روسيا التجارية مع آسيا الوسطى كان مقدمة لاستيلائها على كازاخستان ، حيث قضى «نظام القرغيز الغربيين»[1] الذي وضعه سبيرانسكي عام ١٨٢١ على سلطة الخان في الاورطة الصغرى وقسمها الى مناطق ادارية يقف على رأس كل منها سلطان منتخب وقد سهل ذلك عملية اخضاع كازاخيي الاورطة الصغرى للحكومة الروسية التي كانت تقمع معارضة جماهير السكان بمساعدة السلاطين الذين

---

(١) القرغيز او القرغيز الكايساكيون هو الاسم الذي يطلق على الكازاخيين في روسيا في العهد القيصري علماً بان القرغيز شعب آخر موجود في روسيا ايضاً .

نصبتهم هناك وبذلك اخذ النفوذ الروسي بالانتشار بسرعة في سهوب كازاخستان ولاسيما بين ثلاثينات وخمسينات القرن التاسع عشر وبدأت الحكومة الروسية بالاستحواذ على مراعي الكازاخيين بالتدريج . وكان الاستحواذ على الارض ونظام السيطرة الذي اقامته السلطات الروسية هناك السبب الرئيسي لحركات جماهيرية واسعة ضد الحكومة الروسية منها على سبيل المثال الانتفاضات التي قامت في مختلف انحاء كازاخستان في السنوات ١٨٢٤ و ١٨٣٧ ـ ١٨٣٨ و ١٨٣٧ ـ ١٨٤٦ .

وفي هذه الاثناء كانت بريطانيا هي الاخرى تشدد من توسيع نفوذها في افغانستان واواسط آسيا عن طريق شمال غرب الهند وايران الامر الذي ادى الى تفاقم الخلافات بين بريطانيا وروسيا في المنطقة مما دفع الحكومة الروسية الى ارسال حملة الى خيوه في ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ هدفها حماية المصالح الروسية في آسيا الوسطى . وعلى الرغم من الفشل الذي احاق بهذه الحملة واصلت الحكومة الروسية التوسع في تلك المنطقة وظلت ماضية في دفع حدودها الى الجنوب باستمرار حتى اصبحت هذه الحدود في عام ١٨٥٣ في اراضي الاورطة الوسطى . ثم واصلت القوات الروسية التقدم دون ان تجابه مقاومة فأقامت خطاً عسكرياً جديداً يمتد من سيميبالانسك الى استحكامات فيرني التي اقيمت في ١٨٥٤ على نهر الماأتا (مدينة آلما أتا حالياً) وبهذا اصبحت الممتلكات الروسية تحاذي خانيات آسيا الوسطى من ناحية الشمال الامر الذي طرح امام السلطات الروسية مسألة الاستيلاء على قوقند وخيوه وبخارى لكن قيام حرب القرم ثم الاصلاحات التي جرت في ستينات القرن التاسع عشر اعاقت تلك السلطات مؤقتاً عن تنفيذ هذه المخططات .

لقد ظلت آسيا الوسطى وكازاخستان في النصف الاول من القرن التاسع عشر مغزولة عن التطور الاقتصادي والثقافي الجاري في العالم واستمرت تعاني من الحروب والمنازعات الاقطاعية المتواصلة الامر الي أدى الى اهمال العناية بمنشآت الري الضرورية للزراعة هناك علماً بأن الزراعة والرعي كانت الاساس الذي تقوم عليه الحياة الاقتصادية في تلك المناطق . اما التجارة والصناعة الحرفية فلم تكن متطورة الا في المدن الكبرى مثل بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها . وقد شجع الضعف الداخلي الذي كانت تعاني منه خانيات آسيا الوسطى جيرانها على التطاول عليها .فقام الفرس والصينيون خلال القرن الثامن عشر بعدة حملات على آسيا الوسطى استولت الصين بنتيجتها على خانيات تركستان الشرقية .. اما في النصف الاول من القرن التاسع عشر فقد اصبحت هذه الاصقاع مسرحاً للصراع بين روسيا وبريطانيا حيث لم تستطع هذه المنطقة المتأخرة التي انهكتها الحروب الداخلية المتواصلة ان تجد في نفسها القوة على

الخروج من الازمة الاقتصادية والسياسية التي كانت تعاني منها وعلى التصدي للاطماع الاجنبية في وقت سهل فيه اقتراب الحدود الروسية من حدودها الشمالية لروسيا الى جانب العلاقات الاقتصادية القائمة بين الجانبين استيلاء الحكومة الروسية عليها فيما بعد .

اما اكرانيا فقد كانت حتى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر تتالف من مناطق متمايزة ثلاث هي اكرانيا الضفة اليسرى التي كانت اوضاعها ترتبط بشكل وثيق بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية الجارية في روسيا ككل ، واكرانيا الضفة اليمنى التي يهيمن فيها النبلاء اصحاب الاراضي البولنديون والتي ظلت القوانين والانظمة البولندية نافذة فيها حتى منتصف القرن ، واكرانيا الغربية او جورسكيا روس وهو الاسم الذي يطلق على ذلك الجزء من اكرانيا الذي يقع فيما وراء جبال الكربات . وكان هذا الجزء منعزلاً انعزالاً تاماً عن الجزئين الآخرين لانه كان يقع ضمن الامبراطورية النمساوية . ومع ذلك فقد لوحظت في تطور هذه الاجزاء الثلاثة ظواهر متشابهة فقد بدأ النظام الاقطاعي فيها بالضعف والتدهور وخرج الانتاج الزراعي عن حدود الاكتفاء الذاتي واتجه لتلبية طلب السوق واخذت الصناعة بالتطور حتى بلغ عدد المؤسسات الصناعية العاملة في اكرانيا في اواسط القرن التاسع عشر ١٩٥٥ مؤسسة وازداد سكان المدن واتسعت التجارة ، وذلك على الرغم من ان هذه الظواهر كانت تجري في اكرانيا بشكل ابطأ مما هي عليه في المحافظات الوسطى في روسيا . وقد ادى تشديد الاستغلال الواقع على الفلاحين وتجريدهم من الارض في اكرانيا الى اتساع الحركة الجماهيرية وحدوث العديد من الاضطرابات والانتفاضات الكبيرة ولاسيما في اكرانيا الضفة اليمنى لان الاستغلال الواقع على الفلاحين هناك اقترن بالاختلاف القومي والمذهبي بين الفلاحين الاكرانيين الارثوذكس وسادتهم الاقطاعيين البولنديين الكاثوليك . وقد اجبرت الحركات التي قام بها الفلاحون الاقنان في اكرانيا الضفة اليمنى وكذلك الاتجاهات المعارضة السائدة بين النبلاء البولنديين حكومة نيقولا الاول على اتخاذ بعض الاجراءات التي من شأنها التخفيف من وضع الفلاحين والحد من فقدانهم للارض ولكن تلك الاجراءات لم تحقق الهدف المرجو منها لان الاقطاعيين كانوا عند تنفيذها يقلصون من حصة الفلاح من الارض الامر الذي كان مصدرا لانتفاضات فلاحية جديدة . وقد ظهرت في اكرانيا كما هي الحالة في روسيا اتجاهات فكرية ثورية مرتبطة بالحركة الجماهيرية وتألفت في هذه الفترة جمعية سرية كانت تدعو الى التحرر من الحكم المطلق والغاء نظام القنانة واقرار الحريات . وكان الشاعر الاكراني المشهور تاراس جريجوريفتش شيفتشنكو (١٨١٤ - ١٨٦١) ، وكان قنا في الاصل ثم اعتق ، قريباً من

هذه الجمعية لكن السلطات لم تلبث ان اكتشفت هذه الجمعية ونكلت باتباعها ومن
الشاعر المذكور . ولوحظ في اكرانيا في النصف الاول من القرن التاسع عشر نط
واضح في الثقافة القومية حيث قامت معاهد علمية في كييف وخاركوف ونيزني وظهر بين
النبلاء واساتذة هذه المعاهد وتلاميذها اتجاه واضح لدراسة التاريخ القومي واللغ
الاكرانية والفلكلور الاكراني . ويعتبر الشاعر المذكور شيفتشنكو واضع اسس الادب
الشعبي الاكراني فقد رسخ الاتجاه الواقعي فيه وكان اول من نادى فيه بالنضال ضد
القنانة والحكم المطلق .

لقد اعاق الخراب الذي سببته حرب ١٨١٢ في بيلوروسيا ولتوانيا التطور الاقتصادي
والاجتماعي الذي لوحظ ، في هذين البلدين قبل تلك الحرب فقد كان تأثر هذين
البلدين بالحرب عميقاً لدرجة ظل معها سوء المحصول والمجاعات فيهما ظاهرة مستديمة
لفترة طويلة . كذلك كان التطور الصناعي يجري ببطء شديد فقد ازداد عدد المؤسسات
الصناعية فيهما من ١٤٥ مؤسسة في ١٨١٨ إلى ٢٣٩ مؤسسة في ١٨٢٥ والى ٤٠٤
مؤسسات في ١٨٦١ علماً بأن اغلب هذه المؤسسات كان من النوع الصغير الذي
يستخدم في الانتاج ادوات بدائية . وكان نيقولا الاول يرغب في اضعاف مواقع النبلاء
البولنديين في هذين البلدين فاتخذ فيهما في اربعينات القرن التاسع عشر بعض
الاجراءات الاصلاحية كما انه اراد اضعاف نفوذ الكنيسة البولندية الكاثوليكية فيهما وفي
اكرانيا الضفة اليمنى فاتخذ بعض الاجراءات المناهضة لها مثل تقليص عدد الاديرة
الكاثوليكية ومصادرة ضياع رجال الدين الكاثوليك وغير ذلك من الاجراءات . لقد
بذلت حكومة نيقولا الاول جهداً مكثفاً لترويس لتوانيا وبيلوروسيا بأسرع وقت فكانت
تخنق فيهما على الفور أية بادرة قومية وتعمل على محو كل الخصائص القومية فيهما محواً
كاملاً حتى ان نيقولا الاول اصدر في ١٨٤٠ مرسوماً منع فيه استخدام اسمي
«بيلوروسيا» و «لتوانيا» .

اما محافظات البلطيق ايسلاند وليفلاند وكورلاند فقد اخذت بالتطور السريع اعتباراً
من نهاية القرن الثامن عشر ذلك ان هذه المحافظات هي محافظات حدودية تقع على
البحر الامر الذي سهل لها تصدير منتجاتها الى الخارج كما ان حرب ١٨١٢ لم تؤثر الا
على محافظة كورلاند والجزء الجنوبي من محافظة ليفلاند . لكن التطور الاقتصادي ادى
الى تشديد استغلال الملاك للفلاحين فكان ذلك الى جانب الصراع التاريخي بين الملاك
الالمان احفاد الفرسان الالمان الذين استولوا بقوة السلاح على اراضي البلطيق في القرنين
الثاني عشر والثالث عشر وبين الفلاحين الاستونيين واللاتيفيين سكان المنطقة الذين
استعبدهم اولئك الاجانب القادمون من الخارج والذين كانوا يتوقون الى التحرر من هذا

الاستعباد والى التخلص من السلطة الروسية التي تسنده . سبباً ادى الى اتساع الانتفاضات الجماهيرية في المنطقة مما دفع حكومة الكسندر الاول الى محاولة حل المسألة الزراعية وتحسين احوال الفلاحين في هذه المنطقة فأصدرت لهذه المحافظات في ١٨١٦ ـ ١٨١٩ عدداً من القوانين الزراعية تحرر الفلاحون بموجبها من الناحية الشخصية واعتبرت الارض كلها ملكاً للملاك اما الفلاح فيمكنه استئجار الارض من الملاك . لكن ذلك ادى من الناحية العملية الى زيادة احوال الفلاحين سوءاً حيث اصبحوا تحت رحمة مالكي الارض الالمان وتحولوا الى اجراء زراعيين لديهم لذلك فقد «اصبح الجوع ضيفاً دائماً في بيوت الاستونيين واللاتيفيين» على حد تعبير احد المؤرخين الامر الذي زاد من سعة الحركة الفلاحية ولاسيما منذ بداية اربعينات القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من ان حكومة نيقولا الاول جابهت الحركة باجراءات قمع شديدة الا انها اضطرت في النهاية الى اصدار قوانين جديدة لليفلاند تقلصت السخرة بنتيجتها الى اربعة ايام في الاسبوع والزمت الملاك بأعطاء الفلاحين جزءاً من الارض مقابل تعويض ، وانشأت الحكومة مصرفاً خاصاً لاقراض الفلاحين لتمكينهم من دفع قيمة التعويض . وفي ١٨٥٦ عمم الكسندر الثاني هذه القوانين على محافظة ايسلاند ايضاً .

العلم والثقافة في النصف الاول من القرن التاسع عشر

أدت زيادة السكان في المدن والتطور الذي شهدته الصناعة والتجارة واتساع وتعقيد جهاز الادارة الى توسيع شبكة المعاهد الدراسية فأنشئت بالإضافة الى جامعة موسكو التي كانت الجامعة الوحيدة في روسيا جامعات اخرى في كل من بطرسبورغ وقازان وخاركوف ودربت (تارتو) وفيلنا (استبدلت هذه الاخيرة فيما بعد بجامعة كييف) . وانتحت مدارس ثانوية جديدة ووجه اهتمام للتعليم العسكري والصناعي العالي حيث انشئت معاهد عليا لاعداد كوادر من المختصين المؤهلين في مجال النقل والبناء والهندسة والزراعة وقد بلغ عدد الطلبة في اواسط القرن التاسع عشر ٤٥٠٠ طالب في المعاهد العالية واكثر من ١٢٠ الف طالب في المدارس المتوسطة والابتدائية . وعلى الرغم من ان هذه الارقام كانت متواضعة جداً بالقياس الى سكان روسيا فأنها تؤلف بالتأكيد تقدماً ملحوظاً بالمقارنة مع ماكانت عليه الحال في القرن الثامن عشر . ولابد ان نلاحظ بأن العلم لم يكن آنذاك يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الروسي ذلك ان النبلاء كانوا يعتبرون دراسة العلوم ولاسيما الطبيعية منها عملاً غير ملائم بل وذميماً لايجدر بهم ممارسته كما انهم كانوا يعدون العلماء اناساً مسالمين غريبي الاطوار «لاينتمون الى هذا

اسم «رازنوتشينتسي»[1] واولاد صغار رجال الدين وكانت نسبة هؤلاء الاخيرين كبيرة بين العلماء. وهذا فان ممارسة البحث العلمي اقتصرت بالاساس على من كان يطلق عليهم العلماء ولاسيما في العلوم الطبيعية والطب .

تركز البحث العلمي في هذه الفترة بالدرجة الاولى في الجامعات والجمعيات العلمية كذلك قامت اكاديمية العلوم بدور ملحوظ في هذا المضمار فقد ارتبطت بها الرحلات الكبيرة التي قام بها البحارة والعلماء الروس والتي ترتب عليها الكثير من الاكتشافات المهمة في المحيطين الهادىء والمنجمد وادت الى الحصول على معلومات قيمة في الاتنوغرافيا والتأريخ الطبيعي وكذلك في دراسة الاجزاء الوسطى والشمالية من المحيط الهادي وساحل امريكا الشمالي الغربي والعديد من جزر المحيط الهادي . وتمكن روسيان من القيام في ١٨٠٣ ـ ١٨٠٦ برحلة حول العالم فكانا بذلك اول روسيين يقومان بهذا العمل . وقد قدمت هذه الرحلات والدراسات التي قام بها العلماء الروس اثناءها الكثير من المعلومات القيمة والدقيقة عن جزر المحيط الهادي والاسكا وسخالين والجزء الاسفل من نهر امور وعن جزر المحيط المنجمد وعن شكل ساحله الاسيوي . فقد تأكد نتيجة لهذه الدراسات مثلاً ان سخالين هي جزيرة وليست شبه جزيرة كما كان يعتقد سابقاً . وكانت النجاحات التي حققها علم الجغرافيا في روسيا محفزاً لانشاء الجمعية الجغرافية الروسية في ١٨٤٥ التي اصبحت مركزاً لدراسة اراضي روسيا وبحارها .

وبرز في هذه المرحلة العديد من العلماء الروس في مختلف التخصصات ففي الرياضيات اشتهر العالم لوبا تشيفسكي الذي طرح عدداً من الموضوعات التي تشهد على تمكنه في موضوع الدراسات الفلكية وكان للمرصد الفلكي الذي انشأ في ١٨٣٩ في احدى ضواحي بطرسبورغ اهمية كبيرة في تطور التصورات العلمية في روسيا حول طبيعة الكون . وفي الكيمياء برز العالم زيلين الذي تتلمذ على يديه جيل كامل من الكيميائيين الروس . وفي العلوم الطبيعية والطب اشتهر عالم التشريح الجراح بيروجوف الذي طرح افكاراً مهمة لها قيمة كبيرة بالنسبة لتطور العلوم الطبيعية في روسيا فقد كان يؤكد على التجارب بأعتبارها الوسيلة الرئيسة لمعرفة طبيعة الانسان معرفة علمية ، بالاضافة الى عدد من الاكتشافات قام بها علماء روس في مجال الكهرباء .

---

(١) تسمية كانت تطلق في روسيا في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر على تلك الفئة من السكان المتعلمين اللذين ينحدرون من مختلف الطبقات الاجتماعية من غير طبقة النبلاء .

يكاد التاريخ ان يكون العلم الوحيد الذي سمح النبلاء الروس لانفسهم آنذاك بدراسته والبحث فيه . وقد تميزت هذه الفترة بازدهار وتطور ملحوظين في الدراسات التاريخية وبالاهتمام بمعرفة ماضي روسيا وشعوبها . وكان كارامزين وسولفيوف اكبر المؤرخين الروس في هذه المرحلة فقد جذب الاول اهتمام الشعب الى التاريخ الروسي وجعل التاريخ علماً اجتماعياً يعترف الجميع بأهميته ووضع الثاني نظرية تاريخية جديدة اصبحت اساساً لكتابة التاريخ في روسيا .

لقد صدرت الطبعة الاولى من كتاب كارامزين «تاريخ الدولة الروسية» في عام ١٨١٨ في اثني عشر مجلداً وعلى الرغم من ان عدد النسخ المطبوعة كان ثلاثة الآف نسخة وهو عدد كبير بالنسبة لظروف ذلك الوقت فانها نفدت خلال شهرين فقط مما يشير الى زيادة الاهتمام بالتاريخ القومي . لقد شرح المؤلف في كتابه هذا بلغة سهلة تاريخ روسيا منذ اقدم العصور حتى بداية القرن السابع عشر وكان هذا الكتاب في الواقع خلاصة لجميع ما كتب في تاريخ روسيا في السابق ولهذا فقد تميز بالنزعة المحافظة الامر الذي عرضه للنقد من جانب تقدمي ذلك العصر وفي مقدمتهم الديسمبريون . اما التيار الجديد في كتابة التاريخ فقد مثله سولفيوف الذي قامت نظريته على الاعتراف بالقوانين التي تحدد سير العملية التاريخية والاقرار بتأثير الظروف الطبيعية كالمناخ وطبيعة الارض في تلك العملية . وقد بدأ سولفيوف اعتباراً من ١٨٥١ بأصدار كتابه المشهور «تاريخ روسيا منذ اقدم العصور» فكان يصدر جزءاً منه في كل سنة. وقد بلغ عدد الاجزاء التي اصدرها حتى وفاته في ١٨٧٩ تسعة وعشرين جزءاً اوصل بها تاريخ روسيا الى نهاية القرن الثامن عشر فكانت سفراً تاريخياً لم يفقد اهميته حتى الوقت الحاضر .

اما عن الأدب فقد تعاقبت على الهيمنة عليه في النصف الاول من القرن التاسع عشر عدة اتجاهات ادبية . ففي بداية القرن كانت الكلاسيكية والعاطفية ذات تأثير ملحوظ فيه وكان من ابرز ممثلي الكلاسيكية آنذاك الشاعر الكبير درجافين اكبر شاعر روسي في القرن الثامن عشر وكان آنذاك يعيش ايامه الاخيرة . لكن هذا الاتجاه لم يعد يستوعب متطلبات المجتمع المتغير في وقت اخذت فيه المؤلفات العاطفية تفقد قراءها ايضاً حيث اتجه كارامزين الذي مر بنا اعلاه ، وكان اكبر ممثلي الاتجاه العاطفي ، الى التاريخ كما اسلفنا ولم تعد الإغاني والقصص الخيالية والاشعار التي يكتبها زملاؤه من أبناء هذا الاتجاه على حلاوتها المفرطة واثارتها للمشاعر واستدرارها للدموع تؤثر كالسابق في قلوب القراء . لذا فان الخدمة الاساسية التي قدمها العاطفيون ولاسيما كارامزين هي تحديث وتبسيط اللغة الادبية الروسية . ومن هذا المنطلق يعتبر كارامزين واضع اسس اللغة الروسية الادبية الحديثة .

لقد حلت الرومانتيكية محل الكلاسيكية والعاطفية في الأدب الروسي ولكن ذلك لم
يستمر سوى فترة قصيرة اذ سرعان مابدت الرومانتيكية عاجزة هي الاخرى عن ارضاء
جمهرة القراء الذين اخذت «الاهوال» و «الملابسات» العاطفية التي يتميز بها الانتاج
الادبي الرومانتيكي تبدو لهم كاذبة ومختلقة ولهذا لم تلبث الرومانتيكية ان انحسرت تحت
ضغط المواضيع الروسية ذات المحتوى القومي التي اخذت تتغلغل بشكل متزايد في
الشعر والنثر مما كان يتطلب اتجاهاً ادبياً جديداً للتعبير عنها . ومن هنا جاء انتصار
الواقعية في الادب الروسي . وهكذا تطور في انتاج بوشكين وليرمنتوف وجوجول واخذ
بالرسوخ الاتجاه الواقعي الذي تلقفه وطوره فيما بعد كتاب «مدرسة جوجول» . لقد
رسخ بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) وجوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) الواقعية في الادب
الروسي في نفس الوقت الذي رسخها فيه بلزاك في فرنسا وديكنز في بريطانيا . وكان
الاثنان قد قطعا على الرغم من قصر عمريهما طريقاً طويلاً ومعقداً في تطور موهبتهما
الادبية ، فبوشكين بدأ كلاسيكياً ثم انتقل بسرعة الى الرومانتيكية ليصبح بعدها وبحق
مؤسس الواقعية في الادب الروسي . لقد تأثر ببوشكين كل من ليرمنتوف وتورجينيف
وجونتشاروف وتولستوي كما أغنى انتاجه فروع الثقافة الاخرى كالموسيقى والرسم
والمسرح فقد تحول الكثير من اعماله الى موضوعات لاوبرات وباليهات ومسرحيات
وصور مشهورة .

وكان ليرمنتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) خليفة لبوشكين في الشعر فقد تخلص في وقت مبكر
من الولع بالرومانتيكية مؤكداً لنفسه شخصية شعرية مستقلة تعتمد الاتجاه الواقعي .

اما جوجول فقد فضح في انتاجه الواقعي بشكل لم يسبق له مثيل الواقع الروسي
ومآسي النظام الاجتماعي القائم آنذاك . لقد كانت روايته «النفوس الميتة» في الواقع
تأبينا لعالم الأقطاعيين اصحاب الاقنان . وكان لمؤلفات جوجول اهمية بالغة بالنسبة
لتطور الاتجاهات التقدمية في الادب الروسي ولاتساع الوعي الاجتماعي في روسيا . وفي
حياة جوجول ظهرت «مدرسة جوجول» التي ضمت الكتاب الشباب الذين ازدهر
انتاجهم الادبي ونضج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . لقد كان نكراسوف
ودستويفسكي وتورجينيف وسالتكوف - شيدرين وجونتشاروف واوستروفسكي و
تولستوي من ممثلي هذه المدرسة في العقد الخامس من القرن التاسع عشر . وقد تميز
انتاج اغلبية كتاب هذه المدرسة بالواقعية العميقة في تصوير الحياة في روسيا وبتوجيه
انتقاد القنانة والحكم المطلق فطوروا بذلك الاتجاه الواقعي الذي وضع اسسه بوشكين
وليرمنتوف وجوجول . ومن شخصيات هذا العصر الادبية البارزة الناقد
بيلينسكي الذي ساعدت اعماله بدرجة كبيرة على ترسيخ المحتوى القومي والاتجاه
الواقعي في الادب الروسي .

سار المسرح وكذلك الموسيقي والرسم في اثر الادب وتأثر النشاط الثقافي في هذه المجالات بالاتجاهات والافكار والنماذج التي سادت فيه لان الادب كان في تلك المرحلة في مقدمة فروع الثقافة الروسية الاخرى . وهكذا حلت في البداية المسرحيات والتمثيليات وطريقة التمثيل الرومانتيكية محل الكلاسيكية والعاطفية على خشبة المسرح ولكن عندما وضع الكتاب المسرحيون الروس الواقعيون مؤلفات مسرحية قومية واقعية انتصرت الواقعية على المسرح ايضاً وانشأ شيبكين وكان صديقاً لجوجول مدرسة واقعية في فن التمثيل ورافق ذلك تغلغل الموضوعات القومية والالحان الشعبية في الموسيقي فظهر الموسيقار الكبير ميخائيل ايفانوتش جلينكا (١٨٠٤ - ١٨٥٧) الذي ادى في تاريخ الموسيقى الروسية قفزة كبيرة جعلتها في مصاف موسيقى الشعوب الاوربية الاخرى .

اما عن الرسم فقد ظلت تسيطر عليه لفترة طويلة الكلاسيكية الاكاديمية التي كان مهدها ومصدر قوتها الاكاديمية الامبراطورية للفنون . لقد كان الرسم وثيق الارتباط ببناء القصور والكنائس تغلب على صوره موضوعات إسطورية واخرى مستمدة من العالم القديم . ويعتبر فنيتسيانوف اول فنان روسي كبير وموهوب يتجه بجرأة الى تصوير الحياة الاعتيادية ولاسيما في الارياف ومع ذلك لم تكن صور فنيتسيانوف واقعية تماماً اذ انه كان يزوق الحياة الريفية بشيء من الروح العاطفية .

اما نيودوروف فقد مثلت صوره في الرسم الطريقة التي تناول فيها جوجول الواقع الروسي في الادب . وكان ايفانوف وهو رسام روسي كبير آخر في هذه الفترة من الرسامين الواقعيين ايضاً . وهكذا تكون الواقعية والمحتوى القومي قد انتصرت وترسخت في الرسم الروسي ايضاً حتى اواسط القرن التاسع عشر .

الفكر الاجتماعي في روسيا في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر

سادت الرجعية في روسيا بعد قمع انتفاضة الديسمبريين وبرزت على سطح الحياة الفكرية نظرية مغرقة في رجعيتها عرفت بأسم «نظرية الشعبية الرسمية» التي سبقت الاشارة اليها وسادت الجو الفكري مسحة من التشاؤم . ولم يتخلص المجتمع الروسي من هذا الواقع الا بعد عشر سنوات عندما عادت الاوساط المتقدمة من ابناء الشعب الروسي الى نشاطها الفكري واصبحت قضايا من امثال : الشعب ودور الجماهير في التاريخ وفلسفة التاريخ الروسي واهمية الثقافة الروسية تستقطب اهتمام المفكرين الروس

في ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر وهكذا تكونت في ظروف تنامي الحرك
الشعبية في روسيا والنهوض الثوري في اوربا في بداية ثلاثينات القرن التاسع عش
حلقتان فكريتان ضمتا بالاساس طلبة جامعة موسكو التفت الاولى حول الكسن
ايفانوفتش جيرتسن وتحلقت الثانية حول نيكولاي فلاديميروفتش ستانكيفتش . لقد اه
افراد الحلقة الاولى بالقضايا السياسية والاجتماعية مثل قضية الديسمبريين وتاريخ الثو
الفرنسية وافكار الاشتراكيين الطوباويين وكانوا يناهضون سياسة نيقولا الاول المستب
والتسلط الذي يمارسه الملاكون اصحاب الاقنان على الشعب غير انهم لم يتمكنوا بالر
من ذلك من تأليف جمعية سرية للعمل على تحقيق اهدافهم اذ لم تلبث السلطات
اعتقلتهم في ١٨٣٤ ونفت كلا من جيرتسن وصديقه اجريوف الى الاقاليم . اما الحل
الثانية التي كانت اوسع من سابقتها فقد اهتم افرادها بالمسائل الفلسفية والادبية وع
الجمال وقد حاول قطب الحلقة ستانكيفتش واصدقاؤه بيلينسكي واكساكسوف وباكو
وجرانوفسكي وسامارين ان يضعوا نظرية متكاملة خاصة بهم . ومع ان هؤلاء لم يكو
بعيدين عن الاهتمام بالواقع والقضايا الاجتماعية والاقتصادية الا ان الذي ساد حلقته
هو التفلسف النظري المشوب بالروح المثالية . وقد ظلت هذه الحلقة قائمة الى ان ما
ستانكيفتش فانقسم اعضاء الحلقة بعد وفاته الى فريقين يسمى احدهما «ذوو الا
الغربي» ويضم بيلينسكي وجرانوفسكي ويطلق على الاخر اسم «ذوو الاتجاه السلا
ويضم اكساكوف وسامارين .

كان الدافع لظهور هذين الاتجاهين رسالة نشرها ضابط سابق مثقف اسمه بـ
ياكوفليفتش تشادايف (١٧٩٤ ـ ١٨٥٦) في مجلة تسلكوب التي تصدر في موسكو بعن
«رسالة شفوية» انتقد فيها بشدة ماضي روسيا وحاضرها وابدى شكه وتشاؤمه بـ
مستقبلها كما انتقد السياسة الرجعية التي يمارسها نيقولا الاول و «نظرية الش
الرسمية» مما اثار نقمة السلطات التي بادرت الى اغلاق المجلة ونفي محررها .
تشادايف نفسه فقد اعلن بأنه اصيب بالجنون . وقد اصبحت هذه الرسالة محوراً لنق
حاد في المجتمع حيث انقسم المثقفون بشأنه الى فريقين وقف الاول منهما موقفاً
من تشادايف واعتبره مفترياً على روسيا وعاقاً للشعب الروسي وعدّوا عمله هذا خا
وضاراً . اما الفريق الثاني فقد اتفق افراده مع تشادايف جزئياً وباركوا عمله واتفقوا
في دعوته الى ان تتقارب روسيا مع اوربا الغربية . وقد نشأ من الفريق الاول الا
الذي عرف في روسيا بالاتجاه السلافي الذي يرى اصحابه بان روسيا التي تقف على ر
العالم السلافي لها طريقها الخاص في التطور وهو يختلف عن الطريق الذي سارت
اقطار اوربا الغربية في تطورها . كما نشأ من الفريق الثاني الاتجاه الذي عرف بالا

الغربي الذي كان انصاره يؤمنون بضرورة التقارب بين روسيا والغرب وبان روسيا واوربا الغربية يخضعان في تطورهما التاريخي لقوانين واحدة . وقد كون النقاش بين انصار الاتجاهين المحتوى الاساس للفكر والاجتماعي في روسيا في العقد الخامس من القرن التاسع عشر .

ولابد ان نلاحظ بان افكار الاشتراكيين الطوباويين من امثال سان سيمون وفورييه ورروبرت اوين كانت معروفة في روسيا في هذه الفترة لدرجة ان حلقة من الاشتراكيين تشكلت في اواخر اربعينات القرن التاسع عشر في بطرسبورغ ساهم افرادها في انتقاد الاوضاع السيئة السائدة في المجتمع .

الفصل الرابع

روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الغاء القنانة ونتائجه

روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الغاء القنانة ونتائجه

مقدمات الاصلاح

ادركت الاوساط الحاكمة في روسيا بعد حرب القرم ، ولاحظنا ذلك في الفصل السابق ، ان نظام القنانة كان واحداً من الاسباب الاساسية التي ادت الى الاندحار الذي اصاب روسيا في تلك الحرب ، فقد تجاوز التطور الاقتصادي والاجتماعي في روسيا هذا النظام الذي تحول الى عقبة امام التطور اللاحق . وقد احس بذلك الجميع ومنهم الطبقات الحاكمة وفي مقدمتهم القيصر نفسه ، كما ان حركة الفلاحين الثورية كانت تتسع من عقد لآخر وكانت تهدد بالغاء نظام القنانة عن طريق الثورة وهو امر كانت تخشاه الاوساط الحاكمة .

وهكذا اشارت الحكومة الروسية في البيان الذي اصدرته في ٣١ آذار ١٨٥٦ بمناسبة عقد معاهدة باريس الى ضرورة اجراء اصلاحات ، ثم شكلت في بداية ١٨٥٧ لجنة سرية من كبار الوجهاء مهمتها بحث قضية الغاء القنانة . وقد انهمكت اللجنة في مناقشات طويلة استغرقت وقتا طويلا دون ان تتوصل الى نتيجة محددة . وفي ١ كانون الاول ١٨٥٧ صدر امر قيصري خول المحافظ العام ف . اي . نازيموف بأن يسمح للنبلاء في محافظات فيتبسك وكرودينسك وكوفينسك بأن يشكلوا من بينهم لجاناً مهمتها وضع مشاريع لتحرير الاقنان مع مراعاة الاسس التالية :

١ . تعد اراضي النبلاء جميعها ملكا لهم ولايمتلك الفلاحون الا قطع الارض الصغيرة الملحقة بدورهم مقابل تعويض ، كما انهم يمنحون حق استغلال قطع الاراضي الاخرى دون ملكيتها ومقابل التزامات معينة يحددها القانون .

٢ . تأمين ورود الضرائب والاتاوات من الفلاحين الى خزينة الدولة بانتظام وقد [illegible]
التعليمات التي الحقت بهذا الاموال ان تحرير الاقنان ينبغي ان يجري بالتدريج
خلال مدة طويلة .

٣ . المحافظة على السلطات البوليسية التي كان الملاكون يمارسونها على الفلاحين

لقد نشر هذا الامر في الصحف وعمم على المحافظات كلها وسمح للنبلاء [illegible]
المحافظات بتأليف لجان مماثلة وبالشروط ذاتها ، وغدت اللجنة السرية المرجع الرسمي
المختص بأعداد الاصلاح واصبحت تسمى بعد تشكيل اللجان المذكورة اللجنة الرئيسية
للقضية الفلاحية ، وسمح للصحف بالكتابة عن الاصلاحات ومناقشتها ابتداء [illegible]
ربيع ١٨٥٨ .

وفي هذه الاثناء كانت الحركة الفلاحية آخذة بالتصاعد فقد شملت الاضطرابات
الفلاحية في ١٨٥٨ خمسا وعشرين محافظة في القسم الاوربي من الامبراطورية ، و[illegible]
السنة التالية تحولت الاضطرابات الفلاحية الى حركة واسعة موجهة ضد سوء الاستغلال
الذي كان يمارسه ملتزمو الخمور حيث ثور الفلاحون في لتوانيا وبيلوروسيا اولا ثم
اواسط منطقة الفولغا وفي المحافظات الوسطى بعد ذلك الامتناع عن شرب الفو[illegible]
وكانوا في احيان كثيرة يحطمون دكاكين بيع الخمور ويضربون بائعيها والموظفين المحليين
ضربا مبرحا حتى بلغ عدد حانات الشراب التي حطمت في عشرين محافظة خلال بضع
اسابيع ما يزيد على المائتي حانة . ورافق ذلك مقاومة الاقنان لنقلهم اجباريا الى مناطق
اخرى ، ورفضهم المتزايد للسخرة ، كذلك ازدادت حوادث قتل وضرب الملاكين
ومديري الضياع . وازدادت هذه الحركة اتساعا في عام ١٨٦٠ ايضا حتى بلغ عدد
حوادث الاضطرابات التي قام بها فلاحو الملاكين من ١٨٥٨ الى ١٨٦٠ مايقرب من
ثلثمائة .

لقد كان ذلك عامل ضغط كبير على النبلاء يدفعهم باتجاه التعجيل بإقرار
الاصلاحات لكن لجان النبلاء الخاصة بالاصلاح كانت تسودها خلافات شديدة فا[illegible]
الملاكين كانت تريد تحرير الاقنان من الناحية الشخصية فقط دون السماح لهم بامتلاك
الارض فكانت تقترح تقليص قطع الارض التي تعطى لهم لاستغلالها وفرض التزامات
عالية عليهم مقابل استغلالهم لهذه القطع . ولكن اقلية من الملاكين في تلك اللجان [illegible]
للمحافظات ذات الارض غير السوداء كانت ترى تحرير الاقنان واعطائهم قطعا صغيرة
من الارض ملكا لهم مقابل تعويض مالي عال نسبيا وقد كان دافعهم الى ذلك هو
رغبتهم في تحويل استثماراتهم الى النمط الرأسمالي ولهذا فانهم كانوا يريدون الحصول على

مال كبير عن طريق التعويض الذي سيحصلون عليه من الفلاحين ، غير ان خشية النبلاء من ان يؤدى تجريد الفلاحين من الارض الى انفجار ثوري كبير جعلهم مستعدين للقابم ببعض التنازلات امام مطاليب الفلاحين . وهكذا اتخذ اعضاء اللجنة الرئيسية في نهاية ١٨٥٨ قرارا بتحرير الاقنان مع اعطائهم ارضا بتعويض مناسب .

الغاء القنانـــــة

صادق القيصر على النص النهائي لقانون الغاء القنانة وتحرير الفلاحين في ٣ آذار (١٩ شباط حسب التقويم الذي كان متبعا آنذاك في روسيا) عام ١٨٦١ ووقع في الوقت نفسه ايضا على بيان نشر للشعب حول الغاء القنانة في روسيا .

كان هذا القانون يخص فلاحي الملاكين ، في محافظات روسيا الكبرى واكرانيا وبيلوروسيا ولاتفيا فقط وقد نص على تحرير الاقنان على مراحل وفي خلال مدة طويلة نسبيا . لقد اقر القانون الحرية الشخصية للفلاحين فلم يعد من حق الملاك بيعهم وشراؤهم بل اصبحوا احرارا في حياتهم العائلية واعترف لهم بالحق في عقد الصفقات والاتفاقات التجارية بشكل مستقل وبممارسة النشاط التجاري والصناعي الذي يريدون ، واصبح من حقهم امتلاك الاموال المنقولة وغير المنقولة والتصرف بها ووراثتها حسب القوانين والاعراف المرعية واصبح بأمكانهم الالتحاق بالخدمة والدخول الى المؤسسات التعليمية . وقد كان لذلك كله اهمية بالغة بالنسبة الى تطور روسيا اللاحق على الرغم من القيود والعقبات التي كانت تحد لدرجة لايستهان بها من تمتع الفلاح بهذه الحقوق في التطبيق العملي .

لقد اسند تنظيم العلاقة بين الفلاحين والملاكين الى وسطاء صلح خاصين يجري اختيارهم من بين النبلاء اي الملاكين المحليين وكان هؤلاء الوسطاء خاضعين لاشراف مؤسسات خاصة تتألف من الوسطاء انفسهم ومعهم موظفو الحكومة في المحافظة . اما السلطة الادارية والقضائية التي كان الملاكون يمارسونها على الفلاحين فقد الغيت في نهاية ١٨٦١ حيث تشكلت نواح تضم كل منها عددا من القرى المتجاورة بحيث يتراوح عدد الرجال في كل ناحية ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ رجل ، ويقوم الفلاحون انفسهم بأنتخاب المدير وعمدة القرية وكذلك القاضي وغيرهم من موظفي الناحية . وقد تقرر ان يجري تنظيم العلاقات الاقتصادية بين الفلاحين والملاكين في خلال سنتين كان الملاكون ملزمين خلالها ان يملأوا استمارات خاصة تبين المساحة الحقيقية للارض التي يستغلها الفلاحون في كل ضيعة . وقدرت حصة الفلاح من الارض والالتزامات التي عليه ان يؤديها وفق ما

جاء في قانون ٣ اذار ١٨٦١ وبعد أن تدقق هذه الاستمارات من وسيط الصلح ...
امام اشخاص يفوضهم الفلاحون ثم تعد نافذة اذا لم يعترض عليها هؤلاء ...
اللحظة التي تقر فيها هذه الاستمارات يصبح الفلاحون «ملزمين مؤقتا» لانهم ...
ملزمين بأن يؤدوا للملاكين الالتزامات التي اقرها القانون فهم لايتحررون من ...
الالتزامات ويصبحون فلاحين احرارا يملكون الارض الا بعد ان يوافق الملاك على ...
يوقعوا معه على عقد خاص بالتعويض الواجب عليهم دفعه مقابل الارض المخصصة
لهم . ولذلك فان تحرير الفلاحين بموجب هذا القانون جرى بشكل بطيء جدا فالكثير
من الملاكين لم يكونوا متعجلين في التخلي عن العلاقات التي اعتادوا عليها مع فلاحيهم
ولذلك ظل فلاحو ٣٠٪ من الاستمارات الفلاحية في وضع «الملزمين مؤقتا» حتى بعد
مضي عشر سنوات على اعلان الغاء القنانة .

لقد حصل بموجب قانون ١٨٦١ كل فلاح على بيت وقطعة صغيرة من الارض
ملحقة به وقطعة من الارض لاستغلالها اذا كانت هذه العقارات في حوزته عند اجراء
تفتيش عام ١٨٥٨ . لكن الارض لم تعط للاقنان الذين كانوا يشتغلون خدما في بيوت
النبلاء ولا للفلاحين الاقنان في ساحل القرم الجنوبي حيث كانت توجد الكثير من ضياع
الاسرة القيصرية والنبلاء .

لقد ضيقت المعايير التي وردت في القانون والخاصة بتحديد مساحة الارض
المخصصة للفلاحين بشكل متعمد ولاسيما في مناطق الارض السوداء الامر الذي مكن
الملاكين من تقليص اراضي الفلاحين وزيادة اراضيهم الخاصة كما انهم استغلوا لتحقيق
ذلك بعض نصوص القانون نفسه . وهكذا بلغت نسبة الاراضي التي استقطعت لصالح
الملاكين في جميع انحاء روسيا ١٨٪ من مجموع مساحة الارض التي كانت في حوزة
الفلاحين قبل الاصلاح علما بان هذه النسبة بلغت في كثير من محافظات الارض السوداء
في الوسط والجنوب ما بين ٢٠ و ٤٠٪ .

لقد كان على الفلاحين الملزمين موقتا في ضياع الاوبروك[١] ان يدفعوا للملاك مقابل
البيوت والقطع الملحقة بها والارض التي وضعت تحت تصرفهم مبلغا يعادل متوسط
الاوبروك الذي كانت المنطقة المعنية تؤديه قبل الغاء القنانة اي ان الفلاحين ظلوا

---

(١) الاوبروك ضريبة عينية او نقدية كان الملاك في بعض انحاء روسيا في عهد القنانة يأخذها من الفلاحين الاقنان
مقابل استغلالهم للارض فتسمى الضياع التي تؤخذ فيها هذه الضريبة ضياع الاوبروك ، وفي انحاء اخرى
كان الملاكون يلجأون الى تسخير الفلاحين للعمل في اراضيهم الخاصة اياما معينة في الاسبوع بدلا من فرض
الضريبة عليهم وتسمى الضياع التي يمارس فيها هذا الاسلوب ضياع السخرة .

يدفعون نفس الاوبروك مقابل مقدار اقل من الارض . اما في صنع السخرة فقد كان الفلاح يشتغل لصالح الملاك مقابل قطعة الارض التي يستغلها سبعين يوما في السنة لكن ثلاثة اخماس هذه المدة تقع في الموسم الذي تشتد فيه الاعمال الامر الذي كان يساوي من الناحية العملية السخرة السابقة التي كان مقدارها ثلاثة ايام في الاسبوع .

ولكي يؤمن دفع الفلاحين للضرائب وتنفيذهم للالتزامات المفروضة عليهم تقرر المحافظة على الاستغلال الجماعي للارض واقر مبدأ التكافل فقد كان مجتمع القرية بكليته يتحمل المسؤولية المادية عن كل فرد من افراده .

اما بشأن التعويض عن البيت وقطعة الارض الصغيرة الملحقة به فقد كان بأمكان الفلاح ان يدفع الى الخزينة في اي وقت يشاء مبلغ التعويض الذي يصل الى ستين روبلاً فيتسلم بعد ستة اشهر وثيقة تقر امتلاكه لها . ولكن التعويض عن قطعة الارض التي يستغلها الفلاح للزراعة كان يتطلب موافقة الملاك . وكان هذا التعويض على العموم يفوق سعر الارض في السوق ولا سيما في محافظات الارض غير السوداء ، وكان على الفلاح ان يدفع ما بين ٢٠ الى ٢٥ ٪ من قيمة التعويض في حين تدفع الدولة النسبة المتبقية ويعد ذلك دينا على الفلاح عليه ان يسدده مع فوائده على شكل اقساط سنوية خلال تسع واربعين سنة .

لقد اجبر تنامي الحركة الجماهيرية المناهضة لنظام القنانة الحكومة الروسية على ان تبادر الى الغاء ذلك النظام في المناطق غير الروسية من الامبراطورية ايضا ففي بولندا ولتوانيا وبيلوروسيا اقرت الحكومة تحرير الاقنان بشروط افضل بعض الشيء مما جرى في الاجزاء الاخرى من الامبراطورية وذلك سعيا منها لاضعاف الحركة الفلاحية بعد الثورة البولندية عام ١٨٦٣ ، فقد تقرر ان يطبق مبدأ التعويض ابتداءً من ١٨٦٤ في بيلوروسيا ولتوانيا واكرانيا الضفة اليمنى بشكل اجباري وان لا يعلق على موافقة الملاك ، كما قلص مقدار التعويض بنسبة ٢٠٪ في المتوسط وبالاضافة الى ذلك زيدت بشكل ملحوظ مساحة الارض المخصصة للفلاحين في بيلوروسيا ولتوانيا وخفضت الالتزامات المفروضة عليهم بعض الشيء . اما في بسارابيا فقد عمدت الحكومة الى تحسين احوال الفلاحين الملدانيين الذين كانوا قد حصلوا على حريتهم بموجب قانون ١٨٦١ ولكن بدون الارض التي يزرعونها فقد تقرر ان يكون وضع هؤلاء مساويا للمزارعين المحليين الذين يستأجرون الارض من الاديرة او من الملاكين ، ثم صدر في ١٨٦٨ قانون تسلم بموجبه الفلاحون المستأجرون قطعاً من الارض لكي يستغلوها بشكل دائم مقابل التزامات محددة وبتعويض معلوم . وفي منطقة البلطيق كانت الحكومة الروسية مضطرة لان تهتم بتأزم العلاقات بين البارونات الالمان والفلاحين الاستونيين واللاتيفيين الذين جردوا من

الارض منذ بداية القرن التاسع عشر ولهذا فقد اصدرت من ١٨٦٣ الى ١٨٦٨
من المراسيم تقرر بموجبها ان يدفع الفلاحون ايجارا نقديا للارض بعد ان كانوا يعو
عن قيمة الايجار بالعمل لدى السيد واصبح لهم ايضا الحق في مغادرة ضياع البارونا
كما انشئت في محافظات البلطيق ادارة خاصة للفلاحين على اساس قانون ١٨٦١
الحقبة الواقعة بين ١٨٦٣ و ١٨٦٦ تحرر قسم كبير من الفلاحين الحكوميين وفلا
ضياع العائلة القيصرية في مناطق الفولغا الاوسط ومنطقة الاورال التي تقطنها شعو
غير روسية فقد تسلم فلاحو ضياع العائلة القيصرية بموجب القانون الذي صدر
١٨٦٣ قطعا من الارض بالحجم نفسه الذي اقره قانون ١٨٦١ وتقرر ان يباشروا بدف
التعويض دون ان يعلق ذلك على رغبة المالك . وفي ١٨٦٦ صدر مرسوم آخر اق
يأخذ فلاحو الدولة في المحافظات الداخلية قطع الارض التي كانت بحوزتهم في السا
متى شاؤوا على ان يبادروا الى دفع التعويض عنها . وفي السنة التالية عمم ذلك ع
فلاحي الدولة في لتوانيا وبيلوروسيا واكرانيا الضفة اليمنى . كما تقرر ان يدفع هؤلا
التعويض فورا . اما في القفقاس فقد جرى تحرير الفلاحين بين ١٨٦٤ و ١٨٦٦ ولكن
بشروط ملائمة جدا للملاكين فقد كان الملاك يتقاضى من خزينة الدولة مبلغا يصل الى
خمسين روبلاً عن كل فلاح يحصل على حريته الشخصية الى جانب احتفاضه ، اي
الملاك ، بجزء لايستهان به من الارض فقد قلصت مساحة قطعة الارض المعطاة للفلا
في جورجيا مثلا بمقدار ٣٠٪ يضاف الى ذلك ان الفلاحين الذين جردوا من الارض في
السابق لم يحصلوا على شيء منها بموجب الاصلاح الزاهن . وكان على الفلاحين ان
يدفعوا كالسابق للملاك مقابل استغلال الارض نسبة من المحصول زيدت الى الربع
بالنسبة الى الحقول ومزارع العنب والى الثلث بالنسبة الى الغلة بعد قطفها او حصادها .
كذلك كانت موافقة الملاك ضرورية للمباشرة بالتعويض الذي كانت شروطه ثقيلة ،
فقد كان الفلاحون مثلا ملزمين بأن يدفعوا قيمة التعويض كلها عن البساتين ومزارع
العنب نقدا . اما في ابخازيا وارمينيا واذربيجان فقد جرى الاصلاح الفلاحي في ١٨٧٠
حيث كان على الفلاحين في هذه الاقطار ان يدفعوا قيمة التعويض بأنفسهم وبدون
مساعدة من خزينة الدولة ، وبما انهم لايملكون الاموال اللازمة لذلك فقد ظلوا في تبعية
الملاكين يؤدون لهم التزامات مختلفة مقابل استغلالهم للارض . وهكذا ظل الفلاحون في
القفقاس في وضع الفلاحين «الملزمين مؤقتا» حتى عام ١٩١٢ .

الاصلاحات الادارية والقضائية

اصبح من الضروري بعد الغاء القنانة مواءمة النظام الاداري والسياسي للتغييرات الجديدة التي حصلت في البنية الاجتماعية ولهذا اجريت من ١٨٦٤، سلسلة من الاصلاحات تناولت جوانب مهمة من حياة المجتمع في الريف والمدينة ففي الريف انيطت الشؤون المحلية المتعلقة بالاقتصاد والتعليم الابتدائي والخدمات الطبية والبيطرية وغيرها بمؤسسات منتخبة هي المجالس البلدية في الاقضية والمحافظات. وكانت انتخابات هذه المجالس على مرحلتين وتجرى بشكل يضمن التفوق العددي لممثلي النبلاء اما ممثلو الفلاحين فلم يكن يوجد منهم في هذه المجالس الا افراد معدودون كما انهم كانوا يؤلفون اقلية دائما في الجمعيات الريفية التي تجتمع بشكل غير منتظم ولابد من ملاحظة ان جميع الشؤون التي تتعلق بحاجات الفلاحين الاساسية كان يتولاها النبلاء بالاضافة الى ان المؤسسات الريفية في الاقاليم كانت خاضعة للادارة الحكومية وعلى رأسها المحافظون.

وفي ١٨٧٠ جرى اصلاح لادارة المدن استبدل بموجبه نظامها الاداري، السابق القائم على اسس طبقية بمجالس دوما المدن التي ينتخب اعضاؤها لمدة اربع سنوات. وقد اقتصر حق المشاركة في انتخاب اعضاء هذه المجالس على سكان المدن الذين يدفعون الضرائب المقررة بالنسبة للمدن. وكان نظام الانتخابات الذي جرى اقتباسه من بروسيا يضمن سيطرة كبار اصحاب العقارات والتجار واصحاب المصانع على هذه المجالس الامر الذي ادى بها ان تركز عنايتها على احياء الاغنياء في مركز المدينة وتهمل احياء الفقراء ومناطق المصانع واطراف المدينة. يضاف الى ذلك ان قانون ١٨٧٠ اخضع مؤسسات ادارة المدن المنتخبة لاشراف السلطات الحكومية لان القرارات التي تتخذها مجالس دوما المدن لا تكون نافذة الا بعد أن تصادق عليها الادارة الحكومية.

ومن الناحية الاخرى صدر في ١٨٦٤ نظام قضائي موحد على اساس المساواة امام القانون بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية واصبحت الجلسات القضائية بموجب النظام الجديد تجري بمشاركة الجهات ذات العلاقة وكانت علنية وتنشر وقائعها في الصحافة، كما اصبح من حق المتخاصمين توكيل محامين من ذوي التحصيل القانوني وليسوا موظفين لدى الدولة. ومع ذلك فان النظام القضائي الجديد ظل يعاني من ثغرات مهمة فقد بقي العقاب الجسدي يمارس في المحاكم التي انشئت خصيصا [illegible]حين كما ان اجراءات القمع الادارية كانت مألوفة حتى في حالة الحكم بالبراءة،

بالاضافة الى ان الدعاوي السياسية كانت تنظر بدون محلفين والى ان الجرائم الوظيفية
التي يرتكبها الموظفون اخرجت من دائرة اختصاص المحاكم الاعتيادية .

لقد شمل الاصلاح التعليم ايضا فقد انشئت شبكة من المدارس الابتدائية وأسست
الى جانب المدارس الثانوية القديمة مدارس ثانوية جديدة تركز الاهتمام في مناهجها على
تعليم الرياضيات والعلوم الطبيعية وصدر في ١٨٦٣ نظام خاص لمعاهد التعليم العالي
وأقر الاستقلال النسبي للجامعات ووسع من حقوق اعضاء الهيئات التدريسية فيها
وكان رؤساء الجامعات وعمداء الكليات يتولون مناصبهم بموجبه عن طريق الانتخاب .
وفي ١٨٦٩ افتتحت في موسكو اول مرة في روسيا كلها معاهد عالية للنساء ذات منهاج
تعليمي عام .

وجرى ايضا التخفيف من القيود المفروضة على النشر فقد اعفى النظام الذي صدر
في ١٨٦٥ لهذا الغرض الكتب التي يزيد عدد اوراقها على العشر وبعض المنشورات
الدورية الاخرى من العرض على الرقابة اذا ما قدم اصحابها التماسا خاصا بذلك ،
واصبح الناشر الذي يخالف قواعد الرقابة اول مرة ينذر وعند تكرار المخالفة يوقف
المنشور مدة ستة اشهر اما اذا تكررت المخالفة مرة ثالثة فيوقف المنشور عن الصدور .

وفي ١٨٦٧ و ١٨٦٩ صدرت مراسيم عالجت أوضاع رجال الدين حيث ألغت وراثة
المناصب الدينية أو منحها للأقارب وقلصت عدد الأبرشيات عن طريق دمجها ببعضها
وحددت بدقة أعداد القسس والأساقفة وغيرهم من المراتب الدينيه المختلفة .

ومن الناحية الاخرى جرى في الستينات تغيير بعض انظمة وقواعد الخدمة العسكرية
حيث قلصت مدة الخدمة والغي العقاب الجسدي واعيد النظر ببعض الانظمة
العسكرية .. الخ . وفي ١٨٧٤ صدر قانون التجنيد الالزامي الذي فرض الخدمة
العسكرية الالزامية لمدة تتراوح بين ٦ و٧ سنوات على من يبلغ العشرين من العمر
جميعهم ومع ذلك فان هيئات الجيش القيادية ظلت كالسابق تتألف بالاساس من النبلاء
الامر الذي كان يشيع التباعد وفقدان الثقة بين القيادة وجمهرة الجنود .

الحركة الثورية في مرحلة الاصلاحات

لم يقنع الغاء القنانة بالشكل الذي جرى فيه جماهير الفلاحين الروس الذين كانوا
يطالبون بالتحرر الفوري والكامل من سلطة الملاكين ولهذا فقد اتسعت الاضطرابات
الفلاحية بعد صدور قانون ١٨٦١ حتى شملت من صدور القانون حتى نهاية السنة وهي

فترة تستغرق حوالي عشرة اشهر ١١٧٦ قرية اضطرت السلطات في ٤٩٩ حالة منها الى ارسال قوات الجيش لقمعها .

والواقع ان المساوئ التي انطوت عليها الاصلاحات والتي اشرنا الى بعضها كانت كثيرة بحيث وقف ضد هذه الاصلاحات حتى بعض النبلاء من ذوي النزعة الليبرالية . لقد اعترف مؤتمر وسطاء الصلح في محافظة تفير مثلا في كانون الاول ١٨٦١ «بان قانون ١٩ شباط لم يضمن مطاليب الشعب» وطالب بان يكون التعويض عن الارض التي تعطى للفلاح الزامياً بمعنى انه لا ينبغي ان يعلق على ارادة المالك . وفي شباط ١٨٦٢ طرحت المطلب نفسه جمعية النبلاء في محافظة تفير وطالبت ايضا بأستقلال القضاء واشاعة العلنية في جميع فروع الادارة وتنظيم النظام المالي بحيث يعتمد من الآن «على الشعب وليس على التعسف» ودعت الى الغاء امتيازات النبلاء الطبقية وأشارت الى ان الحكومة ليست مؤهلة للقيام بمثل هذه الاصلاحات لذلك فانها تطالب بدعوة جمعية منتخبة تمثل عموم روسيا . واعلن وسطاء الصلح في تفير من جانبهم بانهم من الان لن يلتزموا في عملهم بقانون ١٩ شباط (٣ آذار) وانما بقرارات لجمعية النبلاء وقد ردت الحكومة على ذلك بأعتقال ثلاثة عشر من هؤلاء الوسطاء وقدمتهم الى المحاكمة فحكم على كل منهم بالسجن مدة تزيد على السنتين .

وفي الوقت نفسه تعرضت الاصلاحات الى حملة انتقاد عنيفة من جانب العناصر الديمقراطية الثورية في روسيا فقد انبرى هؤلاء وعلى رأسهم تشرنشيفسكي واجريوف وجيرتسن الى فضح محدودية الاصلاح وضآلته في مقالات نشروها في مجلتي «المعاصر» و «الناقوس» فقد نشر أجريوف مثلا في مجلة «الناقوس» مقالا بعنوان «ماذا يحتاج الشعب ؟» خلص منه الى القول ان بالشعب «حاجة الى الارض والحرية» . وقد اصبحت هذه العبارة شعارا تطورت الحركة الثورية في روسيا في ظله ابتداءً من ستينات القرن التاسع عشر .

لقد كان كفاح الفلاحين في ١٨٦١ - ١٨٦٣ محفزاً لموجة جديدة من النشاط الثوري في روسيا فلقد نظم الطلاب حركة احتجاج واسعة ضد الاجراءات القمعية التي جابهت بها السلطات حركة الفلاحين حتى ان بطرسبورغ وموسكو شهدتا في ١٨٦١ اول مظاهرات يقوم بها الطلاب في الشوارع في روسيا . كذلك اخذت بالصدور الكثير من المطبوعات السرية كانت تطالب بتحرير الفلاحين تحريرا تاما واعطائهم الارض التي يزرعونها ويمنح الحرية للقوميات المضطهدة في الامبراطورية وباقامة نظام حكم ديمقراطي في روسيا وكان بعضها يدعو الشباب الى تاليف حلقات ثورية ويطرح منهاجا واسعا للنضال ضد نظام الحكم المطلق ويدعو الى اقرار الحريات الديمقراطية بل ودعا بعضها

الى اقامة نظام جمهوري ديمقراطي في روسيا . وفي نهاية ١٨٦١ تألفت جمعية سرية اسما «الارض والحرية» واصبحت مركزاً قيادياً للمنظمات الثورية المختلفة وكان زعيما الفكري تشرنشيفسكي وتألفت قيادتها من انصاره المقربين . وقد انشأت هذه الجمعية فروعا لها في كل من موسكو وقازان وساراتوف وغيرها من المدن لكن السلطات لم تلبث ان اعتقلت تشرنشيفسكي في صيف ١٨٦٢ ثم اتبعته بعدد من الثوريين الآخرين وحكم على تشرنشيفسكي بالاشغال الشاقة ونفى الى سيبريا .

في هذه الاثناء كانت الامور في بولندا تسير باتجاه الثورة فقد استطاعت اللجنة الوطنية المركزية هناك ان تكتل قطاعات واسعة من السكان بهدف الثورة على الحكم الروسي وبدأت الثورة في ٢٣ كانون الثاني ١٨٦٣ بالهجوم على سبعة عشر موقعا عسكريا روسيا في بولندا في وقت واحد لكن قلة عدد الثوار وعدم كفاية السلاح وانعدام القادة المجربين ادى الى فشل خطة الثوار فلم يتمكنوا من السيطرة على اي موقع من المواقع التي هاجموها واضطروا الى الانسحاب الى الغابات حيث شكلوا فصائل مسلحة وتحولت اللجنة المركزية الى حكومة شعبية . وكان الثوار يطالبون بأحياء الدولة البولندية بحدودها التي كانت قائمة في ١٧٧٢ ومعنى ذلك انها ستشمل لتوانيا وبيلوروسيا واكرانيا الضفة اليمنى الامر الذي لم تكن الحكومة الروسية تقبله تحت اي ظرف من ظروف ولهذا فانها بادرت الى اتخاذ اجراءات فعالة تميزت بالقسوة الشديدة لاخماد الثورة فكان ذلك الى جانب اخطاء قادتها الذين علقوا آمالهم على الجهود الدبلوماسية الاجنبية اكثر مما علقوها على نضال الشعب في الداخل من الاسباب الاساسية التي ادت الى اخفاق الثورة .

وكانت الثورة التي قامت في بولندا والانتفاضة التي قامت في لتوانيا وبيلوروسيا ايضا والنهوض الجديد للحركة الفلاحية محفزاً لانتعاش نشاط المنظمات الثورية في روسيا وفي مقدمتها «الارض الحرية» . لكن الحركة الفلاحية لم تلبث ان هدأت واخذت بالانحسار ففي حين وقع من ١٨٦٤ الى ١٨٦٦ مائتان واربعون اضطرابا فلاحيا لم يزد عدد هذه الاضطرابات من ١٨٦٧ الى ١٨٦٩ على مائة وخمسين اضطرابا . ومع ذلك واصلت بعض المنظمات الثورية والحلقات السياسية النشاط ولا سيما بين الطلاب ، ولكن انحسار الحركة الثورية انعكس على المشاركين في هذه المنظمات فبدأوا يبحثون عن اشكال جديدة للنضال ضد القيصرية فأعتقد بعضهم ان اغتيال القيصر يمكن ان يكون محفزاً للحركة الفلاحية فيعجل بذلك التغيير الثوري في روسيا . وهكذا قام احد اعضاء الجمعيات التي تشكلت آنذاك باطلاق النار على القيصر الكسندر الثاني في ٤ نيسان ١٨٦٦ ولكنه اخطأه فكان ذلك ايذانا بحملة قمع عنيفة مارستها السلطات ضد المعارضة . لكن القمع على شدته لم يمنع تطور النضال الثوري في روسيا فشهدت نهاية

الستينات اتساعا في النضال الطلابي ولا سيما في المعاهد الدراسية الكبرى في بطرسبورغ وتألفت في ١٨٦٨ جمعية طلابية وضعت لنفسها منهاجا يقضي بالقيام بانتفاضة عامة في روسيا في ربيع ١٨٧٠ لكن السلطات كشفت عناصر هذه الجمعية في بطرسبورغ وموسكو فاعتقلتهم وتمكن مؤسس الجمعية وقائدها من الهرب الى الخارج .

الاستيلاء على آسيا الوسطى

زادت حاجة روسيا بعد التطورات الاقتصادية التي جرت فيها وجعلتها تسير في طريق التطور الرأسمالي ، الى الاسواق والمواد الخام للصناعة والى اراضي جديدة ينزح اليها الفلاحون الذين افقدتهم تلك التطورات اراضيهم القديمة . وكانت اهمية آسيا الوسطى سوقا لتصريف البضائع الصناعية الروسية قد ازدادت بشكل ملحوظ في ستينات القرن التاسع عشر ولا سيما بعد الانحسار الذي اصاب تجارة روسيا البرية مع الصين التي اغرقت البضائع الانجليزية اسواقها الامر الذي جعل آسيا الوسطى ومعها ايران اهم اسواق بيع المنسوجات التي تصنع في المحافظات الصناعية الوسطى في روسيا . كما ان اهمية تلك المنطقة ازدادت كمصدر لخامات صناعة النسيج الروسية نظرا لتوقف ورود القطن الامريكي الى اوربا بسبب الحرب الاهلية في الولايات المتحدة . فقد اثر انقطاع القطن الامريكي تأثيرا بالغ السوء في صناعة النسيج القطني في روسيا ذلك ان ٩٠٪ من تلك الصناعة كان يعتمد على الخامات الامريكية . وقد استغل تجار آسيا الوسطى الوضع فزادوا من تصدير القطن المنتج هناك الى روسيا واخذوا يبيعونه بأسعار عالية حتى ان كمية القطن التي ترد من آسيا الوسطى الى روسيا ازدادت يومئذ من ١٢٠ - ١٥٠ ألف بود الى ٥٠٠ - ٧٠٠ ألف بود في السنة وهذا الرقم الاخير يؤلف ما يقرب من ٥٠٪ من خامات القطن التي كانت روسيا تستوردها آنذاك .

ولهذا اصبح الاستيلاء على آسيا الوسطى قضية تناقش بشكل واسع على صفحات الجرائد والمجلات الروسية وأخذت المؤسسات الروسية ذات العلاقة تضع الخطط لاحتلال خانيات اسيا الوسطى بقوة السلاح .

لقد كانت آسيا الوسطى في النصف الاول من القرن التاسع عشر تضم خانيات اقطاعية ثلاثا هي بخارى وقوقند وخيوه بالاضافة الى بضع بكويات وعدد من القبائل شبه المستقلة ، وكانت اغلبية السكان تتألف من الاوزبيك والتركمان والتاجيك والكازاخ والقره كلباك يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية . لقد كانت هذه المنطقة متأخرة في تطورها الاقتصادي فالكثير من القبائل تمارس حياة التنقل والزراعة متخلفة ، في حين اقتصرت

الصناعة حتى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر على الصناعة الحرفية بالاضافة
الى استخراج وصهر المعادن على نطاق ضيق جدا ، لذلك فأن اسيا الوسطى كانت
تعتمد فيما تحتاجه من المعادن على ما يجلب من روسيا . وقد برز في كل خانية عدد
المراكز التجارية والحرفية مثل طشقند وبخارى وسمرقند وخيوه وغيرها تميزت من بينها
القرن التاسع عشر طشقند التي كانت مركزا لطرق القوافل ومركزا لتجارة الترانسيت
روسيا . وقد زادت الحروب المتواصلة من تأخر هذه المنطقة وادت الى خرابها الانتصادي
فافضى ذلك كله في النصف الاول من القرن التاسع عشر الى تدهور سياسي جعل
المنطقة محطا لاطماع الدول الاستعمارية وحولها الى واحدة من مناطق التنافس الاستعماري
الحاد بين بريطانيا وروسيا . وبعد الجولة الاولى من الصراع بين هاتين الدولتين في تلك
المنطقة ، ونعني محاولات تغلغلهما فيها في ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وبعد ان انتهت
الحملة التي ارسلتها روسيا آنذاك الى خيوه بالفشل طبقا لما ورد في الفصل السابق
انشغلت الدولتان بخلافاتهما التي اشتدت في تلك الاونة في الشرق الادنى . ولكن
اندحار روسيا في حرب القرم غير الوضع فأرسلت الحكومة الروسية في ١٨٦٤ حملة
عسكرية الى اسيا الوسطى انطلقت من مدينتي فيرني (الما أتا حاليا) واورنبورغ فأحتلت
قوات هذه الحملة طشقند في ١٨٦٥ وضمت الحكومة الروسية الاجزاء التي احتلتها
القوات الروسية من اراضي خانيتي بخارى وقوقند وألفت منهما في ١٨٦٧ محافظة
تركستان ومركزها طشقند . ثم اضطر امير خانية بخارى بعد صدامات عسكرية غير
موفقة مع القوات الروسية ، الى الاقرار بتبعيته لروسيا والى التخلي عن سمرقند والمناطق
التي احتلتها القوات الروسية من ممتلكاته وتعهد بفتح الطريق امام البضائع الروسية الى
بخارى ومنحها امتيازات خاصة . وكذلك فعل خان قوقند .

وبعد التوقيع على اتفاقية ١٨٧٣ بين بريطانيا وروسيا وهي الاتفاقية التي وافقت الحكومة
الروسية بموجبها على ان يكون النفوذ الانكليزي غالبا في افغانستان واعترفت الحكومة
البريطانية فيها بالمقابل بمصالح روسيا «الخاصة» في خيوه شنت القوات الروسية في السنة
ذاتها هجوما كبيرا على خيوه واجبرت قواتها على الاستسلام فوقع خانها معاهدة الاعتراف
بتبعية خيوه لروسيا حيث تخلى لروسيا عن حقه في انتهاج سياسة خارجية مستقلة واعترف
بضم الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر اموداريا (جيحون) الى محافظة تركستان ووافق
على سير السفن الروسية في هذا النهر وعلى اعفاء البضائع الروسية من الضرائب ضمن
حدود خانية خيوه .

ومع ان استيلاء روسيا على اسيا الوسطى ادى الى توقف الحروب الداخلية والى اقامة
علاقات وثيقة بين شعوبها وبقية شعوب الامبراطورية الروسية مما عزز نضالها المشترك

ضد الحكومة القيصرية من اجل التحرر القومي والاجتماعي فان الحكومة الروسية اقامت في اسيا الوسطى نظاما كولينياليا حقق لها السيطرة التامة على مختلف اوجه حياة السكان الذين فرضت عليهم العيش في وضع ادنى ، فقد ركزت كل السلطة بيد المحافظ العام الذي كان يمثل السلطة القيصرية ويتمتع بصلاحيات تامة هناك كذلك استغلت اقطار آسيا الوسطى اسواقا لتصريف البضائع الروسية مما ادى الى انحسار الصناعة المحلية . وجرى التوسع في زراعة الانواع المحسنة من القطن هناك بحيث لم يلبث قطن آسيا الوسطى ان اخذ يسد جزءاً كبيراً من حاجة النسيج القطني الروسية ، وقد جرى ذلك على حساب زراعة المنتجات الغذائية الامر الذي ادى الى ان تتحول المنطقة الى استيراد المواد الغذائية بعد ان كانت تنتجها محلياً .

السياسة الخارجية في مرحلة الاصلاحات

ادت حرب القرم الى خرق التوازن الدولي الذي قام في اوربا بعد مؤتمر فينا فقد اضعفت روسيا فتراجعت مكانتها على المسرح الدولي ، فانددحار روسيا في هذه الحرب كان يعني فقدان وضعها السائد في البلقان كما ان تحييد البحر الاسود وهو مانصت عليه معاهدة باريس جعل جنوب روسيا مكشوفاً لهجوم الاعداء ومنع روسيا من تحقيق سياستها التوسعية التي كانت تهدف الى امتلاك منفذ الى المياه المفتوحة . وهكذا فقد كانت مهمة جورتشاكوف وزير الخارجية الجديد الذي عين في ١٨٥٦ هي الخروج من العزلة التي فرضتها حرب القرم على روسيا ولهذا كان في مقدمة اهدافه الغاء معاهدة باريس واستئناف روسيا لسياستها السابقة في الشرق . ومما يلاحظ على الدبلوماسية الروسية في تلك المرحلة انها ارادت ان تحقق اهدافها بمساعدة فرنسا في خمسينات القرن التاسع عشر وبالاعتماد على بروسيا والنمسا في ستيناته كما انها اخذت تلجأ الى اشكال من العمل واساليب تنسجم مع الظروف الجديدة فلم تعد تقتصر على الوسائل الدبلوماسية وحدها وانما اخذت تتوجه ايضاً الى الرأي العام الروسي والاجنبي بواسطة وسائل الاعلام طلباً للاسناد كما ان الحكومة الروسية بدأت باستبدال المستشارين الاجانب بمستشارين روس واخذت تعني برفع مستوى تأهيل الدبلوماسيين الروس .

اخذت روسيا تتقرب من فرنسا للحصول على مساندتها في التخلص من معاهدة باريس مستغلة لذلك مالوحظ من خلاف بين فرنسا والنمسا ومحاولة فرنسا التقرب بسبب ذلك من روسيا في اثناء مؤتمر باريس وبعده . وعلى هذا الاساس جرى في ١٨٥٧ في شتوتغارت لقاء بين العاهلين الروسي والفرنسي لكن المحادثات بين الاثنين لم تفض

الى نتيجة بسبب اثارة الامبراطور الفرنسي للمسألة البولندية . ومع ذلك فقد ساندت الدولتان الجبل الاسود عندما توترت علاقاتها مع الدولة العثمانية يومئذ وعملتا سوية ضد النمسا وبريطانيا في قضية توحيد امارتي الدانوب في المؤتمر الذي عقد في باريس في آيار ١٨٥٨ والذي افضى بالنتيجة الى التوقيع في آب من تلك السنة على ميثاق بتوحيد ولاكيا وملدافيا ، وقد توحدتا بالفعل وقامت فيهما جمعية وطنية واحدة وحكومة واحدة في ١٨٦٢ واصبحت الدولة الجديدة تسمى رومانيا . ثم ازدادت حاجة نابليون الثالث للتقارب مع روسيا بعد ان اتفق مع رئيس وزراء سردينيا كافور في ١٨٥٨ على مساعدة سردينيا عسكرياً في تحرير ايطاليا من الاحتلال النمساوي مقابل حصول فرنسا على نيس وسافوي فأدى ذلك كله الى ان تعقد في ٣ آذار ١٨٥٩ بين روسيا وفرنسا اتفاقية وعدت روسيا بموجبها بأتخاذ موقف الحياد الودي تجاه فرنسا في حربها المقبلة مع النمسا مقابل موافقة فرنسا على الاتفاق مع روسيا «بشأن التغييرات المقبلة في المعاهدات القائمة» .

وعلى الجانب الآخر اتخذت الحكومة الروسية بعد استئناف علاقاتها مع الدولة العثمانية جملة من الاجراءات لاستعادة مكانتها حامية للمسيحيين القاطنين في الدولة العثمانية وعملت على استعادة نفوذها لدى السلاف فأنشأت في مختلف انحاء روسيا لجاناً سلافية تعمل تحت رعايتها على اسناد المنظمات الكنسية والتنويرية السلافية وعلى مساعدة السلاف الدارسين في روسيا واستغلت هذه اللجان اداة غير رسمية لنشر النفوذ الروسي بين الشعوب السلافية . وفي الوقت نفسه كانت روسيا تسند مساعي صربيا التوسعية ومحاولاتها لانشاء دولة سلافية جنوبية كبرى في البلقان مما ادى الى توتر العلاقات بين روسيا والنمسا التي كانت تناهض النزعات السلافية .

اما في الشرق الاقصى فقد واصلت روسيا توسعها الذي بدأته هناك منذ اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر ففي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ارسل المحافظ العام لسيبريا الشرقية بعثتين لدراسة نهر امور ثم اقيمت في المنطقة مستوطنات روسية مما دعا الى اجراء محادثات مع الصين للحصول على اعترافها بعائدية الضفة اليسرى من نهر امور الى روسيا . وقد شدد الانحدار الذي اصاب روسيا في حرب القرم من اطماعها في الشرق الاقصى للتعويض عن الخسارة التي اصابتها وزاد من نزعاتها التوسعية في وقت كانت الصين تعاني فيه وضعاً صعباً بسبب المعاهدات الجائرة التي فرضتها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة عليها في اثناء حرب الافيون الثانية مما اضطرها الى الاستجابة لرغبات روسيا فأعترفت لها بأخذ الضفة اليسرى من امور بموجب معاهدة ٢٨ ايار ١٨٥٨ ومنطقة اوسوري بموجب معاهدة ٢٤ تشرين الثاني ١٨٦٠ . ومن الناحية الاخرى كانت روسيا قد عقدت في ١٨٥٥ معاهدة مع اليابان احتفظت بموجبها بجزر الكوريل ولكن اليابان

استغلت توتر الوضع الدولي في غرب اوربا وظهور خطر قيام الحرب بين المانيا وفرنسا عام ١٨٧٥ وكذلك الضعف الذي كانت روسيا تعانيه في الشرق الاقصى فدفعتها في ٧ آيار ١٨٧٥ الى التوقيع على معاهدة بطرسبورغ التي انتقلت بموجبها جزر الكوريل الى اليابان مقابل تخليها عن المطالبة بجنوب سخالين . وفي الوقت نفسه كان عدم امتلاك روسيا لاسطول قوي يحمي ممتلكاتها في أمريكا الشمالية (ألاسكا) والبعد الشاسع لهذه الممتلكات عن مركز الأمبراطورية والضعف الذي اصاب القوة الروسية بعد حرب القرم قد دفع الحكومة الروسية الى الاستجابة لاقتراح الولايات المتحدة شراء هذه الممتلكات فوقعت بين الدولتين في ٣٠ آذار ١٨٦٧ معاهدة تم بموجبها بيع هذه الممتلكات الى الولايات المتحدة بمبلغ مقداره ٧,٢٠٠,٠٠٠ دولار ذهبا فكان ذلك اخفاقاً واضحاً لروسيا اضعف مواقعها في المحيط الهادي وساعد بالمقابل على تعزيز مواقع الولايات المتحدة في تلك المنطقة .

وعندما قامت الثورة في بولندا في ١٨٦٣ تباينت مواقف الدول منها ومن روسيا بشكل عام ففي حين وقفت بروسيا الى جانب روسيا وساندتها اتخذت كل من بريطانيا وفرنسا موقفاً مسانداً للثوار وطالبتا روسيا بالاستجابة لمطاليبهم . وفي الوقت الذي لم يفد فيه اسناد بريطانيا وفرنسا الثوار فانه ادى الى برود في العلاقات بين روسيا وهاتين الدولتين والى تقارب بين روسيا وبروسيا . وقد تعزز هذا التقارب عندما اتخذت روسيا موقف الحياد الودي من بروسيا اثناء حرب الاخيرة مع النمسا عام ١٨٦٦ . وعندما قامت حرب السبعين بين بروسيا وفرنسا وقفت روسيا ايضاً موقف الحياد الودي تجاه بروسيا وفي مقابل ذلك ابدى بسمارك استعداده لاسناد روسيا في مساعيها للتخلص من قيود معاهدة باريس . وقد هيأ اندحار فرنسا في حرب السبعين الظروف لالغاء القيود التي فرضتها معاهدة باريس على روسيا فلقد تحطمت قوة فرنسا وهي احدى الدول الرئيسة الموقعة على تلك المعاهدة مما ادى الى فقدانها للنفوذ في الدولة العثمانية ولم تستطع النمسا اسنادها لانها هي ايضاً كانت قد خسرت في الحرب ضد بروسيا عام ١٨٦٦ ولهذا ظلت بريطانيا وحيدة في هذه القضية الامر الذي استغلته الحكومة الروسية فأعلنت في ١٩ تشرين اول ١٨٧٠ بعد ان ايد لها سفيرها في اسطنبول استعداد الدولة العثمانية للتقارب مع روسيا ، بأنها لاتعد نفسها ملزمة ببنود معاهدة باريس التي تحدد حقوق روسيا في البحر الاسود وأبدت استعدادها لان تبدأ مع الدول الاخرى الموقعة على المعاهدة محادثات لاعادة النظر فيها . وقد اثار ذلك استياء بريطانيا والنمسا ـ المجر[1] ، فعقد في

(١) كانت الامبراطورية النمساوية قد تحولت في ١٨٦٧ الى دولة ثنائية اصبحت تعرف بـ «امبراطورية النمسا ـ المجر» .

كانون الثاني ١٨٧١ مؤتمر في لندن تمخض عن الغاء حياد البحر الاسود واقرار مبدأ غلق المضايق امام السفن الحربية مع اعطاء الدولة العثمانية الحق في فتحها وقت السلم امام السفن الحربية العائدة «للدول الصديقة والحليفة» وقد كان ذلك نصراً واضحاً لروسيا

ومن الناحية الاخرى كان بسمارك يسعى آنذاك لان يوجه الى فرنسا ضربة جديدة قبل ان تفيق من الضربة التي اصابتها في حرب السبعين ولهذا فانه كان يسعى للتقارب مع روسيا . ولم ترفض روسيا من جانبها هذا التقارب بسبب تعقد علاقاتها مع بريطانيا نتيجة للخلافات القائمة بينهما في آسيا الوسطى ورغبة منها في الاستفادة من اسناد المانيا في حالة حدوث تعقيدات جديدة في البلقان . وهكذا عقد في ٦ ايار ١٨٧٣ بين روسيا والمانيا ميثاق عسكري التزمت بموجبه كل من الدولتين بان تقدم للاخرى جيشاً تعداده مائتا الف جندي في حالة تعرضها لهجوم من دولة ثالثة . وكان بسمارك يسعى لان تنضم النمسا ـ المجر الى هذا الميثاق لانه كان يريد ابعادها عن بريطانيا ولم تمانع روسيا في ذلك بسبب علاقاتها مع النمسا ـ المجر في البلقان . لكن هذه الاخيرة لم تكن تريد اتفاقية تفقدها حرية العمل في البلقان وتؤدي بها الى القطيعة مع بريطانيا ولهذا اقتصر الميثاق الذي وقعته مع روسيا في ٦ حزيران ١٨٧٣ على التزام الدولتين بالتشاور حول طبيعة العمل الذي سيقومان به في حالة هجوم دولة ثالثة . وقد انضمت المانيا في ٢٣ تشرين اول ١٨٧٣ ، الى هذا الميثاق وبذلك ظهر الحلف الذي عرف بـ «عصبة الاباطرة الثلاثة» . لقد كانت المانيا تأمل في ان يطلق هذا الحلف يدها ضد فرنسا في حين رأت روسيا فيه وسيلة للتفاهم مع النمسا ـ المجر لكن الحلف لم يقض على الخلافات بين هذه الدول ولذلك فانه لم يكن راسخاً وسرعان ماظهرت الخلافات بينها من جديد فعندما اراد بسمارك ضرب فرنسا في عام ١٨٧٥ منعه من ذلك موقف روسيا وبريطانيا المساند لها .

لقد تميزت علاقات روسيا ببريطانيا في هذه المرحلة بصورة عامة بالتوتر بسبب الصراع القائم بين الدولتين في وسط آسيا فقد اثار تقدم روسيا في تلك المنطقة استياءً شديداً لدى الحكومة البريطانية التي عمدت الى شن حملة دعائية مكثفة ضد روسيا والى اتخاذ الاجراءات لعرقلة التقدم الروسي في المنطقة وفي الوقت نفسه دخلت مع روسيا في محادثات ادت في ١٨٧٣ الى التوقيع على اتفاقية اعترفت روسيا بموجبها بوقوع افغانستان خارج منطقة نفوذها وتخلت بريطانيا بالمقابل عن ادعاءاتها بخيوه . وبالرغم من ان هذه الاتفاقية ادت الى تهدئة الخلافات بين الدولتين بعض الوقت الا ان انضمام خانية قوقند الى روسيا ادى الى تفاقم العلاقات الروسية ـ البريطانية مجدداً وقد ظهر ذلك جلياً في اثناء الحرب الانجليزية ـ الافغانية التي قامت عام ١٨٧٨ وكذلك في اثناء ما عرف بـ «الازمة الشرقية» .

بدأت الازمة الشرقية عندما قامت في صيف ١٨٧٥ في الهرسك انتفاضة . تلبث فيها ان امتد الى البوسنة . والهرسك والبوسنة آنذاك اقليمان عثمانيان يقطنهما السلاف ويقعان الى جوار امبراطورية النمسا ـ المجر . لقد ساندت كل من صربيا والجبل الاسود الانتفاضة لانهما كانتا تسعيان لضم المناطق الثائرة اليهما تحقيقاً للوحدة القومية للشعب الصربي التي كانتا تعملان من اجلها ، لكن النمسا ـ المجر كان يهمها اخماد الثورة خشية من ان يمتد تأثيرها الى السلاف الجنوبيين القاطنين في امبراطورية النمسا ـ المجر ، وذلك على العكس من روسيا التي كانت تسند النضال القومي للسلاف لان ذلك من شأنه اضعاف الدولة العثمانية مما يسهل على روسيا تحقيق اطماعها فيها . ولهذا فعندما قامت الانتفاضة اعلنت حكومة النمسا ـ المجر بأنها تعدها مسألة عثمانية داخلية بينما اخذت روسيا تسعى لان يمنح الاقليمان الثائران حكما ذاتياً على امل ان يؤدي ذلك الى تقوية نفوذها فيهما فيتعزز نفوذها في البلقان الواقعة في الطريق الى المضايق . لكن الحكومة الروسية لم تجرؤ على العمل منفردة لكي لاتتكرر تجربة ١٨٥٣ عندما اضطرت روسيا الى مواجهة تجمع من الدول الاوربية ولهذا فانها فضلت العمل في اطار عصبة الاباطرة الثلاثة فأقترح جورتشاكوف في اب ١٨٧٥ العمل المشترك من اجل الحصول على الحكم الذاتي للاقليمين الثائرين فكان ذلك بداية لجهد دبلوماسي مكثف ولمحادثات طويلة ومستمرة بين الدول تواصلت مدة طويلة قامت في خلالها انتفاضة في بلغاريا تمكنت الدولة العثمانية من اخمادها ثم اعلنت صربيا والجبل الاسود الحرب على الدولة العثمانية لكن القوات العثمانية تمكنت من الحاق الهزيمة بالجيش الصربي . وادت هذه التعقيدات مجتمعة الى ان تعلن روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ .

كان النصر في هذه الحرب حليف روسيا فقد تمكنت قواتها من احتلال ادرنة في ٨ كانون الثاني ١٨٧٨ واجبار الدولة العثمانية التي لم يعد لها من القوة مايكفي لصد التقدم الروسي على طلب الصلح فوقعت الهدنة في ٣١ كانون الثاني ١٨٧٨ وبدأت مفاوضات الصلح . ومع ذلك واصلت القوات الروسية تقدمها بأتجاه اسطنبول حتى بعد عقد الهدنة مما اثار قلق بريطانيا والنمسا ـ المجر فأرسلت بريطانيا اسطولها الذي اجتاز الدردنيل ودخل الى بحر مرمرة في ٣ شباط وفي الوقت نفسه هددت الحكومة البريطانية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع روسيا اذا دخلت القوات الروسية الى اسطنبول . عند ذلك توقف زحف القوات الروسية في موضع يقال له سان ستيفانو بالقرب من اسطنبول وفي هذا الموضع وقعت معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية وروسيا في ٣ آذار ١٨٧٨ .

لقد غيرت معاهدة سان ستيفانو الخارطة السياسية للبقان تغييراً كبيراً وجعلت بلغاريا امارة منفصلة عن الدولة العثمانية بالرغم من انها تدفع لها الجزية ووسعت من حدودها

بحيث اصبحت تتاخم بحر ايجة وتقرب من العاصمة العثمانية الامر الذي ادى الى قلق ظاهر لدى بريطانيا لان ذلك من شانه ان يضع اسطنبول تحت التهديد المباشر ويفسح المجال لان يكون لروسيا التي سترسخ نفوذها في بلغاريا منفذاً الى البحر المتوسط . كذلك كانت المعاهدة مثار استياء النمسا - المجر التي لم يرضها ما ورد في المعاهدة بشأن البوسنة والهرسك . وهكذا كانت النمسا تطالب بأعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو في مؤتمر دولي كما بدأت بريطانيا استعدادات عسكرية في وقت تخلت المانيا عن اسناد روسيا التي لم يبق امامها الا الموافقة على مناقشة بنود المعاهدة في مؤتمر دولي . وتمهيداً لذلك دخلت مع بريطانيا في مفاوضات تمخضت عن اتفاقية وقعت في ٣٠ آذار ١٨٧٨ قدمت روسيا فيها تنازلات ملحوظة بالقياس لما تضمنته معاهدة سان ستيفانو . وفي الوقت ذاته ابلغت بريطانيا الدولة العثمانية وعدا بمساعدتها عسكرياً في حالة احتفاظ روسيا بباطوم واردهان وقارص او اي واحد من هذه الاماكن وطلبت في مقابل ذلك اعطاءها قبرص وقد وافق السلطان على ذلك فصارت قبرص لبريطانيا ووقع الميثاق الخاص بذلك في ٤ حزيران ١٨٧٨ .

افتتح المؤتمر في برلين في ١٣ حزيران ١٨٧٨ وانهى اعماله في ١٣ تموز من السنة ذاتها بتوقيع معاهدة برلين التي قسمت المناطق التي تألفت منها بلغاريا بموجب معاهدة سان ستيفانو الى ثلاثة اقسام ، تقوم في القسم الذي يقع الى الشمال من سلسلة جبال البلقان امارة بلغارية تدفع الجزية للدولة العثمانية ، وتنشئ في القسم الذي يقع الى الجنوب من تلك الجبال منطقة حكم ذاتي ضمن الدولة العثمانية اسمها الروميلي الشرقية ويحكمها والي مسيحي . اما الجزء الثالث ويشمل مقدونيا وساحل بحر إيجة فيبقى ضمن الدولة العثمانية . لقد قلصت المعاهدة مدة الاحتلال الروسي لبلغاريا من سنتين كما ورد في معاهدة سان ستيفانو الى تسعة اشهر والزمت القوات العثمانية بمغادرة بلغاريا لكنها تستطيع البقاء على مقربة من حدود الروميلي الشرقية او حتى في داخلها . واعترفت المعاهدة باستقلال الجبل الاسود وصربيا لكنها قلصت من المناطق التي منحت لهما بموجب معاهدة سان ستيفانو كما اعترفت باستقلال رومانيا وعوضتها عن جزء بسارابيا الذي اخذته روسيا بدبروجة والجزر الواقعة في دلتا الدانوب ، ووضعت البوسنة والهرسك تحت ادارة امبراطورية النمسا - المجر وكان على بلغاريا وصربيا والجبل الاسود ان تاخذ على عاتقها جزءاً من الدين العثماني . اما روسيا فقد اقرت لها المعاهدة باستعادة جزء بسارابيا الذي اقتطع منها بموجب معاهدة باريس ١٨٥٦ ، بالاضافة الى قارص واردهان وباطوم . اي ان توقيع الدولة العثمانية لميثاق قبرص الذي اشرنا اليه اعلاه وفقدانها للجزيرة لم يمكنها من الاحتفاظ بهذه الاماكن كما تعهدت لها بذلك بريطانيا .

وهكذا قلصت معاهدة برلين من نتائج انتصار روسيا في الحرب وانفضت الى زيادة نفوذ النمسا - المجر وبريطانيا في البلقان فأدت الى تردي العلاقات الروسية - الانجليزية والى توتر العلاقات بين روسيا والنمسا - المجر ايضاً واظهرت بذلك ضعف «عصبة الاباطرة الثلاثة» الامر الذي مهد الجو للتقارب بين روسيا وفرنسا .

التطورات الاقتصادية بعد الغاء القنانة

كان الغاء القنانة ايذاناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخ روسيا تميزت بانفساح المجال للتعجيل بالتطور الاقتصادي وفق الاسلوب الرأسمالي وما ترتب على ذلك من نتائج طالت كل جوانب الحياة في المجتمع . ومع ذلك فقد ظلت توجد في روسيا حتى بعد اصلاح ١٨٦١ بقايا لايستهان بها لنظام القنانة السابق الامر الذي كان له اثر واضح في مجمل التطور الاقتصادي والاجتماعي في روسيا انذاك . فقد ظلت الملكية الكبيرة للارض سائدة في روسيا حيث كان النبلاء يملكون ، على ما أشار اليه احصاء الارض لسنة ١٨٧٧ ، ثلاثة وسبعين مليون دسياتينا[1] من الارض ويؤلف هذا الرقم مايزيد على ثلاثة ارباع الارض المملوكة ملكاً خاصاً . وكان القسم الاغلب والاجود من هذه الارض ملكاً لمجموعة قليلة العدد من اصحاب المزارع الكبيرة حتى ان ٣٠ مليون دسياتينا كانت تعود لالف فقط من كبار اقطاعيي الارض اما الفلاحون فقد كانت ملكيتهم للارض صغيرة بل معدومة في بعض الاحيان . لقد نهب الفلاحون عند تطبيق قانون الاصلاح واثقل عليهم التعويض الباهض والضرائب الكثيرة وظلوا تابعين للملاكين الذين واصلوا استغلالهم بأشكال وأساليب شبيه بأشكال وأساليب القنانة .

فقد كان على الفلاح ان يشتغل في مزرعة الملاك بادواته البدائية ودوابه المنهكة مقابل الارض التي يستأجرها منه والغلال او النقود التي يستلفها منه . ولم يكن هذا النظام الذي كان يعرف باسم «اترابوتكا»[2] في واقع الامر الا سخرة مقنعة وكان هذا الاسلوب متبعاً في عدد لايستهان به من المحافظات الروسية . ولهذه الاسباب ظل انتاج الفلاحين منخفضاً وتكررت سنوات سوء المحصول والمجاعة وحلت في نهاية السبعينات ازمة

---

(١) الدسياتينا وحدة روسية لقياس مساحة الارض في روسيا القيصرية تعادل ١,٠٩ هكتار .

(٢) اترابوتكا : كلمة روسية لها معنيان احدهما وهو المقصود هنا هو إيفاء الدين بالعمل اي ان المدين يوفي دينه بالعمل لدى الدائن . اما المعنى الثاني فهو الاكمال او الاتقان .

زراعية خانقة اضطرت الفلاحين ، من اجل ان يسددوا ديونهم للملاكين والخزينة الدولة ، الى بيع محصولهم بأسعار زهيدة ، وادت الازمة ايضاً الى اتساع ممارسة الـ «اترابوتكا» والى ان تسوء شروط ايجار الارض بالنسبة للفلاحين .

غير ان ذلك كله لم يوقف التطور الاقتصادي في الزراعة فكثيراً ما كانت شروط الايجار المجحفة والتوسع في ممارسة الـ «اترابوتكا» في الجزء الاكبر من الارض يصاحب انشاء استثمارات «عقلانية» حديثة في الجزء المتبقي منها ، كما ان الكثير من الملاكين انشأوا في ضياعهم معامل للسكر ولتقطير الكحول وادخلوا المكائن الحديثة واستخدموا العمل المأجور . وادت التطورات الاقتصادية في الريف الى ظهور فئة قليلة العدد من الفلاحين الموسرين الى جانب جمهرة الفلاحين الفقراء وكثيراً ما كانت الظروف تضطر هؤلاء الفقراء الى ترك قطع الارض الخاصة بهم او تأجيرها الى اغنياء الفلاحين الذين اطلق عليهم اسم «الكولاك» وكان هؤلاء الفلاحون الموسرون دائبو العمل على زيادة الارض التي في حوزتهم عن طريق شرائها او استئجارها من الملاكين حتى ان نسبة الارض التي كانت في حوزتهم في ثمانينات القرن التاسع عشر بلغت مابين ٣٤ و ٥٠٪ من مجموع مساحة الارض الموجودة تحت تصرف الفلاحين في حين لم يكن فقراء الفلاحين الذين كانوا يؤلفون نصف سكان الريف يمتلكون إلا نسبة تتراوح بين ١٩ و ٣٢٪ من تلك الارض .

لقد ادى التطور الصناعي ونمو المدن الى زيادة الطلب على المنتجات الزراعية كما ساعد بناء السكك الحديد على تعميق التخصص الاقتصادي لمختلف المناطق الامر الذي ساعد بدوره على التوجه نحو الانتاج لغرض البيع وليس للاكتفاء الذاتي وافضى ذلك كله الى زيادة الانتاج الزراعي ولاسيما انتاج المواد الغذائية والمنتجات الزراعية التي تدخل في الصناعة كالقطن والكتان وغيرها .

وازداد بعد الغاء القنانة نزوح السكان الى المناطق الجنوبية اي الى ماكان يعرف بروسيا الجديدة وكذلك الى مناطق السهوب فيما وراء الفولغا ومنطقة الاورال وغيرها . ففي حين ازداد السكان في روسيا الاوربية باجمعها من ١٨٦٣ الى ١٨٩٧ بمقدار ٥٣٪ بلغت نسبة الزيادة في المناطق الجنوبية ٩٢٪ . وقد ادى اتساع هجرة الفلاحين الى المناطق المتاخمة للبحر الاسود ولنهر الدون وما وراء الفولغا وكذلك الظروف الطبيعية الملائمة هناك وقرب تلك المناطق من موانيء البحر الاسود وبحر ازوف وظهور مراكز صناعية وبناء سكك حديد فيها الى اتساع الزراعة اتساعاً كبيراً فكان ذلك الى جانب الازمة الزراعية التي اصابت المحافظات التي تمارس الـ «اترابوتكا» اكثر من غيرها الى انتقال المركز الرئيسي لانتاج الحبوب الى الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت البقايا

الاقطاعية ، بسبب حداثة المنطقة ، اقل تأثيراً مما كانت عليه في مناطق روسيا الاخرى .

وتعد العقود التي اعقبت اصلاح ستينات القرن التاسع عشر مرحلة التصنيع السريع في روسيا فقد اتسع استخدام المكائن وانحسر الانتاج الصغير وتحسنت آلات العمل في فروع الصناعة الاساسية . وقد استفادت روسيا في هذا المجال من حقيقة انها بدأت عملية التصنيع متأخرة عن بقية الاقطار الاوربية المتقدمة فقد مكنها ذلك من الافادة من الخبرة التكنيكية التي احرزتها تلك الاقطار والاشكال التنظيمية للتطور الصناعي التي وصلت اليها . وهكذا نشأت في روسيا المصانع الحديثة واتبعت احدث وسائل التكنيك في مختلف فروع الصناعة بحيث انجز الانقلاب الصناعي الذي كان قد بدأ فيها قبل اصلاح ١٨٦١ في العقدين او الثلاثة التي اعقبته . واصبحت بطرسبورغ وموسكو اهم المراكز الصناعية في روسيا حيث كانت الاولى مركزاً لصناعة المكائن وتركزت في الثانية صناعة النسيج . لكن صناعة التعدين في الاورال التي كانت تقوم قبل الاصلاح على اساس العمل الاجباري للعمال الاقنان عانت في السنوات الاولى التي اعقبت الاصلاح صعوبات كبيرة ذلك ان آلاف العمال هناك تركوا معاملهم وتخلوا عن العمل فيها بعد ان حصلوا على حريتهم ولهذا فان صناعة الاورال لم تعد الى المستوى الذي كانت عليه عام ١٨٦٠ الا بعد الاصلاح بعشر سنوات ، وحتى بعد ذلك ظل تطورها يجري ببطء ظاهر . ولكن منطقة جديدة لصناعة التعدين والصناعات المعدنية اخذت تتطور في الجنوب فقد اوجد خط السكة الحديد الذي بني لربط موسكو بمدينة رستوف على الدون منفذاً لفحم دونيتسك فزاد من الطلب عليه وادى الى بناء مناجم جديدة له . وفي الوقت نفسه قامت في المنطقة الواقعة بين الدونباس وكريفورجيه منطقة جديدة للصناعات المعدنية اصبحت مدينة ايكاترينوسلاف (دنيروبتروفسك حالياً) مركزاً لها واخذت الصناعة في هذه المنطقة تتطور بوتائر اسرع من منطقة الاورال لانها لم تكن تعرف التقاليد الاقطاعية ولانها كانت تتميز بمستوى تكنيكي اعلى .

ومن الناحية الاخرى تطورت الصناعة النفطية على نحو لم يسبق له مثيل فقد كان استخراج النفط قبل الاصلاح محدوداً جداً والطلب عليه قليلاً كما ان اسلوب الالتزام اي اعطاء حق استغلال آبار النفط بالالتزام مدة محدودة وهو اسلوب كان يمارس في منطقة باكو ، كان يعيق التوسع في استخراج النفط ولكن مع الغاء هذا الاسلوب والاستعاضة عنه بتأجير المناطق النفطية تأجيراً طويل الامد عن طريق المزايدة اخذت الصناعة النفطية بالتطور بسرعة فازداد استخراج النفط من ١,٧ مليون بود في ١٨٧٠ الى ٢٤٣ مليون بود في ١٨٩٠ اي انه ازداد بمقدار ١٤٠ مرة خلال عشرين سنة . وقد زاد اختراع الآلات الحديثة التي تشتغل بالنفط ومشتقاته من الطلب على نفط باكو وامن

له الخروج الى السوق العالمي حتى اصبحت روسيا في نهاية القرن التاسع عشر تحتل المركز الاول في العالم في استخراج النفط ، وظلت في هذا المركز بعض الوقت. وشهدت هذه المرحلة توسعاً في بناء السكك الحديد بحيث أصبحت روسيا تمتلك من خطوط السكك في ١٨٩٢ ماطوله ٣١٢٠٠ كم بعد ان كان طول خطوط السكك التي تمتلكها في ١٨٦٠ لايزيد على ١٥٠٠ كم وقد ساعد انتشار السكك الحديد على التطور الصناعي في روسيا لانها ادت الى ربط المناطق الزراعية بالمناطق الصناعية وربط اطراف البلاد بمركزها الامر الذي ساعد على تعميق ظاهرة التخصص الاقتصادي في مناطق البلاد المختلفة وقيام سوق عام لروسيا باجمعها . كما ان السكك الحديد ساعدت على نمو الصناعة الثقيلة نظراً لانها كانت تستهلك كميات كبيرة من الفحم وتتطلب كميات كبيرة من المعادن والكثير من الاجهزة والمعدات الامر الذي زاد من الطلب على هذه المواد ومن ثم ادى الى التوسع في انتاجها .

ومع ذلك فقد صادف التطور الصناعي في روسيا بعض الازمات كما حصل في ١٨٧٣ - ١٨٧٥ وفي ١٨٨٢ - ١٨٨٦ لكن نهوضاً صناعياً كبيراً حل في ١٨٩٢ - ١٨٩٣ . ولابد ان نلاحظ ان الرأسماليين الاجانب توسعوا في استثمار رؤوس اموالهم في روسيا في هذه المرحلة حتى ان الرأسمال الاجنبي المستثمر في روسيا ازداد من ربع مجموع رأس المال المستثمر في الشركات الروسية في ١٨٩٠ الى ٤٠٪ منه في ١٩٠٠ . ولم يمتلك الرأسماليون الاجانب اسهماً في الشركات الصناعية الروسية فقط بل كانوا في كثير من الاحيان يقومون بتأسيس المعامل والمصانع في روسيا بانفسهم . وهكذا استحوذ الرأسماليون الانجليز والفرنسيون والبلجيكيون على مواقع حساسة في التعدين والصناعات المعدنية في الدونباس وكريفوروجيه والمنطقة المتاخمة للدنيبر واحرز الرأسمال الانجليزي مواقع مهمة في الصناعة النفطية في باكو . وقد اسهم الرأسمال الاجنبي بالطبع في التعجيل بوتائر تطور الصناعة الروسية ولكنه ادى من الناحية الاخرى الى استنزاف ثروات روسيا ونقل الكثير من اموالها الى الخارج ارباحاً لاولئك الاجانب . ومع ذلك فقد كان السعي الى جذب رؤوس الاموال الاجنبية للاسهام في تعجيل التطور الاقتصادي في روسيا احد اسس السياسة المالية والاقتصادية التي دعا اليها وانتهجها بحماسة سيرجي يوليفتش فيته وزير المالية من ١٨٩٢ الى ١٩٠٣ لان الحكومة الروسية ادركت بان روسيا لن تستطيع البقاء دولة عظمى ولن تتمكن من الايفاء بمتطلبات الصراع مع الدول الاستعمارية الاخرى دون صناعة ضخمة ودون شبكة متطورة من خطوط السكك الحديد . وقد ادى مايتطلبه ذلك من نفقات بالاضافة الى مايقتضيه الصرف على مرافق الدولة المختلفة الى عجز مصادر الدخل القديمة عن سد تلك

النفقات الامر الذي دفع الحكومة الى زيادة الضرائب غير المباشرة [illegible] بها الى التوسع في الاقتراض من الخارج بحيث زادت ديون روسيا الخارجية من ٥٣٦٪ مليون روبل في ١٨٦١ الى ٣٩٦٦ مليون روبل في ١٩٠٠ . وقد احتلت بيوت المال الفرنسية ابتداء من ثمانينات القرن التاسع عشر مركز الصدارة بين المؤسسات المالية الدائنة لروسيا . والى جانب جذب رؤوس الاموال الاجنبية للاسهام في التطور الاقتصادي في روسيا والاقتراض من الخارج اتخذت الحكومة الروسية في هذه المرحلة جملة من الاجراءات الاخرى بهدف التعجيل بالتطور الاقتصادي منها فرض ضرائب كمركية عالية واجراء اصلاح نقدي ووضع جوائز تشجيعية للتصدير وضمان السكك الحديد التي تملكها شركات خاصة وغير ذلك من الاجراءات .

لقد ادى التطور الصناعي في روسيا الى نمو وزيادة سكانها فقد ازداد سكان بطرسبورغ حتى بلغ عددهم في ١٨٩٧ مايقرب من الميلون والنصف ، وبلغ سكان موسكو أكثر من مليون وتضاعف عدد السكان في سيبريا ولاسيما بعد انشاء سكة حديد سيبريا التي وصلت في ١٨٩٧ الى ارکوتسك ، فقد ساعدت هذه السكة على زيادة تدفق المستوطنين الى سيبريا التي اصبحت تجهز القسم الاوربي من الامبراطورية بالمنتجات الزراعية والحيوانية وتجلب منه المنتجات الصناعية الى جانب تزايد معدلات انتاج الفحم والذهب فيها . لقد ازداد ايضاً سكان اوديسا وكييف وباكو وغيرها من المدن كما اتسعت الكثير من المراكز الصناعية وتحولت الى مدن صناعية كبيرة .

ولابد ان نلاحظ بأن روسيا على الرغم من وتائر التطور الصناعي العالية نسبياً فيها ظلت بعد الاصلاح متأخرة عن بلدان اوربا المتقدمة من حيث حجم الانتاج وكذلك من حيث مقدار الانتاج بالنسبة الى الفرد الواحد من السكان . كما ان التقدم الصناعي افرز في روسيا المساوىء والعلل التي افرزها في الغرب ولكن بشكل اكثر تجسيداً ، كذلك ظلت موارد البلاد الهائلة ولاسيما في سيبريا غير مستغلة استغلالاً كاملاً وكان العمل اليدوي لايزال يستخدم على نطاق واسع نسبياً ، والاقتصاد الروسي ظل طابعه زراعياً وظلت روسيا تستورد المكائن والمعادن والمنتجات الجاهزة وتصدر الغلال والاخشاب والكتان وغير ذلك من المنتجات الزراعية والحيوانية .

التطور الاقتصادي في الاقاليم غير الروسية

شملت التطورات الاقتصادية الاقطار غير الروسية في الامبراطورية ففي بولندا سهل الاصلاح الزراعي الذي جرى اثناء الثورة البولندية ١٨٦٣ - ١٨٦٤ التطور الاقتصادي حيث ابقى للفلاحين الارض التي كانوا يستغلونها في السابق مقابل تعويض هو بشكل عام اقل من التعويض الذي فرض على الفلاحين في روسيا . وكانت الزراعة في بولندا مرتبطة بالسوق ولاسيما بالصناعة التحويلية ولذلك ازداد في المرحلة التي تلت الاصلاح انتاج البطاطا والبنجر المطلوبة لتقطير الكحول وصناعة السكر كما ازداد انتاج الحبوب والمنتجات الحيوانية ذلك ان بولندا احتلت منذ نهاية السبعينات المركز الاول بين اقطار الامبراطورية في استخدام المكائن والالات في الزراعة . كذلك تطورت الصناعة في بولندا فنمت صناعة الغزل والنسيج بحيث تضاعفت قيمة انتاجها تقريباً من ١٨٧٨ الى ١٨٨٤ حيث ازدادت هذه القيمة من ٢١ مليون روبل الى ٤١ مليون روبل فاصبحت تنافس صناعة النسيج القطني في موسكو وكانت هذه المنافسة شديدة الى درجة دفعت الحكومة الروسية الى ان تتخذ تحت ضغط اصحاب مصانع النسيج في موسكو عدداً من الاجراءات للحد من هذه المنافسة . وتحولت وارشو الى مركز صناعي كبير يضم معامل كبيرة لتحويل المعادن وصناعة المكائن والكثير من مشاريع الصناعة الخفيفة الصغيرة والمتوسطة . وكانت بعض المؤسسات الصناعية في بولندا ملكاً للاجانب في حين ان بعضها يمتلكه البولنديون انفسهم .

اما في منطقة البلطيق فقد تطورت الزراعة على غرار المناطق الروسية فأزدادت بشكل ملحوظ الضياع الكبيرة العائدة للبارونات الالمان في حين فقد الفلاحون الارض واصبحوا يستأجرونها من الملاكين بشروط صعبة او يشتغلون عمالاً زراعيين لدى هؤلاء الملاكين او لدى الكولاك . وازدادت استثمارات الكولاك الذين كانوا يشترون الارض من الفلاحين والملاكين الذين كانوا يرحبون ببيع جزء من اراضيهم سعياً منهم لايجاد المال اللازم لانشاء مزارع حديثة لتربية الحيوانات . كذلك اصابت الصناعة في هذه المنطقة تطوراً ملموساً لكن الملاحظ انها كانت تتطور جزءً من الصناعة الروسية وبأرتباط مباشر معها ولاسيما مع منطقة بطرسبورغ الصناعية . وقد حققت الصناعة تطوراً سريعاً في لاتيفيا ولاسيما بعد الغاء نظام الاصناف عام ١٨٧٧ حيث قامت في ريغا وغيرها من المدن مؤسسات لصناعة المعادن وعربات السكك والصناعات الكيمياوية كما اتسعت صناعة النسيج التي كان الرأسمال الاجنبي ولاسيما الالماني يسهم فيها اسهاماً لايستهان

ولابد ان نلاحظ بأن المدن الكبرى في منطقة البلطيق كانت ترتبط بالمناطق الداخلية بشبكة واسعة من السكك الحديد كما انها كانت في الوقت نفسه موانيء لها اهمية كبيرة في تجارة روسيا الخارجية .

وفي اكرانيا تطورت الزراعة بدرجة ملحوظة وكان تطورها اسرع في الجنوب لانه منطقة جديدة اخذت تستوعب اعداداً كبيرة من السكان النازحين اليها من المحافظات الروسية وكذلك من محافظات اكرانيا الاخرى . اما في المجال الصناعي فقد اصبحت اكرانيا قاعدة لاستخراج الفحم والمعادن في روسيا كما بدأت بالنمو فيها صناعة المكائن اضافة الى المستوى العالي الذي وصلته صناعة السكر .

واتسعت صناعة تقطير الكحول في لتوانيا وبيلوروسيا وجرى التطور الاقتصادي هناك على غرار التطور الذي جرى في اكرانيا . واشتهرت ملدافيا وسهوب اكرانيا والمنطقة المتاخمة للقفقاس بزراعة الحبوب الى جانب كونها واحداً من المراكز الاساسية لزراعة الكروم وصناعة الخمور في روسيا .

اما منطقة ماوراء القفقاس فقد اخذت بالتحول تدريجياً الى سوق لتصريف منتجات الصناعة الروسية ومصدراً للخامات التي تحتاجها . وقد ساعد على ذلك انشاء سكة حديد ماوراء القفقاس ولاسيما بعد ربط هذه السكة بشبكة سكك الحديد الروسية في بداية القرن العشرين . وهكذا اتسعت زراعة القطن في ارمينيا واذربيجان ونمت زراعة التبغ في ابخازيا وازداد انتاج الخمور في كاخثي . ولكن الصناعة الحرفية المحلية اخذت بالاضمحلال تحت ضغط منافسة المنتجات الصناعية الرخيصة الواردة من روسيا . وقد استحوذ الرأسماليون الروس والاجانب على اغنى حقول النفط في باكو وشمال القفقاس وعلى خامات النحاس في ارمينيا والمنغنيز في جورجيا . ومع ان مراكز صناعية ظهرت في هذه المنطقة بعد الاصلاح الا ا كانت قليلة العدد ومتفرقة في منطقة تسودها الزراعة المتأخرة .

وعدت الحكومة الروسية آسيا الوسطى راس جسم مهم بالنسبة اليها في تحقيق نواياها التوسعية ومصدراً للدخل بالنسبة الى خزينة الدولة واداة لاثراء الادارة الروسية المدنية والعسكرية هناك ، كما عدها الرأسماليون الروس سوقاً جديدة لتصريف منتجات الصناعة الروسية ومصدراً للقطن الذي تحتاجه الصناعة القطنية في روسيا . لذلك فاننا نجد توسعاً في مزارع القطن التي ازدادت مساحتها في الخمس عشرة سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر من ٤١ الفاً الى ٣٥٦ الف دسياتينا وازدادت تبعاً لذلك كمية القطن المجلوبة الى مركز روسيا حتى بلغت في عام ١٩٠٠ مايقرب من خمسة ملايين بود . وكانت شركات النسيج والبنوك الروسية تشتري القطن بواسطة الاقطاعيين والمرابين

المحليين وليس من الزراع مباشرة الامر الذي ادى الى اثراء المصدرين والو
افلاس زارعي القطن الذين كانوا يبيعون املاكهم ايفاءً للديون التي اخذ
عليهم .

ومهما يكن حجم التطور الاقتصادي الذي جرى في الاقطار غير الروسية
التطور كان يصادف عقبات كأداء متمثلة بسياسة الاضطهاد القومي والا
الاقتصادي اللذين كانت الحكومة الروسية تمارسهما في تلك الاقطار فتعيق بذلك
اللاحق اقتصادياً وثقافياً وتخضع هذا التطور لمتطلبات التطور الاقتصادي في
وليس لحاجات تلك الاقطار نفسها .

التحـــولات الاجتماعيـــة

ادى التطور الاقتصادي المتزايد في روسيا الى تغييرات في البنية الاجتماعية للمجتمع
الروسي ، فعلى الرغم من ان طبقة النبلاء ظلت هي الطبقة المتنفذة في المجتمع الا انها
تعد متجانسة اقتصادياً وسياسياً كما كانت في السابق فالكثير من الملاكين لم يتمكنوا من
التكيف للظروف الجديدة وانفقوا مبالغ التعويض التي حصلوا عليها من الفلاحين
واضطروا الى بيع ضياعهم واراضيهم او رهنها . ولهذا فقد تقلصت مساحة الارض التي
يمتلكها النبلاء من ١٨٧٧ الى ١٩٠٥ بمقدار ٢٥٪ . ومع ذلك ظلت المزارع الكبيرة التي
تحتفظ بالكثير من بقايا نظام القنانة هي السائدة في المناطق الوسطى من البلاد ، وكان
مالكو هذه المزارع من اكثر الفئات رجعية في المجتمع الروسي ومنهم كانت تتألف
العناصر القيادية في ادارة الدولة والجيش .

اما الملاكون من النمط الرأسمالي الجديد فكانوا اقل نفوذاً في المجال السياسي وقد
نشطوا في المجالس المحلية التي استحدثت في مرحلة الاصلاح في الستينات ولم تكن
صلاحيات هذه المجالس تشمل الا دائرة ضيقة من الشؤون العامة كالعناية بالمرافق
العامة والصحة والتعليم وماأشبه . وقد ادى النبلاء من اعضاء هذه المجالس دوراً بارزاً
في الحركة الليبرالية المعارضة حيث كانوا يسعون الى تطوير الاصلاحات وتعميقها والى
انشاء مؤسسات تمثيلية للطبقات المتنفذة في اطار الحكم المطلق .

واما عن البرجوازية فقد بدأت عملية تكونها في روسيا قبل الاصلاح ثم ازدادت هذه
العملية سرعة في المدة التي اعقبت الاصلاح حيث اخذ التجار والملتزمون واغنياء
الكولاك والمرابون يتحولون الى رجال اعمال يمتلكون ويديرون مشاريع كبيرة في الصناعة
والشؤون المصرفية وغيرها . ولكن الوزن السياسي للبرجوازية الروسية لم يكن يتناسب

مع قوتها الاقتصادية فلم يكن لها مثلاً منظمة سياسية تمثل مصالحها ولم تكن الجمعيات التي ظهرت في ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر تمثل الا المصالح الذاتية الضيقة لبعض فئات ومجموعات البرجوازية الكبيرة ، كما ان الظروف التي نشأت وتطورت في ظلها البرجوازية الروسية وكذلك تنامي الحركة الشعبية ولاسيما العمالية جعلها تفتقر الى الروح الثورية ولهذا نجدها اثناء الهزات الاجتماعية التي حصلت في روسيا بعد الاصلاح تلجأ الى السلطة القيصرية بحثاً عن الحماية في بوليس السلطة وجيشها وموظفيها .

ومن الناحية الاخرى ظهرت البروليتاريا الصناعية في روسيا واخذت بالتطور كماً ونوعاً بالارتباط مع تنامي الصناعة حتى بلغ عدد الفئات البروليتارية في نهاية القرن التاسع عشر مايقرب من اثنين وعشرين مليون نسمة ، حوالي عشرة ملايين منهم من العمال المأجورين الذين يشتغلون في الزراعة والصناعة والسكك وغيرها من اوجه النشاط الاقتصادي . وكان وضع العمال صعباً فيوم عملهم طويل واجورهم محدودة وظروف سكنهم وعملهم قاسية والاستغلال الواقع عليهم من ارباب العمل الذين تساندهم السلطة كبير . وكثيراً ما كانت هذه الظروف تدفعهم الى الاحتجاج ضد اصحاب العمل وضد السلطة الحكومية التي تساندهم .

اما في الاقطار غير الروسية فعلى الرغم من ان الطبقات المتنفذة كانت مرتبطة بالسلطة القيصرية والحكم المطلق كما هي الحال بالنسبة للبارونات الالمان في منطقة البلطيق ولعدد من الاقطاعيين البولنديين ومالكي المزارع الكبيرة في اكرانيا والامراء في جورجيا لكن الفئات الاقطاعية والبرجوازية عند الامم المضطهدة في روسيا كانت بوجه عام تحس بالضغط الواقع عليها ولهذا فانها اخذت تساند الحركة القومية التي اتسعت في تلك الاقطار والتي كانت جماهير الشعب هناك تؤلف قوتها الاساسية .

الفكر الاجتماعي والحركة الثورية بعد الاصلاح

كان الوضع العام في روسيا بعد الاصلاح يتميز بافلاس الفلاحين وتعرضهم لاشد انواع الاستغلال ومحدودية الاصلاحات وسعي النبلاء الاقطاعيين للعودة الى اساليب ماقبل الاصلاح وحرمان الشعب من الحقوق السياسية حرماناً تاماً وتعسف موظفي الحكومة الذين لم يكن يحد من سلطتهم قيد . وكان ذلك كله محفزاً لانتعاش الحركة الديمقراطية مجدداً مستغلة الامكانيات المحدودة التي اتاحتها لنشاطها الاصلاحات التي جرت في ستينات القرن التاسع عشر .

كان افراد الجيل الجديد من الثوريين الذين برزوا على المسرح الاجتماعي في سبعينات القرن يشاركون اسلافهم في الخمسينات والستينات نظراتهم الديمقراطية واعتقادهم بان بالأمكان-ان تتجاوز روسيا طريق التطور الرأسمالي وأيمانهم بالقدرة على تحقيق الانتقال الى الاشتراكية عن طريق المشاعية الريفية . وكان كلا الفريقين يعدان الفلاحين القوة المؤهلة لتحويل البلاد الى الاشتراكية لكن اختلافات جوهرية كانت بين الجانبين مع ذلك ففي حين كانت المادية ظاهرة على افكار تشرنشيفسكي وبعض زملائه الأخرين في المرحلة السابقة نلاحظ النزعة المثالية وعدم تقدير الدور التأريخي للجماهير والمبالغة بدور المثقفين وغير ذلك من النظرات تطبع افكار الشعبيين في السبعينات . لقد كانت اغلبية الثوريين في السبعينات تختلف عن النواة الاساسية لثوريي الستينات في انها كانت تنكر ضرورة النضال السياسي منطلقة من اعتقاد عام مفاده ان الثورة الفلاحية ستطيح بالنظام الملكي والانظمة الاقتصادية والاجتماعية القائمة على استغلال الجماهير بضربة واحدة.

لقد انقسمت الشعبية[1] في السبعينات اتجاهات متعددة تختلف فيما بينها في اسلوب العمل فكان بعضها يعتقد بأن الشعب مستعد للثورة ويرى ان مهمة المثقفين الثوريين هي دفع الفلاحين الى الثورة وتوحيد الحركات المتفرقة في انتفاضة فلاحية تشمل روسيا بأجمعها ووقف الأخرون موقفاً سلبياً من «العصيان» ورأوا ضرورة القيام بعمل تحضيري واسع لاسيما في مجال الدعاية . والى جانب هؤلاء وأولئك كان هناك فريق ثالث يعتقد بضرورة الاستيلاء على السلطة بواسطة اقلية صغيرة ودون الاعتماد على الجماهير.

وفي اواخر الستينات بدأت تظهر البوادر الاولى لنهوض ثوري جديد فتكررت الاضطرابات الطلابية وزادت المنشورات المعادية للسلطة وتكون عدد من المجموعات الثورية اخذت تعمل في بطرسبورغ وموسكو وكييف وبعض المدن الاخرى . وقد انمر نشاط هذه المجموعات فبدأت اعداد افرادها بالزيادة وشجع ذلك الشعبيين على البدء بالعمل على تحقيق هدفهم الاساس وهو الاعداد للثورة الفلاحية في روسيا . ومن هنا جاء اصل الحركة التي سميت «التوجه نحو الشعب» والتي بلغت ذروتها في ربيع وصيف ١٨٧٤ . وقد شملت هذه الحركة الآف الاشخاص واتسعت بشكل خاص في محافظات روسيا واكرانيا ولكنها لم تكن حركة منظمة بل مجرد حلقات محدودة او اشخاص منفردين يعملون بمبادرة ذاتية . لقد كان هؤلاء شباناً يرتدون ثياب الفلاحين ويطوفون في الارياف متنقلين من مكان الى آخر ناشرين افكارهم وشعاراتهم .

---

(١) الشعبية مصطلح يطلق على افكار المثقفين الروس وحركتهم الثورية مابين ١٨٦١ و ١٨٩٥ .

ومع ذلك لم تتكلل جهود الشعبين بالنجاح اذ سرعان ماظهر ان تصوراتهم لنمط الحياة الريفية وافكارهم عن الميول الاشتراكية للفلاح الروسي لم تكن الاتصورات وافكاراً لاتطابق الواقع . وقد دفع فشل «التوجه نحو الشعب» المثقفين الثوريين إلى اعادة النظر في طرق واساليب العمل فتوصلوا بعد نقاش طويل الى ضرورة ان يقتصر المنبج الآني على المطالب التي اعتقدوا ان الشعب قد وعاها وخصوا هذه المطالب بشعار «الارض والحرية» اي منح الفلاحين الارض كلها في الدولة وتحريرهم من اية وصاية ومنحهم الادارة الذاتية الكاملة ، كما قرروا الاستقرار في الريف بدل التنقل لغرض الدعاية واقروا ضرورة انشاء منظمة جدية تضم القوى الثورية وتعتمد نظام ضبط ثوري قوي وقد انشئت على هذا الاساس في ١٨٧٦ جمعية سميت فيما بعد «الارض والحرية» ايضاً كان من بين اعضائها احد مشاهير الثوريين الروس هو بليخانوف وكان آنذاك مايزال طالباً في معهد التعدين ، وقد قام اعضاء هذه الجمعية بعدد من الاعمال الارهابية رداً على سياسة القمع التي كانت الحكومة تمارسها وكانوا يعدون الارهاب في البداية وسيلة للدفاع عن النفس واخذاً بثار رفاقهم الذين طالهم قمع السلطة ولكن اهمية الارهاب لذاته لم تلبث ان إخذت تزداد بالنسبة اليهم بمقدار ماكانت خيبة املهم تزداد بالنشاط الدعائي .

ومن الملاحظ على الحركة الثورية في السبعينات هو مشاركة العمال فيها بشكل ملموس على الرغم من ان القسط الاكبر من النضال الثوري كان يقوم به «الرازنوتشينتسي» فقد ازدادت في هذه المرحلة اضرابات العمال وبدأت تتكون حلقات عمالية كان اعضاؤها يقومون بالدعاية والتحريض مثل «اتحاد عمال جنوب روسيا» الذي تالف في اوديسا في ١٨٧٥ و «الاتحاد الشمالي للعمال الروس» الذي تكون في بطرسبورغ في ١٨٧٨ . وقد اصدر الاتحاد الشمالي منهاجاً اعلن ان هدف الاتحاد هو «الاطاحة بالنظام السياسي والاقتصادي القائم» وتضمن عدداً من المطاليب السياسية مثل حرية الكلام والنشر والتجمع ... الخ . واصدر هذا الاتحاد في ١٨٨٠ ، اول صحيفة عمالية في روسيا هي «فجر العمال» ، وقد شاركت هذه المنظمات العمالية في الفعاليات الثورية التي نظمها الشعبيون لكن السلطات لم تلبث ان كشفتها وقضت عليها .

لقد ادى قيام الحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) . الى تعميق الازمة السياسية في روسيا فقد كان الفلاحون طوال السبعينات يحتجون بمختلف الاشكال على استغلال الملاكين وتعسف السلطات وازداد امتناع الفلاحين في محافظات روسيا واكرانيا وبيلوروسيا عن دفع اقساط التعويض التي اقرها قانون الغاء القنانة وكانوا يقاومون لجوء السلطات الى بيع ممتلكاتهم مقابل امتناعهم عن دفع الضرائب المتأخرة للخزينة .

وانتشرت بالارتباط مع الحرب اشاعات مفادها ان النية تتجه لاجراء اعادة تقسيم شاملة للارض او «اعادة التقسيم الاسود» كما اطلق عليه الفلاحون يكون على حساب اراضي الملاكين الواسعة بالدرجة الاولى .. وعلى الرغم من ان الحركة الفلاحية في هذه المرحلة كانت تختلف من حيث الحجم عنها في الستينات الا انها دفعت الحكومة الى تخفيض بدلات التعويض والى اصدار قانون جعل التعويض الزامياً اي ان دفع الفلاح للتعويض وامتلاكه للارض لم يعد متوقفاً على رغبة الملاك . لقد اتسعت الحركة الاضرابية في المدن ايضاً وكانت السلطة تقابل ذلك كله بقمع متزايد بأستمرار مما ادى الى ازدياد اعمال الارهاب الى مستوى لم يسبق له مثيل ، فقد قامت احدى النساء في كانون الثاني ١٨٧٨ بمحاولة اغتيال حاكم بطرسبورغ واغتيل رئيس الجندرمة في آب من السنة نفسها وجرت في نيسان ١٨٧٩ محاولة لاغتيال القيصر الكسندر الثاني .

لقد برزت في نهاية السبعينات خلافات عميقة في صفوف اعضاء جمعية «الارض والحرية» ادت بها في آب ١٨٧٩ الى الانشقاق الى جمعيتين اطلق على الاولى اسم «اعادة التقسيم الاسود» وعلى الثانية اسم «ارادة الشعب» وكانت الجمعية الاولى اكثر تطرفاً واقل نفوذاً واضيق نشاطاً من الجمعية الثانية ولم يلبث قادتها ومنهم بليخانوف الذي مر ذكره ان اخذوا يتحولون الى الماركسية ، اما الثانية اي «ارادة الشعب» فقد ضمت اغلب العناصر الثورية وكانت منظمة ذات مركزية عالية وتميل في نشاطها الى الارهاب الفردي الذي كانت تنظر اليه على انه وسيلة للتهيئة لانقلاب سياسي او في الاقل وسيلة تجبر الحكومة على التسليم بمطاليب الثوريين التي تتلخص في الدعوة الى قيام جمعية تأسيسية تنتخب على اساس التصويت العام واقرار الحريات العامة مثل حرية الكلام والنشر وما اشبه .

وصلت الاحداث الثورية في هذه المرحلة اعلى ذروة لها في ١٨٨٠ وبداية ١٨٨١ ، فقد زاد سوء المحصول والمجاعة من الاستياء في الريف واصبحت المدن مسرحاً لاضرابات واضطرابات متواصلة ونشطت العناصر الليبرالية في معارضة الحكم القيصري واتسع المنهاج الاصلاحي الذي تدعو اليه وكان بعض هذه العناصر يتعاطف مع الثوريين ويساندهم سراً .

وقد ادى الانفجار الذي حصل في قصر الشتاء في ٥ شباط ١٨٨٠ بتدبير من جمعية «ارادة الشعب» الى تكتل العناصر الرجعية التي بدأت تطالب باقامة دكتاتورية بوليسية وقام القيصر بالفعل بمنح الكونت لوريس - ميليكوف صلاحيات واسعة وكان هذا يسعى لتحقيق هدف مزدوج يكمن في اخماد الحركة الثورية من جهة وجذب العناصر الليبرالية المعتدلة من جهة اخرى ولتحقيق ذلك وضع منهاجاً يقضي بأنشاء لجان

ارية من الموظفين والعناصر موضع الثقة للنظر في القوانين وانشاء بعض مجالس
دار بعض الصحف . ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة تذكر اذ يلبث
يس - ميليكوف ، ان تراجع عن هذه الاجراءات بالرغم من محدوديتها في الوقت
ي تعاظمت فيه المعارضة الى الحد الذي تمكنت فيه جمعية «ارادة الشعب» من اغتيال
صر الكسندر الثاني في ١ آذار ١٨٨١ فكان ذلك ايذاناً بتشديد ملاحقة العناصر
رية . ومع ان جمعية «ارادة الشعب» التي انهكتها ملاحقة السلطات حاولت استئناف
اطها لكن السلطات وجهت لها ضربات متلاحقة ادت بالنتيجة الى تحطيم قيادتها .

سادت روسيا بعد حادثة اغتيال الكسندر الثاني موجة من الرجعية الشديدة ووقع
يصر الجديد الكسندر الثالث في السنوات الاولى من حكمه الذي امتد من ١٨٨١
ى ١٨٩٤ تحت تأثير مربيه بوبيدونوستسيف الذي كان متعصباً ورجعياً الى درجة انه
ن يعد ان تنفيذ خطط لوريس - ميليكوف المشار اليه في اعلاه على محدوديتها معناه
تهاء روسيا . وفي ١٨٨٢ اشغل الكونت ديمتري اندريفتش تولستوي منصب وزير
داخلية فأخذ يسعى لتحقيق منهج رجعي يقوم على قمع جميع القوى التقدمية في
لمجتمع وعلى تعزيز المواقع السياسة للنبلاء . وهكذا شددت السلطات من ملاحقة
لصحافة التقدمية واتخذت اجراءات مشددة شملت نواحي الحياة العامة الاجتماعية
والسياسية كلها .

وقد انعكست هذه الاجراءات في المجال التعليمي في القضاء على استقلال الجامعات
وملاحقة الطلاب ذوي النزعة الديمقراطية وابعاد الاساتذة التقدميين والغاء التعليم
العالي للنساء واعادة المدارس الطبقية القديمة . ولم تكن الحكومة ترتاح للمحاكم التي
تعتمد نظام المحلفين فأخرجت من دائرة اختصاصها القضايا التي تتعلق بمقاومة
السلطات وعمدت الى تقلص حقوق السكان التي اقرتها قوانين المجالس المحلية
والادارة الذاتية في المدن على قلة تلك الحقوق ومحدوديتها . وفي الريف انشأت الحكومة
مايسمى مؤسسة الرؤساء الريفيين وهم موظفون من النبلاء منحت لهم سلطات ادارية
وسياسية غير محدودة على الفلاحين .

وتميزت هذه المرحلة بانتعاش الحركة القومية في الاقطار غير الروسية فتشكلت
منظمات قومية في تلك الاقطار تسعى الى الحصول على حقوقها القومية ولاسيما في مجال
المحافظة على اللغة القومية والشخصية والعادات والاعراف القومية ، لكن الحكومة
الروسية مارست سياسة شوفينية تجاه القوميات غير الروسية فاصدرت العديد من
المراسيم التي قلصت الاستقلال الذاتي لبولندا وانتهجت هناك سياسة تقوم على محو

الشخصية القومية وعملت على نشر الارثوذكسية بالقوة في آسيا الوسطى ومنطقة
وسيبريا وغير ذلك من الاجراءات .

وطبيعي إن تجابه هذه السياسة بمعارضة متزايدة ، فمع ان ثمانينيات القرن التا
عشر شهدت تحول الشعبية الثورية القديمة الى شعبية ليبرالية استبدلت النضال
النظام القائم بمنهاج اصلاحي يهدف الى تحسين احوال الفلاحين مع المحافظة على اس
المجتمع القائم فأن العقد التاسع من القرن التاسع عشر شهد المئات من الاضطرابات
الفلاحية والعديد من الاضطرابات الطلابية كما شهد محاولة لاغتيال القيصر الجدي
جرت في ١٨٨٧ كان اغلب المشاركين فيها من طلاب جامعة بطرسبورغ . وادت
الصحافة الديمقراطية دوراً بارزاً في هذا المجال بالرغم من الرقابة وبرز من الكتا
الديمقراطيين المشهورين في هذه المرحلة شخصيات مرموقة من امثال
سالتكوف - شيدرين واضرابه . كذلك تميز العقدان الاخيران من القرن التاسع عشر
بأتساع الحركة العمالية وظهور الاتجاه الاشتراكي - الديمقراطي فقد ازدادت الاضطرابات
وتواترت الاضرابات العمالية . واثرت الحركة العمالية المتنامية في المثقفين الثوريين الذين
دفعهم الفشل الذي حاق بالحركة الشعبية الى تحليل اسباب الاخفاق والبحث عن مخرج
فقادهم ذلك الى دراسة مؤلفات ماركس وانجلز والتعرف على تجربة الحركة العمالية في
اوربا الغربية فقبل بعضهم تعاليم ماركس واستخدمها لتقويم العلاقات الاجتماعية في
روسيا . ولهذا نجد المنظمة الثورية السرية الجديدة التي قامت في ١٨٨٦ - ١٨٨٧
بزعامة الكسندر اوليانوف (الاخ الاكبر للينين) وهدفها اغتيال القيصر الكسندر الثالث
تخرج على نظرات الشعبين التقليدية وتحاول ان تجد خطاً لعملها يجمع بين الشعبية
والماركسية . ويأتي في هذا السياق ايضاً قيام جماعة «تحرير العمل» التي انشأها في خريف
١٨٨٣ في سويسرا بليخانوف والتي نشطت في ترجمة واصدار وتوزيع مؤلفات ماركس
وانجلز في روسيا وكانت اول من انتقد الشعبية من منطلقات ماركسية . وتألف في
داخل روسيا عدد آخر من المنظمات الماركسية منها «حزب الاشتراكيين الديمقراطيين
الروس» في بطرسبورغ الذي اصدر في ١٨٨٥ ، عددين من اول جريدة اشتراكية
ديمقراطية في روسيا هي جريدة «العامل» وعدد آخر من المنظمات والحلقات الماركسية في
بطرسبورغ وموسكو وكذلك في اكرانيا وبيلوروسيا ومنطقة الفولغا ولاتيفيا ولتوانيا
وجورجيا .

وحلت في العقد الاخير من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في تاريخ الحركة
الثورية في روسيا فلقد تضافرت جملة من العوامل في مقدمتها سوء المحصول والمجاعة
الكبيرة التي حدثت في ١٨٩١ - ١٨٩٢ وتفشي وبائي الكوليرا والتيفوس الى جانب

تعسف الملاكين وثقل الضرائب فكانت محفزاً لاتساع الحركة الثوريه عدداً وهكذا تمادت الحركة الفلاحية الى الاتساع وازدادت الاضطرابات الطلابية واتسعت الحركة العمالية ونشطت العناصر الليبرالية وقد اغتنمت هذه العناصر مناسبة تسنم نيقولا الثاني العرش الروسي في عام ١٨٩٤ فقدم له عدد من المجالس عرائض تطالب بالاصغاء لصوت الشعب واجراء اصلاحات سياسية ولكن القيصر الجديد خيب املهم عندما اعلن في احدى خطبه بأن رغبة المجالس في المشاركة بالحكم هي «حلم لامعنى له» مؤكداً انه سيواصل النهج السياسي السابق نفسه .

وفي هذه المرحلة ظهر لينين (اسمه الحقيقي فلاديمير ايليتش اوليانوف) الذي قدر له فيما بعد ان يقود الثورة الاشتراكية في روسيا ويؤسس الاتحاد السوفيتي . وقد اتاحت له قابلياته المشهودة ومنها مايتميز به من فكر نظري عميق ومعرفة دقيقة بالواقع الروسي وموهبة تحريض نادره بالاضافة الى صلابته واستقلالية تناعاته ان يتوصل الى قيادة الماركسيين الروس وان يقود بنجاح صراعهم مع التيارات الاخرى ولاسيما الشعبيين والمناهضين له من الماركسيين . وفي خلال هذا الصراع طور لينين الماركسية لتلائم الواقع الروسي ووضع اسس برنامج الحزب الماركسي في روسيا واكد دور الطبقة العاملة قائداً للحركة الثورية فيها وصاغ موضوعة اتحاد العمال والفلاحين وطرح قضية تأليف حزب عمالي ماركسي وعد ذلك مهمة لاتقبل التأجيل واستطاع في عمله لتحقيق ذلك ان يؤلف منظمة اشتراكية ديمقراطية اتخذت لنفسها في ١٨٩٥ اسم «اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة» ، تالفت على غرارها منظمات اشتراكية ديمقراطية اخرى في موسكو وتولا وروستوف على الدون وفي المراكز الصناعية في اكرانيا وما وراء القفقاس وغير ذلك من الاماكن .

لكن السلطات وجهت في ١٨٩٧ ضربة قوية الى «اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة» ونفت لينين وعدداً من قادته الآخرين الى سيبريا . ومع ذلك قامت المجموعات والحلقات الاشتراكية الديمقراطية المختلفة التي انتشرت حتى هذا الوقت على نطاق واسع في روسيا بمحاولة للتوحد في حزب واحد فعقد لهذا الغرض في آذار ١٨٩٨ في مدينة منسك مؤتمر اعلن قيام «حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي» . ولكن هذا التوحيد كان نظرياً فقط حيث ظلت المنظمات الاشتراكية الديمقراطية بدون منهاج وبدون نظام داخلي وبدون قيادة موحدة ايضاً لان السلطات تمكنت من القضاء على اللجنة المركزية التي انتخبها المؤتمر بعد قيامها مباشرةً . وكان لينين الذي ظل في المنفى حتى عام ١٩٠٠ يرى ان الخطوة الاولى المهمة باتجاه انشاء الحزب الذي يريده هي تأسيس جريدة ماركسية لعموم روسيا ولهذا فقد ركز جهوده بعد عودته من المنفى

لتحقيق هذا الهدف . وهكذا صدر في ١١ كانون الثاني ١٩٠٠ في لايبزك اول عدد من الجريدة المطلوبة التي اطلق عليها اسم «الشرارة» والتي اصبحت المركز الفكري والتنظيمي للحركة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا . وكانت هيئة تحرير الجريدة تتألف من لينين واثنين من ممثلي المنظمات الاشتراكية الديمقراطية الروسية وكذلك بعض اعضاء جماعة «تحرير العمل» وفي مقدمتهم بليخانوف .

السياسة الخارجية في اواخر القرن التاسع عشر

توترت علاقات روسيا بعد انتصارها على الدولة العثمانية في حرب ١٨٧٧ - ١٨٧٨ مع بقية الدول الاوربية الكبرى واصبحت تعاني من العزلة على المسرح الدولي مما دفعها الى قبول الفكرة التي تقدم بها بسمارك بشأن احياء عصبة الاباطرة الثلاثة فتم في ١٨ حزيران ١٨٨١ عقد معاهدة بين روسيا والمانيا والنمسا - المجر نصت على انه في حالة قيام حرب بين احدى الدول الموقعة على المعاهدة ودولة رابعة فان على الدولتين الاخريتين الوقوف على الحياد . وهذا يعني من الناحية العملية بأن روسيا وعدت المانيا بالحياد في حالة قيام الحرب بين المانيا وفرنسا وان النمسا - المجر والمانيا تعهدتا بالوقوف على الحياد في حالة قيام الحرب بين روسيا وبريطانيا . وقد عممت المعاهدة الحياد على حالة الحرب مع الدولة العثمانية ايضاً ولكن بشرط ان يتوصل الفرقاء الى الاتفاق على نتائج هذه الحرب مسبقاً . كذلك التزم الفرقاء بمراعاة مصالح بعضهم بعضاً في شبه جزيرة البلقان وبعدم السماح بأجراء اية تغييرات اقليمية في الممتلكات العثمانية هناك دون الاتفاق على ذلك مسبقاً . وتعهدت المانيا والنمسا - المجر بأسناد وجهة النظر الروسية بشأن الالتزام الدقيق بمبدأ غلق المضايق . والحق بالمعاهدة بروتوكول خاص حددت بموجبه مناطق نفوذ كل من روسيا والنمسا - المجر في البلقان . لقد كانت مدة المعاهدة ثلاث سنوات وعند تجديدها عام ١٨٨٤ اعلمت الحكومة الروسية حليفتيها بأنها تفهم مسألة الالتزام بالحياد على انها مرتبطة فقط بحالة قيام الحرب بسبب هجوم فرنسا على المانيا وليس العكس . لقد حسنت هذه المعاهدة من وضع روسيا على المسرح الدولي بعض الشيء لكن التوسع الروسي في آسيا الوسطى لم يلبث ان ادى بها الى الاصطدام ببريطانيا لاسيما ان هذه الاخيرة اقامت بعد حربها مع افغانستان عام ١٨٧٨ حمايتها على ذلك البلد واخذت تسعى الى اتخاذه نقطة انطلاق للتوسع في المنطقة . وهكذا توترت العلاقات بين الدولتين بحيث اوشكت الحرب ان تقوم بينهما ولكن قبل بسمارك لطلب روسيا بالضغط على السلطان العثماني لكي يلتزم على نحو دقيق بمبدأ غلق

المضايق مما يعني عدم السماح للسفن الانجليزية بالدخول الى البحر الاسود لتهديد السواحل الروسية هناك ، وانضمام النمسا - المجر وفرنسا الى بسمارك في هذه القضية ثم موافقة السلطان على هذا الطلب بسبب استيائه من بريطانيا، التي احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، دفع بريطانيا الى التراجع فعقدت، مع روسيا في ١٠ ايلول ١٨٨٥ اتفاقية عينت فيها بشكل عام الحدود بين روسيا وافغانستان ثم شكلت لجنة لتحديد خط الحدود بدقة . وعلى اساس عمل اللجنة وقعت في ٢٢ حزيران ١٨٨٧ بين روسيا وبريطانيا معاهدة عين بموجبها خط الحدود نهائياً بين روسيا وافغانستان .

في هذه الاثناء كانت تجري احداث مهمة في البلقان ففي ١٨ ايلول ١٨٨٥ قامت انتفاضة في الروميلي الشرقية ضد السلطات العثمانية حيث طرد الثوار الوالي العثماني واعلنوا توحيد الروميلي الشرقية مع بلغاريا الشمالية واتخذ الامير البلغاري الكسندر باتنبرج لقب «امير بلغاريا الشمالية والجنوبية» ودخلت قوات بلغاريا الشمالية الى اراضي الروميلي الشرقية . لقد كانت هذه الاحداث بداية لما اصطلح على تسميته «الازمة البلغارية» التي استمرت من ١٨٨٥ الى ١٨٨٧ وكانت مجالاً تصادمت فيه بشدة مصالح الدول الكبرى . وفيما يخص روسيا فأنها لم تعد الآن تسعى كما كانت في السابق لتوحيد بلغاريا وسبب ذلك هو خشيتها من التعقيدات الدولية من جهة واستاؤها من سياسة باتنبرج الذي كان يميل الى النمسا - المجر وبريطانيا من جهة أخرى . على أية حال تقرر بعد محادثات مطوله بين الدول وبعد أحداث وانقلابات داخلية في بلغاريا ، أن تبقى الروميلي الشرقية اقليماً عثمانياً يحكمها والي بعينه السلطان ولكن السلطان التزم بموجب اتفاقية خاصة مع بلغاريا بأن يعين امير بلغاريا نفسه والياً على الروميلي الشرقية . وهكذا أصبحت هناك من الناحية العملية حكومة واحدة لشمال بلغاريا وجنوبها . لقد تقوضت نتيجة للازمة البلغارية المواقع الروسية في بلغاريا التي نصب على عرشها في ١٨٨٧ أمير الماني هو فرديناند كوبورج الذي كان قبل ذلك ضابطاً في الجيش النمساوي . وقد ظل كوبورج هذا ملكا لبلغاريا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ومعه ترسخ في بلغاريا نفوذ النمسا - المجر والمانيا .

أدت الازمة البلغارية الى توتر العلاقات بين روسيا والنمسا - المجر مما تعذر معه الابقاء على عصبة الاباطرة الثلاثة . ولهذا أخذت روسيا تسعى للتوصل مع المانيا الى معاهدة تضمن لها حياد هذه الاخيرة في حالة قيام الحرب بين روسيا والنمسا - المجر . وأراد بسمارك من جانبه أن يضمن حياد روسيا في حالة قيام الحرب بين المانيا وفرنسا وهي الحرب التي رأى أن الفرصة كانت مؤاتية لاشعالها آنذاك . وهكذا وجد الاساس الموضوعي لمعاهدة جديدة بين الطرفين لكن بسمارك لم يكن يريد الانحدار التام للنمسا -

المجر كما أن روسيا لم تكن تريده لفرنسا ولهذا فقد نصت المعاهدة التي عقدت بينهما في ١٨ حزيران ١٨٨٧ على أن تلتزم كل منهما بالحياد الودي تجاه الاخرى عند قيام الحرب بين هذه ودولة ثالثة على ان يكون هذا الالتزام مشروطاً في حالة كون هذه الدولة الثالثة فرنسا او النمسا - المجر بأن تأتي مبادرة الهجوم من هاتين الاخرتين . وطبيعي أن المعاهدة بشكلها هذا لم ترض أياً من الجهتين المتحالفين ولهذا فأنها لم تستطع أن توقف تردي العلاقات الروسية - الالمانية وهو التردي الذي كان آخذاً بالاتساع بسبب تدهور علاقاتها الاقتصادية في تلك الاثناء . وقد أستغلت فرنسا ذلك ووسعت من علاقاتها المالية والاقتصادية بالحكومة الروسية وبرجال الاعمال الروس عن طريق تشغيل رؤوس الاموال الفرنسية في روسيا وتقديم القروض لها الأمر الذي أوجد أساساً موضوعياً للتقارب بين الدولتين . وكانت فرنسا آنذاك تعاني من وضع دولي صعب فقد ظلت علاقاتها بالمانيا متوترة حتى بعد زوال خطر الحرب التي أوشكت أن تقوم بينهما في ١٨٨٧ ، كما أن علاقتها ببريطانيا كانت متردية بسبب الخلافات بين الدولتين في مجال التوسع الاستعماري . ولهذا فانها رأت بان التقرب من روسيا هو الوسيلة الوحيدة التي تخرجها من عزلتها . وكانت روسيا من جانبها يهمها التقارب مع فرنسا لاسيما أن كابريفي الذي خلف بسمارك مستشاراً لالمانيا لم يكتف برفض تجديد معاهدة ١٨٨٧ التي أنتهت مدتها في ١٨٩٠ وأنما أخذ يتقرب من بريطانيا فعقد معها في صيف ١٨٩٠ أتفاقية أخذت المانيا بموجبها جزيرة هيلجولاند في بحر الشمال مقابل قيامها ببعض التنازلات لبريطانيا في افريقيا . وهكذا أستمر التقارب بين روسيا وفرنسا وأنتهى بالتوقيع في ٢٧ آب ١٨٩٢ على ميثاق عسكري عد نافذاً بعد أن جرت المصادقة عليه في ٢٧ كانون الاول ١٨٩٣ و ٤ كانون الثاني ١٨٩٤ ، ونصت المادة الاولى منه على أنه «أذا تعرضت فرنسا للهجوم من جانب المانيا أو من جانب ايطاليا تساندها المانيا فأن روسيا تستخدم كل ماتملكه من قوات للهجوم على المانيا وأذا تعرضت روسيا الى هجوم من جانب المانيا او من جانب النمسا تساندها المانيا فأن فرنسا تستخدم كل ماتملكه من قوات للهجوم على المانيا» .

في هذه الاثناء عادت العلاقات بين روسيا وبريطانيا في الشرق الادنى الى التوتر مجدداً . فعندما وجهت بريطانيا أسطولها الى الدردنيل في آب ١٨٩٦ بسبب حوادث الارمن في الدولة العثمانية ، هددت روسيا بانها ستأمر أسطولها في البحر الاسود باحتلال البسفور أذا دخل الاسطول البريطاني الى الدردنيل . وعندما تبينت بريطانيا جدية الموقف الروسي لم تشأ ان تعمل على زيادة توتر الوضع الدولي اكثر من ذلك . لكن الصراع الانجليزي - الروسي أنتقل الى ايران التي اصبحت في هذه المرحلة بؤرة للصراع

بين الدولتين ذلك أن الحكومة الروسية انهمكت آنذاك في السعي للتغلغل في ايران واتخذت لهذا الغرض جملة من الاجراءات السياسية والاقتصادية . وقد أثمرت جهودها في هذا الشأن فتمكنت من الاستحواذ في أواخر القرن التاسع عشر على السوق الايرانية متجاوزة بريطانيا في حجم التبادل التجاري مع ايران كما ان الجزء الشمالي من أيران أصبح منطقة خالصة للنفوذ الروسي .

لقد نشطت الدبلوماسية الروسية في آخر القرن التاسع عشر فعقدت الحكومة الروسية في السنوات الخمس الاخيرة من القرن سلسلة من الاتفاقيات منها أتفاقية مع بريطانيا في ١٨٩٥ حول مناطق النفوذ في البامير وأخرى مع النمسا ـ المجر في ١٨٩٧ حول المحافظة على الوضع القائم في البلقان وثالثة مع فرنسا في ١٨٩٩ حول تعزيز التحالف الروسي ـ الفرنسي . لقد أطلقت هذه الاتفاقيات يد روسيا ومكنتها من التفرغ للتوسع في الشرق الاقصى ذلك التوسع الذي أشر مرحلة جديدة في سياسة روسيا الخارجية .

العلم والثقافة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

جرى تطور الثقافة في روسيا بعد الغاء القنانة بوتائر أسرع من السابق ذلك أن التطور الاقتصادي ونمو المدن الكبرى وأنشاء طرق مواصلات حديثة أدى الى زيادة الحاجة للكوادر الثقافية والتخصصية فأزدادت الحاجة الى القراءة وأتسعت الرغبة في المعرفة فأزداد الطلب على الكتب والمجلات والجرائد . وهكذا أخذت نسبة غير الاميين في المجتمع الروسي بالزيادة المطردة حتى بلغت بين الرجال البالغين سن التجنيد ٢١٪ في سنة ١٨٧٤ و ٤٩٪ في سنة ١٩٠٠ ، أما نسبة غير الاميات من النساء فقد بلغت ١٧٪ بموجب أحصاء ١٨٩٧ . وهكذا أتسع التعليم وانتشر وقد أسهمت في ذلك بشكل ملحوظ «مدارس الاحد»[1] والمجالس المحلية التي أضطلعت بالدور الاول في نشر التعليم في الارياف . وكان هناك أيضاً أربعة معاهد دينية ارثوذكسيه عليا والكثير من المعاهد الدينية المتوسطة التابعة للكنيسة الارثوذكسية الى جانب المدارس الدينية الخاصة بالاديان والمذاهب الاخرى . وبالاضافة الى ذلك كان هناك مايسمى بالمدارس الحرة

---

(١) هي مدارس مجانية تعمل في ايام الاحد يقوم بالتدريس فيها طلاب ومعلمون وكتاب وصحفيون بشكل تطوعي ودون مقابل . وقد ظهر هذا النوع من المدارس لاول مرة في أكرانيا في ١٨٥٩ بمبادرة من بعض الاساتذة واغلقتها الحكومة في ١٨٦٢ ولكنها عادت الى الانتعاش من نهاية ثمانينات القرن التاسع عشر .

وهي المدارس التي أنشئت بمبادرة المجتمعات الفلاحية وقد بلغ عدد تلاميذ هذا النوع من المدارس في نهاية القرن التاسع عشر اربعمائة الف تلميذ . لقد بلغ عدد الاطفال الدارسين في المدارس الابتدائية في روسيا حتى نهاية القرن التاسع عشر اربعة ملايين طفل كان البنات يؤلفن ٢٥٪ منهم ، اما الاطفال الذين ظلوا خارج المدرسة ممن هم في سن التعليم فقد بلغ عددهم سبعة ملايين ونصف ، كذلك أخذت المدارس المتوسطة بالزيادة بالتدريج وكان عدد طلابها بشكل عام يزداد بأستمرار وقد ساعدت على ذلك جهود المجالس المحلية ومجالس دوما المدن وكذلك المبادرات الخاصة .

وأدت حاجات المجتمع المتنامية بأستمرار الى نمو التعليم العالي العام والمتخصص أيضاً ، فقد أنشئت في هذه الفترة جامعات جديدة مثل جامعة اوديسا التي انشئت عام ١٨٦٥ وجامعة تومسك التي تأسست في ١٨٨٨ وقد وضعت هذه الاخيرة بداية للتعليم العالي في سيبريا . كذلك أزداد عدد طلاب الجامعات فقد أزداد عدد الطلاب المسجلين في الجامعات الروسية من ٣٥٠٠ طالب في ١٨٥٥ الى أكثر من ١٦ ألف طالب في نهاية القرن .

وكانت متطلبات الحياة الاقتصادية محفزاً لنمو التعليم المهني العالي فتأسست معاهد مهنية عالية في موسكو وريغا وخاركوف وبطرسبورغ وكييف وايكاترينوسلاف وتومسك كما تحولت المعاهد المهنية ذات الطابع العسكري في بطرسبورغ الى معاهد مدنية وقد بلغ عدد طلاب المدارس المهنية العليا في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر مايقارب ٧٥٠٠ طالب . كذلك أنشئ في موسكو وفي بعض مدن الجنوب عدد من المعاهد الزراعية بالاضافة الى الاقسام الزراعية الموجودة في المعاهد المهنية المذكورة . على أي حال أتسع التعليم العالي في روسيا في هذه المرحلة بحيث بلغ عدد طلاب المعاهد العليا باجمعها فيها حتى نهاية القرن مايقارب ثلاثين الف طالب بضمنهم ١٣٠٠ طالبة .

لقد تنامت في هذه المرحلة وسائل التنوير والمعرفة العامة فقبل الاصلاح كانت روسيا لاتكاد تعرف المكتبات العامة كما انها كانت خالية تماماً من قاعات المطالعة وعدد المتاحف فيها كان نادراً أذ لم يكن هناك الا قلة من المتاحف الفنية متركزة في بطرسبورغ وموسكو ، لكن الامور في هذا المجال لم تلبث أن اخذت بالتبدل أبتداءً من ستينات القرن التاسع عشر فأزداد عدد المتاحف والمكتبات ودور العرض الفنية وتعددت بشكل خاص المعارض الصناعية والمعارض الخاصة بالعلوم الطبيعية .

اما شؤون النشر فكانت بالاساس بيد رجال أعمال تحدد نشاطهم الحسابات التجارية لكن روسيا لم تعدم آنذاك منظمات اجتماعية وأشخاصاً منفردين كانوا يصدرون المطبوعات لاهداف التنوير والثقافة العامة . وقد بلغ عدد مخازن بيع الكتب في ر

٢٨١٢ مخزناً في عام ١٨٩٧ ، وأصبحت المجالس المحلية لوحدها تمتلك في نهاية القرن التاسع عشر ثلاثة آلاف مكتبة للمطالعة وهذا بالتأكيد يعكس تطور الطباعة . وقد ساعد على ذلك تطور صناعة الورق وانتشار المطابع التي لم تعد مقتصرة على مركز روسيا فقط بل تعدته الى سيبريا وكازاخستان وآسيا الوسطى وماوراء القفقاس الامر الذي أدى الى أن يتضاعف عدد الكتب المطبوعة بعد الاصلاح عدة مرات فقد أزداد عدد الكتب التي طبعت من ١٧٧٣ كتاباً في ١٨٦١ الى ١٠٣١٨ كتاباً في ١٩٠١ . ومن الملاحظ أيضاً أن عدد الكتب المطبوعة باللغات غير الروسية كاللاتيفية والارمنيه والجورجيه وغيرها قد أزداد هو الاخر .

اما عن المطبوعات الدورية فكانت المجلة تحتل مكان الصدارة بينها آنذاك كما ظهر عدد من المجلات المتخصصة في مختلف فروع المعرفة كالتأريخ والكيمياء وغيرها وصدر عدد من المجلات العلمية المبسطة تميزت من بينها مجلة «حول العالم» التي تأسست في ١٨٦١ وماتزال تصدر الى الأن ولذلك فانها حالياً أقدم مجلة علمية مبسطة في الاتحاد السوفيتي . أما الجريدة فكانت آنذاك متخلفة في مكانتها ودورها عن المجلة ولكن دورها أخذ بالتنامي تدريجياً الى أن أحتلت مركز الصدارة في بداية القرن العشرين وقد بلغ عدد الجرائد اليومية الصادرة في روسيا في أواسط تسعينات القرن التاسع عشر ١٠٥ جرائد .

وهكذا كانت النجاحات التي تحققت في روسيا في مجال التعليم والحصول على المعرفة كبيرة فأرتفع المستوى الثقافي فيها بعد الاصلاح أرتفاعاً كبيراً وأزداد عدد المثقفين بالمقارنة مع ماكانت عليه الحال قبل ذلك .

ومن الناحية الاخرى حقق العلم والتكنولوجيا في روسيا أيضاً تطوراً ملحوظاً خلال هذه الفترة فقد شجعت متطلبات الصناعة المتناميه تطور البحوث العلمية المختبرية وكثيراً ماكانت هذه البحوث تخدم التطور الصناعي ، كذلك أدت متطلبات الزراعة وتربية الحيوانات الى ظهور فروع علمية جديدة منها دراسة التربة والمناخ على سبيل المثال . وقام العلماء الروس برحلات طويلة زاروا خلالها المراكز العلمية في اوربا الغربية وأمريكا فاطلعوا على التقدم العلمي هناك وشاركوا في البحوث والتجارب وكثيراً ماكانوا ينشرون بحوثهم في المجلات العلمية الاجنبية ويلقون المحاضرات في مختلف المراكز العلمية ويشاركون في المؤتمرات والندوات العلمية .

وقد لعبت المؤتمرات العلمية التخصصيه التي عقدت في روسيا في هذه الفترة والنشرات العلمية التي كانت تصدرها دوراً كبيراً في أزدهار الحياة العلمية . وأدت

الحاجة الى الأتصالات العلمية وزيادة النشاط العلمي الى أنشاء مراكز علمية جديدة وتأسيس جميعات علمية جديدة فأزداد عدد المجلات العلمية وأتسعت طباعة الكتب العلمية . وكان ذلك كله مؤشراً على التطور العلمي الكبير الذي حصل في مختلف العلوم الطبيعية التي برز فيها علماء كبار لهم وزنهم العالمي فقد أصبحت بطرسبورغ أكبر مركز علمي في روسيا وبرز فيها عالم الرياضيات المشهور ب . ل تشيبيتشوف (١٨٢١ - ١٨٩٤) الذي ظلت أفكاره تؤثر في تطور الرياضيات حتى أواسط القرن العشرين والذي يؤلف مع تلاميذه مدرسة خاصة في الرياضيات عرفت بأسم مدرسة بطرسبورغ . وحققت الفيزياء أيضاً تطوراً على يد أ . ج . ستوليتوف (١٨٣٩ - ١٨٩٦) الذي يعتبر مؤسس الفيزياء الحديثة في روسيا . وتقدم علم الفلك وكان مديناً بتقدمه الى مرصد بولكوف ومرصد جامعة موسكو فقد أرتبطت بهذين المرصدين مؤلفات وأعمال علماء الفلك الروس التي كان لها دور ملحوظ في تطور الفيزياء الفلكية .

أما في الكيمياء فقد حاز العالم الروسي د . اى . مندلييف (١٨٣٤ - ١٩٠٧) على شهره عالمية بأكتشافه القانون الدوري للعناصر الكيميائية . وقد كان هذا الإكتشاف مهماً بالنسة لتطور علم الكيمياء الى درجة بحيث ان بعض الباحثين يقارن ماقام به مندلييف في تطوير الكيمياء بما قام به دارون في تطوير علوم الحياة . كذلك لمع في روسيا في هذه المرحلة عدد من العلماء الذين حازوا شهرة عالمية في حقل الدراسات البايولوجية من أمثال سيتشينوف (١٨٢٩ - ١٩٠٥) وتمريازوف (١٨٤٣ - ١٩٢٠) وبافلوف وميتشورين . وقد أدى توسع روسيا وضرورة أستغلال مساحتها الهائلة الى تطور الدراسات الجيولوجيه والجغرافية فقد عمل جيولوجيون بارزون على دراسة جيولوجية مناطق روسيا المختلفة ونظم العلماء الروس العديد من البعثات العلمية الى مناطق مختلفة من العالم مثل أمريكا وأفريقيا والهند والصين ومصر ومنغوليا وجزر بولينيزيا وأندونيسيا ومكن نشاط الرحالة الروس من تكوين تصور جديد لاراضي وشعوب لم تسبق رؤيتها من قبل في أسيا والشرق الاقصى وبولينيزيا وغيرها وقامت دراسات مهمة في حقل التربة والمناخ .

ومن الناحية الاخرى أسهم العلماء والتكنوجيون الروس في هذه الفترة في تطور التكنولوجيا في العالم بعدد من الاختراعات المهمة ولاسيما في مجالات التلغراف والكهرباء والتعدين وصناعة المكائن وعلم الملاحه الجوية .

أما العلوم الانسانية فقد كانت الدراسات فيها وثيقة الارتباط بالحياة الاجتماعية والسياسية في روسيا فالى جانب المؤلفات التي تدافع عن الاوضاع القائمة وتكرسها طرح الباحثون والمفكرون التقدميون أفكاراً تقدمية وديموقراطية ثورية في العلوم الاجتماعية .

وقد ارتبطت دراسة التاريخ في روسيا في هذه المرحلة بسولفيوف الذي مر بنا ذكره في الفصل السابق وبتلميذه ف . و . كلوتشيفسكي (١٨٤١ - ١٩١١) ، الذي أهتم بدراسة تاريخ رسيا الأجتماعي والاقتصادي فحاول أن يوضح تاريخ نظام القنانة ودرس عملية أستيطان المناطق المختلفة في روسيا وأستغلالها أقتصاديا وأهتم باصل الطبقات وظهور المؤسسات الاجتماعية والسياسية . والى جانب ذلك عمل مؤرخو بطرسبورغ الكثير في مجال نشر الوثائق والمصادر الاصلية . ومن الملاحظ أن هذه الفترة تميزت بالاهتمام بدراسة تأريخ الاقطار الاجنبية فلمع في هذا المجال مؤرخون بارزون تخصصوا بدراسة تأريخ جميع الاقطار في مختلف العصور . وأتسع في هذه الفترة أيضاً الاهتمام بدراسة الحقوق والشؤون الاقتصادية بالارتباط مع التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في روسيا .

وأذا أنتقلنا الى الانتاج الفني في روسيا فأننا نلاحظ أن هذا الانتاج أقترب في هذه المرحلة من الفولكلور بشكل ملحوظ فقد تحول الكثير من قصائد الشعراء الروسى الى أغاني شعبية أنتشرت على نطاق واسع كما وضع الكثير من الكتاب نتاجهم في متناول جمهرة القراء وظهرت وأنتشرت على أوسع نطاق أغاني سياسية ثورية وبرزت في الانتاج الفني ظواهر مرتبطة بشكل وثيق بنمط الحياة الجديد الذي ساد في روسيا بعد الاصلاح . لقد تميز الانتاج الادبي الروسي بشكل عام في هذه المرحلة بقوته الفنية الخارقة وجماله الأخاذ وروعة نماذجه وجمال ودقة تعبيراته ورقيه الفني . لقد جذب الادب الروسي جمهرة القراء بما كان يتميز به من روح خلقية عالية ودفعهم الى التمعن في مشاكل الحياة الاجتماعية والشخصية وكشف لهم عن أسباب ومسؤولية التأخر الشديد الذي تعانيه روسيا وفقر الاغلبية الساحقة من سكانها رغم غناها الشديد وأشار لهم الى الوسائل التي ينبغي أعتمادها للتخلص من هذا الواقع ، فقد حلل الادباء والكتاب في نتاجاتهم أوضاع المجتمع وشخصوا علله وأقترحوا كلاً حسب أجتهاده العلاج الناجع لهذه العلل .

وقد نجحت الواقعية الأنتقادية في ان تصبح الأتجاه السائد في روسيا في الفترة موضوع البحث ، ففي الوقت الذي زخرت فيه مؤلفات نكراسوف وسالتيكوف - شيدرين وليف نيكولايفتش تولستوى والكثير من مؤلفات دستويفسكي بأنتقاد القنانة والدعوة الى أزالة آثارها من المجتمع وكشفت عن تحلل القيم الاقطاعية وانهيارها فان هؤلاء الكتاب جسدوا في الوقت نفسه بكل وضوح الحياة الواقعية التي كانت تعيشها الجماهير ولا سيما الفلاحون وأحتلت قصائد نكراسوف ومؤلفات ليف تولستوى وغيرهما مكاناً بارزاً في هذا الشأن كما كشف دستويفسكي في الكثير من قصصه ورواياته عن ظروف ومعاناة الفئات

وقد شهد الرسم في روسيا في هذه المرحلة أيضاً تطوراً ملحوظاً ذلك أن
الروتين والمحافظة في أساليب الرسم وموضوعاته المستمدة من الكتاب المقد
والميثولوجيا جعلت الرسم الأكاديمي السائد بعيداً عن المتطلبات القومية وكانت بالت
محفزاً لما يسمى بـ «أحتجاج الأربعة عشر» فقد رفض أربعة عشر من أفضل متخ
الأكاديمية بشكل جماعي في عام ١٨٨٣ الأشتراك في مسابقة لنيل الميدالية الذهبية في رس
أحد الموضوعات الميثولوجية وخرجوا من الأكاديمية بشكل تظاهري .

لقد كان ذلك أحتجاجاً من جيل الرسامين الشباب على واقع الرسم وبداية لفكاحهم
من أجل تأسيس مدرسة قومية واقعية في الرسم . وقد ألف الرسامون المذكورون
مجموعة خاصة بهم للرسم واليهم يعود الفضل الأساس في تطور الفن التشكيلي في روسيا
في تلك المرحلة . لقد كان زعيم هذه المجموعة الرسام كرامسكوي ومن أبرز أعضائها
بيروف وريبين وسوريكوف وغيرهم . وقد لعب ترتياكوف دوراً كبيراً في الدعوة الى رسم
روسي جديد حتى أنه بدأ في عام ١٨٥٦ بجمع لوحات الرسامين الروس الجدد وأستطاع
بعد أربعين سنة أن ينشيء متحفاً ممتازاً للفن القومي الروسي قام بأهدائه الى مدينة
موسكو ، ولا تزال الصور التي جمعها ترتياكوف تؤلف أساس المتحف الفني المعروف
بأسمه في موسكو حالياً .

الثقافة في الأقاليم غير الروسية

كانت الشعوب غير الروسية في الأمبراطورية متباينة في مستوى تطورها الثقافي وكان
الأضطهاد القومي الذي مارسته الحكومة القيصرية ضدها بدرجات متفاوته يعيق النمو
الثقافي لهذه الشعوب . ويتضح هذا التباين من الأختلاف القائم في نسبة غير الأميين بين
أفرادها فأحصاء ١٨٩٧ يشير الى أن نسبة غير الأميين في المحافظات التي يقطنها
الاكرانيون والبيلوروسيون كانت قريبة من متوسط هذه النسبة في عموم روسيا ذلك أن
نسبة من يعرف القراءة والكتابة ممن تزيد أعمارهم عن تسعة سنوات هناك كانت ٢٦٪ ،
أما في منطقة البلطيق فأن هذه النسبة كانت أعلى بدرجة ملحوظة حيث تبلغ ٧٠٪ ،
لكن هذه النسبة كانت في القفقاس شديدة الأنخفاض فهي بين الجورجيين ١٤٪ فقط
أما في آسيا الوسطى فقد كانت أقل من ذلك حيث أنها لم تتعد بين الناطقين باللغة
التركمانية ٣٪ بالنسبة للرجال و ٠ر٧٪ بالنسبة للنساء .

ومع أن تطور الثقافة القومية لدى الشعوب الخاضعة لروسيا محكوم بنشاط الشعب
نفسه ونشاط جماهيره الخلاق الا ان وتائر ومستوى التطور الاقتصادي للشعب المعني

كانت تؤثر دون شك على وتائر نمو الثقافة عنده . وفي هذا المجال لم تكن الظروف ملائمة لشعوب آسيا الوسطى وكازاخستان التي كانت متأخرة في تطورها الأقتصادي عن بقية أجزاء الأمبراطورية . ومع أن ثقافة كل من شعوب الأمبراطورية الروسية كانت تتطور نتيجة لعوامل داخلية تتعلق بالتطور التاريخي للشعب نفسه فأن هذا التطور لم يكن يجري بمعزل عن التأثر بالثقافات الأخرى فقد تأثر الاستونيون واللاتيفيون بالثقافة الألمانية وتأثرت لتوانيا وبعض أجزاء أكرانيا بالثقافة البولندية ، كما أن الثقافة في المناطق الأرمنية التي خضعت لروسيا كانت تتطور بالأرتباط مع ثقافة الأرمن القاطنين في الدولة العثمانية وتأثرت من خلالهم بالثقافة الفرنسية . أما ثقافة أذربيجان وآسيا الوسطى فقد كانت تتطور بالأرتباط مع ثقافة الشرق الأسلامي . وطبيعي أن كل هذه الشعوب كانت تتأثر بالثقافة الروسية وتؤثر فيها طالما أنها كانت خاضعة لروسيا وتعيش مع الشعب الروسي في دولة واحدة .

وبالرغم من العقبات التي كانت الحكومة القيصرية تضعها أمام التطور الثقافي لشعوب غير الروسية فأن تقدماً ملحوظاً جرى في هذا المجال ففي أكرانيا توسعت المؤسسات التعليمية ، وقامت جامعتا كييف وخاركوف وكذلك جامعة نوفورسيسك التي تأسست في ١٨٦٥ بدور ملحوظ وأصبحت هذه الجامعات تسهم في خلق كوادر المثقفين الاكرانيين . وهكذا أخذ التعليم والمعرفة بالأنتشار في أكرانيا بالرغم من أن الحكومة الروسية منعت التعليم باللغة الاكرانية سعياً منها لخنق الثقافة الاكرانية القومية .

وقامت الجمعيات العلمية المحلية بأنجاز بحوث مهمة في مختلف الأختصاصات وساعدت المؤتمرات العلمية التي عقدت في كييف وخاركوف واوديسا على أزدهار النشاط العلمي وأتساع المعرفة في أكرانيا . وبالرغم من ظروف الرقابة التي فرضتها السلطات الحكومية فقد نشأت وتطورت الصحافة في أكرانيا في هذه الفترة وكان بعض المجلات يطبع قسماً من صفحاته باللغة الأكرانية . ولوحظ في هذه الفترة أيضاً تطور في الأدب الاكراني الذي تميز بسيادة الواقعية الأنتقادية فيه أيضاً . وكذلك كان حال الادب في بيلورسيا التي أضطر بعض شعرائها في هذه الفترة الى نشر أنتاجهم في الخارج بسبب ظروف الأضطهاد والأستغلال التي فرضتها السلطات في بيلوروسيا .

أما في ملدافيا فقد كانت المدارس تزداد ببطء شديد بسبب الموقف العدائي الذي كانت تقفه السلطات التي منعت التعليم باللغة الملدافية ولهذا فلم يكن يلتحق في المدرسة في ملدافيا الا ٢٠٪ فقط من الأطفال الذين يبلغون سن التعليم . وكانت نسبة غير الأميين بموجب أحصاء ١٨٩٧ تبلغ ١٤٪ بين الرجال و ٢٪ بين النساء . ولم يكن يوجد في بساربيا أي معهد عالي ، ولهذا لم يبرز من الشخصيات الثقافية في بساربيا الا عدد قليل جداً .

وتميزت منطقة البلطيق في هذه المرحلة بحركة قومية قوية كان الكفاح ضد سيادة الثقافة الألمانية أحد مظاهرها . وقد تخرج من الجامعة الوحيدة هناك وهي جامعة دربت (تارتو حالياً) عدد لايستهان به من الطلبة اللاتيفيين والأستونيين وكذلك بعض اللتوانيين وقدر لبعض هؤلاء أن يلعب دوراً خطيراً في بعث الثقافة القومية لشعوبهم . وفي ١٨٦٢ أفتتح في ريغا معهد تكنولوجي أصبح واحداً من أحسن المعاهد التكنولوجية في روسيا . وقد لعب المثقفون في منطقة البلطيق دوراً مهماً في تطوير الحركة القومية لشعوبهم حيث كانوا يكافحون من أجل تعزيز لغاتهم القومية وتطويرها وأنضم بعضهم الى الجمعيات القومية ونشط فيها . وهكذا حققت الثقافة القومية هناك نجاحات ملحوظة فقد تطور الأدب القومي وبدأت بالأتساع الصحافة القومية وتطورت الموسيقى القومية .

وقد شهدت مناطق القفقاس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر زيادة في وتائر التطور الثقافي بالرغم من عدم وجود معاهد عليا وبالرغم من قلة المدارس وبطء نموها بالمقارنة مع مناطق روسيا الأوربية . وقد تميزت الحياة الثقافية في القفقاس وكذلك فيما وراء القفقاس بصفات مشتركة أهمها بروز الأتجاهات القومية ، فالى جانب تفليس (تبليسي حالياً) التي كانت قبل ذلك المركز الثقافي الوحيد في المنطقة برز الآن دور باكو و يرفان كمراكز جديدة للثقافة وتأسست في مدن ماوراء القفقاس مطابع جديدة وأتسعت وتطورت الصحافة القومية فقد صدرت صحف عديدة باللغات القومية مثل الجورجية والأرمنية والاذربيجانية فكانت من بينها مجلات علمية رصينة وأتجه المسرح الدرامي والموسيقي أتجاهاً قومياً فأخذت المسرحيات تقدم باللغة الجورجية والأذربيجانية والأرمنية . وقد لعب فرع القفقاس للجمعية الجغرافية الروسية الذي تأسس في تفليس عام ١٨٥١ دوراً بارزاً في دراسة القفقاس وتأريخ ولغات شعوبه وثرواته الطبيعية وكان لهذه الدراسات أهمية عملية بالغة فقد ساعدت في تطور أستخراج النفط في القفقاس وفي أستغلال ينابيع مياهه المعدنية في العلاج والصناعة . ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن الكوادر المحلية من المثقفين والعلماء المحليين كانت تشارك في الأعمال والأبحاث التي قام بها فرع الجمعية الجغرافية . كذلك أكتسب أنشاء متحف القفقاس في تفليس وهو أول متحف في المنطقة أهمية بالغة في تطوير المعرفة فقد نظم المتحف المذكور الكثير من البعثات العلمية لدراسة مناطق القفقاس المختلفة وأصبح مركزاً مهماً للحياة العلمية والثقافية هناك .

الفصل الخامس

روسيا في بداية القرن العشرين

ثورة ١٩٠٥ وما بعدها

روسيا في بداية القرن العشرين

ثورة ١٩٠٥ وما بعدها

التطورات الاقتصادية في مفتتح القرن العشرين

جرى التطور الاقتصادي في روسيا في مطلع القرن العشرين على نحو معقد لان عوامل متناقضة في طبيعتها كانت تهيمن عليه وتؤثر فيه ، فمن جهة خلقت الاستفادة من تجربة الاقطار الرأسمالية المتطورة في تنظيم الانتاج وتركز الطلبات الكبيرة في ايدي الدولة وتوفر الايدي العاملة الرخيصة وفيض الرأسمال الاجنبي الظروف اللازمة لتطوير الانتاج بوتائر سريعة ، ومن جهة اخرى كان وجود بقايا نظام القنانة في الاقتصاد وفي النظام السياسي يعرقل التقدم ويزيد من ثقل الاعباء والمشكلات ويعيق تطور الصناعة ومن ثم يحتم تأخر روسيا في المجال الاقتصادي والتكنيكي .

لقد عجل النهوض الصناعي الذي حل في روسيا في تسعينات القرن التاسع عشر من التطور الاقتصادي فيها فقد احتلت روسيا قبل ان يحل القرن العشرين المركز الاول في العالم في انتاج النفط والرابع في صهر الحديد الزهر والسابع في استخراج الفحم وازداد استخدام المكائن الزراعية وجرى التوسع في استخدام العمل المأجور واتسعت علاقة الريف بالسوق الداخلي والخارجي .

لكن بداية القرن العشرين شهدت ازمة صناعية حادة شلت الصناعة وانعكست سلبياً على كل فروع الاقتصاد الاخرى وكانت من حيث الحجم والعواقب اكثر الازمات التي شهدتها روسيا حدة . لقد وصل هبوط الانتاج الصناعي ذروته في ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ثم اعقبت ذلك فترة ركود طويلة استمرت حتى ١٩٠٩ تقريباً . وقد ادت الازمة الى ان يتوقف تجهيز المعامل بالتكنيك الحديث والى تقلص الرأسمال المستثمر في الصناعة بما في ذلك الرأسمال الاجنبي تقلصاً حاداً والى انحسار في تأسيس الشركات الاسهامية الجديدة ففي حين كان عدد الشركات التي اسست في ١٨٩٩ فقط ٣٢٥ شركة بلغ مجموع رأسمالها ٣٦٣ مليون روبل هبط عدد الشركات التي انشئت في ١٩٠٠ الى ٢٠٢ شركة فقط بلغ مجموع رأسمالها ٢٥١ مليون روبل . وقد استمر الانحسار في هذا المجال

في السنوات التالية ايضاً . وكان تقلص توظيف رأس المال قد انعكس سلبياً على الصناعة الثقيلة بالدرجة الاولى.

لم تصب الازمة فروع الصناعة المختلفة بشكل متساو ، فمع ان تقلص الانتاج في فروع الصناعة الخفيفة بدأ من ١٨٩٩ الا ان الهبوط الذي اصاب هذه الصناعة كان بوجه عام غير كبير ولم يستمر الا فترة قصيرة نسبياً وكان مرتبطاً لدرجة ملحوظة بتقلص القوة الشرائية لجماهير الفلاحين نتيجة لسوء المحصول في السنوات الاخيرة . وهكذا فقد ظل تصنيع القطن في ١٩٠٠ والسنة التي تلتها بالمستوى الذي كان عليه في ١٨٩٩ ثم عاد الى الزيادة حتى بلغت نسبة هذه الزيادة ٨٪ في سنة ١٩٠٢ .

غير ان الصناعة الثقيلة كانت اكثر تأثراً بالازمة فقد تقلص صهر الحديد الزهر من ١٧٩ مليون بود في ١٩٠٠ الى ١٥٢ مليون بود في ١٩٠٣ اي بمقدار ١٥٪ لكنه لم يلبث ان عاد الى الزيادة في السنة التالية اي في ١٩٠٤ حتى تجاوز مستوى ماقبل الازمة . ولابد ان نلاحظ ان الصناعة في الجنوب وفي بولندا كانت اكثر صموداً امام الازمة من صناعة الاورال لانها كانت منظمة وفق الاسلوب الرأسمالي ولهذا فانها كانت اكثر تحملاً للتغييرات التي حصلت في مستوى السوق .

لقد هبط في سنوات الازمة صهر الحديد والفولاذ وتقلص صنع القضبان والصفائح وغيرها من المواد اللازمة لانشاء السكك الحديد وذلك نتيجة للتقلص الحاد في بناء طرق جديدة في سنوات الازمة . وهكذا فقد تقلص صنع القضبان في ١٩٠٢ بالمقارنة مع ١٩٠١ بمقدار ٢١٪ وتقلص انتاج القاطرات في ١٩٠٣ بالمقارنة مع ١٩٠١ بمقدار ٢٥٪ . لقد الغي في سنوات الازمة ثمانية عشر مشروعاً في صناعة المعادن كان مجموع رأسمالها ٥٥ مليون روبل . كذلك كان الوضع الذي تعانيه صناعة المكائن ، باستثناء صناعة القاطرات وعربات السكك الحديد ، صعباً للغاية حتى ان عدد المشاريع التي الغيت فيها بلغ ثلاثة وثلاثين مشروعاً كما ان نصف المشاريع المتبقية لم يكن يصيب الربح بشكل مستمر . لقد تقلص عدد العمال المشتغلين في صناعة المعادن والفروع الصناعية المرتبطة بها في ١٩٠٤ بالمقارنة مع ١٩٠٠ بمقدار ١١٤ الف شخص اي بنسبة ٣٠٪ .

غير ان تأثير الازمة في انتاج الفحم كان اقل من ذلك بشكل ظاهر واستخراج الفحم في ١٩٠٢ لم يتقلص الا بمقدار ٣ر٠٪ ومع ذلك فانه عاد الى الارتفاع تدريجياً في السنوات التالية حتى انه ازداد من ٦٨٤ مليون بود في ١٨٩٧ الى ١٠٠٩ مليون بود في ١٩٠١ اي بمقدار ٤٧٪ لكن نسبة الزيادة تقلصت الى ١٣٪ من ١٩٠٢ الى ١٩٠٥ . ومن الملاحظ ان تأثير الازمة كان سيئاً بالدرجة الاولى في صناعة استخراج الفحم

بالقرب من موسكو لان الفحم الذي يستخرج هناك كان من نوعية دنيئة ، اما في سيبيريا فقد كان استخراج الفحم آخذاً بالزيادة .

اما فيما يتصل بالصناعة النفطية فأن تطورها اخذ بالتقلص السريع ابتداءً من ١٩٠٢ وكان السبب في ذلك هو المنافسة والصراع المحتدم في سوق الوقود وانتصار الاستغلال على الحقول النفطية ذات الجدوى الاقتصادية وسياسة الاحتكارات القائمة على تقليل حفر آبار جديدة وأهمال الآبار قليلة المردود رغبة منها في احداث شحة مصطنعة في النفط تؤدي الى زيادة اسعاره .

لقد توقفت في سنوات الازمة الكثير من المعامل عن العمل في حين ان قسماً لايستهان به ظل يعمل بأقل من طاقته كما ان البضائع اخذت تفيض عن حاجة السوق حتى ان نسبة البضائع التي كسدت في صناعة المعادن في الجنوب وصلت في ١٩٠٣ الى ٢٥٪ من الانتاج السنوي . ولم تتحمل الكثير من المعامل سوء الاحوال في السوق وقلة الطلبات فأغلقت ابوابها حتى بلغ عدد المعامل والمصانع التي اغلقت من ١٩٠١ الى ١٩٠٣ ثلاثة آلاف معمل ومصنع اغلبها من الحجم الصغير والمتوسط ، في حين بلغ عدد المشاريع الجديدة التي افتتحت في هذه الفترة نفسها ٧٨ مشروعاً فقط .

اما فيما يخص التجارة فالملاحظ ان التجارة الخارجية بقيت مزدهرة ولاسيما في مجال التصدير ، فقد ظل التوسع في تصدير المنتجات الزراعية قائماً وازداد بعض الشيء تصدير البضائع المختلفة كالنسيج والخامات وغيرها ولكن الإستيراد تقلص في سنوات الازمة بشكل ملحوظ ولاسيما المعدات الصناعية والمعادن والوقود .

اشتدت في سنوات الازمة عملية تركيز الانتاج فلقد افلس الكثير من المشاريع الصغيرة او ابتلعت من جانب المشاريع الاكبر والاقوى ، واشتد ساعد الاحتكارات التي كانت بوادرها الاولى قد ظهرت منذ ثمانينات القرن التاسع عشر واخذت تستحوذ على الفروع الحاسمة في الصناعة وتصبح احد الركائز الاساسية للحياة الاقتصادية في روسيا . وازداد دور المصارف واخذت تتغلغل بشكل فعال في الصناعة وتحولت من مجرد وسيط في التسليف الى منظمات مالية وصناعية غاية في القوة . وقد تميز من بين المصارف الروسية في هذه المرحلة المصرف الدولي ومصرف ازوف والدون والمصرف الروسي للتجارة الخارجية وغيرها . وكان الدور القيادي في الاحتكارات الروسية يعود الى الرأسمال الاجنبي الذي كان يمتلك استثمارات كبيرة في روسيا ولاسيما في الصناعة الثقيلة . وقد ازدادت علاقة اصحاب الاحتكارات من كبار الرأسماليين بجهاز الدولة وثوقاً فكان هؤلاء الرأسماليون يلجأون الى مختلف الوسائل لكسب كبار موظفي الدولة بما في ذلك منحهم مناصب كبرى في المؤسسات الاقتصادية والمالية تدر عليهم ايرادات كبيرة

وهدفهم من ذلك استخدامهم للحصول على امتيازات وافضليات اقتصادية ومالية
وهكذا ظهرت في روسيا في بداية القرن العشرين كل الخصائص التي تميز اقطار اوربا الاستعمارية وان كانت روسيا قد تميزت من بين تلك الاقطار بخاصية انفردت بها هي وجود بقايا لايستهان بها لنظام القنانة في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وقد كانت هذه البقايا تعيق تطور الزراعة والصناعة وتؤدي الى تناقضات حادة في التطور الاقتصادي وفي العلاقات الاجتماعية.

لقد ازداد عدد العمال المشتغلين في مختلف فروع الصناعة حتى بلغ في مفتتح القرن العشرين ٣٫٢٥ مليون عامل. واتسع في سنوات الازمة استخدام النساء والاطفال الذين كانوا يتقاضون اجوراً اقل من اجور الرجال، فقد بلغت نسبة النساء العاملات في المعامل والمصانع ٢٧٪ في سنة ١٩٠٣ يتوزعن على فروع الصناعة المختلفة ولاسيما الخفيفة منها كصناعة النسيج التي بلغت نسبة النساء العاملات فيها ٤٠٪ من مجموع النساء العاملات في فروع الصناعة جميعاً. اما الاطفال فقد بلغت نسبتهم ١١٪ من عمال المصانع والمعامل. ومن الملاحظ ان عدد العمال في المناطق غير الروسية ازداد نتيجة للتطور الاصناعي الذي جرى في تلك المناطق وظهور الصناعة الثقيلة في بعضها مثل اكرانيا وبولندا وباكو ومناطق البلطيق.

لقد ادت الازمة الى تدهور حاد في اوضاع العمال فقد ازداد عدد العاطلين عن العمل حتى بلغ مئات الالوف وكان مستمراً على الزيادة. وكثيراً ماكان اصحاب العمل يخرجون على احكام قانون ١٨٩٧ الذي حدد طول يوم العمل بالنسبة الى الاعمال المختلفة فيجبرون العمال على العمل ساعات اضافية دون اجر. والغيت الساعات الاضافية التي حددها القانون بـ ١٢٠ ساعة في السنة فأزداد نتيجة لذلك يوم العمل بالنسبة الى الاغلبية الساحقة من العمال بسبب الاعمال الاضافية التي كان عليهم ان يؤدوها. ولم يكن من حق العمال ان يتمتعوا بأجازات مدفوعة الاجر او يحصلوا على اعانات في حالة البطالة او اصابات العمل ولم يكن لهم ضمان حكومي. لقد كانت شركات التأمين او اصحاب العمل يمنحون العامل تعويضاً عن الحادث الذي يصيبه اثناء العمل لكن ذلك كان يجري بشكل اعتباطي وهو في اعادة قليل لايكفي العمال المتضررين او ذويهم. وكانت الاجور منخفضة فمعدل اجر العامل هو ١٧٫٨ روبل، في الشهر وهو مبلغ لايكفي لسد الحاجات الاساسية ولاسيما ان الاجر الحقيقي هو اقل من ذلك بكثير وذلك لان جزءاً من الاجر او حتى كله في بعض الاحيان كان يدفع للعامل على شكل بضائع تحسب عليه بأسعار عالية بالرغم من رداءة نوعيتها ولان الغرامات كانت شائعة وتمارس على نطاق واسع وتكاليف المعيشة واجور السكن كانت

تزداد بأستمرار . كذلك كانت اجراءات الامن في المؤسسات الصناعية معدومة من الناحية العملية الامر الذي ادى الى زيادة حوادث العمل فقد ازداد عدد العمال الذين اصيبوا اثناء العمل مثلاً من ٤٨ الف عامل في ١٩٠١ الى ١١٥ الف عامل في ١٩٠٤ . يضاف الى ذلك كله ان العمال لم يكونوا يتمتعون بأي حقوق سياسية كما لم يكن لهم الحق في انشاء منظمات مهنية تدافع عن مصالحهم. وكان حق الاضراب محظوراً عليهم .

لهذا كله فليس من المستغرب ان يستجيب العمال للتحريض ويكونوا في مقدمة العناصر المعارضة الداعية للتغيير ويندفعوا للعمل بنشاط وفعالية ضد الاوضاع القائمة .

لقد ظلت روسيا بالرغم من النجاحات التي حققتها الصناعة فيها بلداً زراعياً متأخراً حيث كان الانتاج الصناعي يحتل المرتبة الثانية بعد الانتاج الزراعي وسكان الريف يؤلفون ٩٧ مليون نسمة من اصل مجموعة سكان روسيا البالغ ١٢٥ر٦ مليون نسمة . وكان الشكل السائد لملكية الارض في المحافظات الروسية الصرف هو ملكية النبلاء شبه الاقطاعية . اما ملكية الفلاحين للارض فقد كانت محدودة جداً علماً بأن الفلاحين الذين استطاعوا الحصول على قطع الارض خاصة بهم كان عليهم ان يدفعوا مقابل ذلك ضرائب باهضة ويؤدوا التزامات ثقيلة . ومن الملاحظ ان الملكية الجماعية للارض كانت موجودة في كثير من مناطق روسيا ولاسيما في وسط القسم الاوربي .

وبالرغم من ان النبلاء فقدوا حتى بداية القرن العشرين جزءاً لايستهان به من اراضيهم الا انهم ظلوا كالسابق يملكون القسم الاغلب من الاراضي المملوكة ملكاً خاصاً . وقد ظلت المزارع الكبيرة التي يسود فيها عمل الاقنان والتي تتفوق في مساحاتها على المشاريع الزراعية من النمط الرأسمالي هي النمط السائد لملكية الارض التي في حوزة المالكين . وكان كبار الملاكين هؤلاء في ١٩٠٥ يملكون ٢٥٪ مجموع الارض كلها في روسيا و ٧٠٪ من الارض المملوكة ملكاً خاصاً .

اما الفلاحون الذين يمتلكون ارضاً فقد كانت اغلبيتهم الساحقة لاتمتلك منها مايكفي لاعالة اسرة الفلاح ذلك ان نمو السكان قد ادى الى ان تصغر قطع الارض وتتقلص بأستمرار حتى وصلت في ١٩٠٥ الى ١ر١١ دسياتينا في المتوسط للبيت الفلاحي الواحد . كذلك ازداد التمايز بين اغنياء الفلاحين وفقرائهم ففي حين تعزز الوضع الاقتصادي للقسم الموسر من الفلاحين الذي كان يتوسع في شراء الارض او تأجيرها

فيركز في يده بالتدريج انتاج الحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية ازداد عدد فقراء الريف الذين كانوا يفقدون ارضهم وماشيتهم بالتدريج فينزحون الى المدن بحثاً عن وسيلة للعيش . ومع ان شراء الفلاحين للارض ازداد في هذه الفترة الا ان ثلاثة ارباع الارض المشتراة حصل عليها الفلاحون الموسرون الذين كانوا جاهدين في السعي لامتلاك الارض لكي يوسعوا استثماراتهم ويزيدوا من انتاجهم لغرض السوق . كذلك ازداد تأجير الفلاحين للارض علماً بان قسماً لايستهان به من الفلاحين لم يكن يدفع قيمة الايجار نقداً وانما كان يسدد ايجار الارض عن طريق العمل لدى صاحبها (اترابوتكا) او يدفع له جزءاً من الحاصل . وانتشرت في هذه الفترة ظاهرة الايجار غير المباشر للارض ونعني ذلك النوع من الايجار الذي لم يكن الفلاح فيه يؤجر الارض من صاحبها مباشرة وانما يفعل ذلك من خلال شخص ثان او حتى ثالث . ومع ان بدلات الايجار كانت عالية فانها كانت مستمرة بالارتفاع مع الوقت حتى انها تضاعفت بالقياس الى ماكانت عليه في العقد الاول بعد اصلاح ١٨٦١ سبع مرات ونصفاً . ولهذا فأن ايجار الارض في بداية القرن العشرين كان يستنفد ٣٤٪ من المردود الاجمالي و ٨١٪ من المردود الصافي لكل دسياتينا من الارض بل انه كان في بعض الاحيان يزيد على ايراد الارض كله . وهكذا لايبقى للفلاح بعد دفع الايجار الا حصة قليلة جداً يذهب جزء لايستهان به منها للايفاء بالالتزامات والضرائب المختلفة . لقد ادى ارتفاع بدلات الايجار الى افلاس الفلاحين واوقعهم في تبعية الملاكين كما ان اسلوب «الاترابوتكا» ادى الى تقليل الاهتمام بتحسين الزراعة وتطويرها .

ومع ان الادوات المستخدمة في الزراعة كانت بدائية الا ان الزراعة لم تستطع استيعاب كل القوة العاملة فقد بلغ الفيض في سكان الريف بموجب الاحصاءات الرسمية ٢٣ مليون نسمة اي اكثر من نصف سكان الريف البالغين . وكان الفلاحون الذين لايجدون لهم عملاً في الريف ينزحون الى المدن باعداد كبيرة للاشتغال في المؤسسات الصناعية هناك او الى المناطق التي يتوفر فيها الطلب على العمل الزراعي ولكن لا هذا ولا ذاك كان قادراً على استيعاب كل فائض الايدي العاملة ، فقد وصل عدد العمال الزراعيين بموجب احصاء ١٨٩٧ ، الى ٤٫٣٢١٫٧٠٠ شخص كان الكثير منهم لايجد عملاً حتى في ظل الظروف القاسية التي كانت هذه الفئة من المجتمع الروسي تعانيها كتدني الاجور وهبوطها في سنوات سوء المحصول وعدم تحديد يوم العمل وانعدام الضمان وماشابه .

لقد نما الانتاج الزراعي في بداية القرن العشرين ولكن ببطء شديد فقد ازدادت مساحة الارض المزروعة من ٨٢٫٢ مليون دسياتينا في ١٩٠٠ الى ٨٧٫٦ مليون دسياتينا

في ١٩٠٥ ؛ وجرى هذا التوسع بالدرجة الاولى في مناطق الاطراف مثل منطقة ما وراء الفولغا ومناطق السهوب في الجنوب وشمال القفقاس وسيبريا حيث خصصت المناطق الجديدة بالاساس لزراعة الحبوب والمحاصيل المستخدمة في الصناعة كالقطن والكتان وبنجر السكر والقنب وماشبه واتسع استخدام المكائن والاسمدة الكيمياوية وغيرها من اساليب تحسين الزراعة وتطويرها ولكن في الاستثمارات الرأسمالية فقط ، اما في مزارع الفلاحين الصغيرة فقط ظلت الزراعة بشكل عام راكدة على حالها .

وكانت انتاجية الزراعة واطئة وقد شمل سوء المحصول في ١٩٠١ ست عشرة محافظة في منطقة الفولغا ومناطق الارض السوداء واكرانيا مما ادى الى انخفاض حاصل الحبوب في تلك السنة الى ١٥٥٢ مليون بود بعد ان كان ٢٩٥٠ مليون بود في السنة التي سبقتها . وقد تكررت رداءة المحصول بعد ذلك اكثر من مرة في بعض المحافظات مما ادى الى زيادة معاناة الفلاحين والفقراء من سكان المدن . وكان عبء الضرائب المباشرة وغير المباشرة يقع بالاساس على الفلاحين . واذا ما علمنا بأن الضرائب غير المباشرة وحدها بلغت في ١٩٠٣ مليار روبل وانها كانت آخذة بالزيادة بأستمرار وان الفلاحين كانوا ملزمين بأن يدفعو ٩٠ مليون روبل سنويا اقساطا للتعويض عن الارض التي حصلوا عليها بموجب اصلاح النصف الثاني من القرن التاسع عشر علمنا اي وضع سيء كان يعيش فيه الفلاحون الروس الذين كانوا يؤلفون الاغلبية الساحقة من السكان وفهمنا الاسباب التي ادت الى اتساع الحركة الفلاحية آنذاك .

الحركة الثورية قبل ١٩٠٥

وسعت الأزمة الصناعية وضغط الحكم المطلق وانعدام الحريات السياسية من استياء جماهير الشعب ، وكان العمال ، نتيجة لاوضاعهم البالغة السوء في مقدمة العناصر المستاءة ولهذا نجدهم يتصدرون الكفاح ضد الاوضاع القائمة ونجد حركتهم تتعمق بحيث تحولت اضراباتهم من الطابع الاقتصادي الذي كان طاغيا عليها في اواخر القرن التاسع عشر الى الاضرابات السياسية والمظاهرات في بداية القرن العشرين . وهكذا زخرت الفترة التي سبقت ١٩٠٥ بالاضرابات والمظاهرات التي قام بها العمال مطالبين بتحديد يوم العمل بثمان ساعات واطلاق الحريات السياسية وتحول بعض هذه الاضرابات والمظاهرات الى صدامات مسلحة مع قوات الشرطة .

واتسعت في هذه المرحلة ايضا الحركة الطلابية التي كانت في البداية موجهة ضد النظام الجامعي الرجعي . فقد عقد الطلاب مؤتمرا لهم في اوديسا في ١٩٠٠ ونظموا العديد من الاجتماعات الحاشدة في مختلف الجامعات وعندما جابهت السلطة الطلاب

بالقمع تضامنت فئات السكان الاخرى معهم الامر الذي اعطى لحركتهم زخما وحو
من النضال من اجل الحرية الاكاديمية الى نضال من اجل حرية الشعب ونقلها من
معاهد الدراسة الى الشارع . وهكذا حدثت في ١٩٠١ مظاهرات طلابية حاشدة
اشتركت فيها فئات اخرى من سكان المدن في كل من خاركوف وموسكو
وايكاترينوسلاف وكييف وغيرها من المدن .

وبمقدار ما كان النضال الثوري يشتد ويتصاعد كانت السلطة تشدد من سياسة القمع
والارهاب فغطت البلد بشبكة من المؤسسات البوليسية وقوات «الجندرمة» وتوسعت في
استخدام القوات المسلحة لقمع المظاهرات والاضطرابات ونظمت المذابح ضد العناصر
الثورية ، وعمدت في الوقت نفسه الى انشاء منظمات عمالية تابعة لها بهدف شق الحركة
العمالية وخلق البلبلة في صفوفها . لكن ذلك كله لم يقض على الحركة الثورية ولم
يضعفها مما اضطر الحكومة الى القيام ببعض التنازلات فاصدرت في ١٩٠٣ قانونين الزم
الاول اصحاب العمل بعلاج العمال الذين يتضررون من حوادث العمل على حسابهم
الخاص وان يدفعوا للعامل في حالة فقدانه لاهلية العمل تعويضا ماليا معينا ، وسمح
الثاني للعمال بأن ينتخبوا مراقبين للمصانع واعطى هؤلاء المراقبين صلاحيات محددة في
مجال الدفاع عن مصالح العمال على ان يصادق على انتخابهم اصحاب العمل .

ولكن اصحاب المصانع جابهوا هذه الاجراءات بمقاومة شديدة وحاولوا اعاقة تنفيذها
كما ان العمال انفسهم لم يقتنعوا بهذه التنازلات واعتبروها قليلة لاتفي بالغرض ولهذا
استمرت اضراباتهم واتسعت من سنة الى اخرى وادت في تموز ١٩٠٣ الى قيام اضراب
عام في جنوب روسيا قدم المضربون خلاله عددا من المطاليب الاقتصادية والسياسية
اهمها المطالبة بيوم عمل من ثمان ساعات واقرار حق الاضراب والتجمع والكلام
والنشر ، كما رفع المضربون شعارات سياسية مثل «تعيش الجمهورية الديمقراطية» ، و
«يسقط الحكم المطلق» وما اشبه . وبالرغم من ان السلطة تمكنت من كسر الاضراب
الذي انتهى بنتائج اقتصادية محدودة ، الا انه ادى الى نمو الوعي السياسي للجماهير والى
زيادة خبرتها في العمل الجماهيري فاسهم بذلك في التمهيد لثورة ١٩٠٥ .

وكانت الحركة الفلاحية آخذة بالاتساع ايضا فلقد حدث في الفترة من ١٩٠٠ الى
١٩٠٣ في القسم الاوربي من روسيا وحده ٥٧٩ اضطرابا فلاحيا حصل ٣٤٠ اضطرابا
منها في سنة ١٩٠٢ وحدها . وقد تحول عدد كبير نسبيا من هذه الاضطرابات الى
انتفاضات حقيقية كان الفلاحون خلالها يحرقون ضياع الملاكين ويقطعون الغابات
ويستولون على الحبوب والدريس . لقد اتسعت الحركة الفلاحية الى درجة دفعت
الحكومة الى زيادة اهتمامها بالمسألة الفلاحية التي كانت مطروحة على بساط البحث منذ

نهاية تسعينات القرن التاسع عشر فتشكلت في بداية ١٩٠٢ لجنة خاصة لبحث [illegible] تراسها وزير المالية فيته وتفرع عن هذه اللجنة عدد من اللجان المحلية واصدر القيصر في شباط ١٩٠٣ بيانا سمح بانتقال الفلاحين من المشاعيات ونص على توسيع نشاط البنك الفلاحي ووعد بأشراك الاشخاص «موضع الثقة» في وضع القوانين . لكن الحكومة لم تلبث ان عادت فأعلنت تحت ضغط الملاكين في كانون الثاني ١٩٠٤ عن المحافظة على نظام المشاعيات واكتفت فقط بالغاء التكافل عنه دفع الضرائب والغاء العقاب الجسدي الذي كانت تحكم به مجالس النواحي .

وانتعشت الحركة الليبرالية ايضا ففي صيف ١٩٠١ عقد عدد من ممثلي المجالس المحلية مؤتمرا سريا ، وفي ايار ١٩٠٢ اشترك ممثلو خمس وعشرين مجلسا في عقد مؤتمر تمخض عن وضع منهاج تضمن مطاليب المجالس المحلية في المسألة الزراعية واتخذ قرارا نص على ان تكون اجتماعات ممثلي المجالس المحلية دورية ، وفي نهاية ١٩٠٣ وبداية ١٩٠٤ تم تأليف «اتحاد اعضاء المجالس المحلية الدستورية» و «اتحاد التحرر» اللذين الفا فيما بعد نواة الحزب الديمقراطي الدستوري .

ومع ان هاتين المنظمتين تختلفان في كثير من الامور ولا سيما في المنهج واساليب العمل الا انهما تتفقان في نقطة مهمة هي ان كليهما يرى ضرورة اجراء اصلاحات دستورية وانشاء مؤسسات تمثيلية بالاتفاق بين القيصرية والبرجوازية الليبرالية . وقد سعت الحكومة من جانبها الى الاتفاق مع الحركة الليبرالية وجرت على هذا الاساس محادثات بين الجانبين .

كذلك انتعشت الحركة الليبرالية المعارضة في الاقاليم غير الروسية نتيجة للسياسة التي كانت الحكومة الروسية تتبعها في تلك المناطق فقد انتهجت السلطات الروسية هناك سياسة الترويس بالقوة ومارست الضغط القومي على الشعوب غير الروسية وتعدت ذلك في بعض المناطق كما هي الحال فيما وراء القفقاس وآسيا الوسطى وكازاخستان الى اعاقة التطور الاقتصادي في هذه المناطق وتكريس التخلف فيها سعيا منها لتحويلها الى مجرد مصدر للخامات للصناعة الروسية . وكانت السلطات القيصرية تمارس القمع والارهاب ضد التتار في القرم والارمن في ارمينيا وتساند البارونات الالمان في البلطيق كما انها باشرت بالغاء مؤسسات الاستقلال الذاتي في فنلندا بالتدريج ففي ١٨٩٩ الغت الحكومة الروسية الدستور الفنلندي ، وفي ١٩٠١ صدر قانون حل التشكيلات العسكرية المحلية في فنلندا وادخلت الحكومة استعمال اللغة الروسية في الكثير من المؤسسات الحكومية واحلت موظفين من الروس في الكثير من الوظائف التي كان الفنلنديون يشغلونها في السابق .

وكان ذلك كله محفزا للنضال التحرري في الاقاليم غير الروسية التي تميز الوضع فيها في هذه المرحلة بانتعاش الحركة القومية والسعي لتاليف احزاب سياسية قومية او توسيع نشاط هذه الاحزاب في المناطق التي كانت موجودة فيها من قبل . فقد ظهر مثلا «الحزب الراديكالي» و «الحزب الديمقراطي اللتواني» في لتوانيا و «الحزب الاشتراكي الاتحادي» في جورجيا, واتسع نشاط «الحزب الوطني الديمقراطي» في بولندا وغير ذلك . اما في وسط آسيا وكازاخستان ومنطقة الفولغا فقد جرى النضال تحت راية الجامعة الاسلامية والجامعة التركية . وكانت اهم مطاليب هذه الاحزاب وغيرها من المنظمات في الاقاليم غير الروسية هي الاستقلال الذاتي وبعض المطاليب السياسية والاقتصادية الاخرى وكانت هذه المطاليب تتفاوت في مدى سعتها من منطقة الى اخرى تبعا للمستوى الذي وصلته الحركة التحررية فيها .

ومن مظاهر انتعاش الحركة الثورية في روسيا في هذه المرحلة ظهور منظمة سياسية جديدة كان لها دورها على مسرح الاحداث السياسية ، فقد اتحدت مجموعات وحلقات الشعبيين التي اشرنا الى قيامها في الفصل السابق في نهاية ١٩٠١ وبداية ١٩٠٢ في حزب سياسي واحد اطلق عليه اسم «الحزب الاشتراكي الثوري» الذي ظل قائما حتى عام ١٩٢٢ .

والى هذه المرحلة من تاريخ روسيا يعود ايضا انقسام الاشتراكيين الديمقراطيين الروس فريقين مافتئ الخلاف بينهما يشتد الى ان انتهى فيما بعد بالقطيعة التامة . فقد شهد المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ١٩٠٣ انقسام المؤتمرين اتجاهين متصارعين اختلفا في الكثير من الموضوعات التي طرحت في المؤتمر ولاسيما حول النظام الداخلي الذي اريد اقراره في المؤتمر . وقد اشتد الخلاف بشكل خاص حول مادة النظام الداخلي التي تتضمن شروط العضوية في الحزب . وعندما انتخب اعضاء المؤتمر اللجنة المركزية احرز انصار الاتجاه الذي يتزعمه لينين الاغلبية فأطلق على هؤلاء منذ ذلك الوقت اسم «البلاشفة» في حين حاز خصومهم الإقلية فأطلق عليهم اسم «المناشفة»[1] .

على اية حال كانت روسيا في مفتتح القرن العشرين تعاني ازمة ثورية حادة فلقد اشتدت الحركة الجماهيرية فيها واتسع النضال الثوري وشمل كل طبقات وفئات المجتمع

---

(١) البلاشفة من الكلمة الروسية «بلشنستفو» التي تعني اغلبية والمناشفة من كلمة «مينشنستفو» التي تعني اقلية .

الاخفاقات التي اصابت روسيا في سياستها الخارجية ولاسيما اندحارها الشنيع امام اليابان في الحرب الروسية - اليابانية التي قامت في ١٩٠٤ . واسهمت في قيامها ووضع البلد على حافة ثورة كبرى لم تلبث ان قامت في ١٩٠٥ .

السياسة الخارجية في مفتتح القرن العشرين

كانت روسيا في هذه المرحلة واحدة من دول العالم الكبرى، لكن التأخر الاجتماعي والاقتصادي الذي تعاني منه كان يضعف من نفوذها على المسرح الدولي ومن تأثيرها في حل قضايا السياسة الدولية المختلفة ولهذا فقد كان تعزيز الحلف الروسي - الفرنسي واحدا من ابرز مهمات السياسة الخارجية الروسية في هذه المرحلة . وهكذا فالى جانب الاتفاق الذي جرى بين الدولتين في ١٨٩٩ بشأن تعزيز التحالف بينهما اضافت الدولتان في ١٩٠٠ الى الحلف العسكري بينهما التزامات جديدة محددة تنفذ في حالة قيام الحرب مع بريطانيا لان هذه الاخيرة كانت آنذاك تسعى للاتفاق مع المانيا . ولكن هذه الالتزامات فقدت معناها بعد ان عقد الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ .

وقد استغل وزير المالية الروسي فيته الخلافات القائمة بين فرنسا والمانيا وفرنسا وبريطانيا للحصول على قروض جديدة من فرنسا الامر الذي ادى الى زيادة ديون روسيا الخارجية بما يزيد على المليار روبل في العقد الاخير من القرن التاسع عشر وحده . وقد ادت هذه القروض دورا كبير الاهمية في اسناد الاقتصاد الروسي خلال الازمة الاقتصادية التي عانت منها روسيا في ١٩٠٠ - ١٩٠٣ فكان ذلك عاملا اضافيا في تعزيز العلاقات بين روسيا وفرنسا .

لقد اتسمت هذه المرحلة بالتعاون بين روسيا والنمسا في البلقان فبعد الاتفاقية التي عقدت بين الدولتين في ١٨٩٧ بشأن المحافظة على الوضع القائم هناك تم بينهما في ١٩٠٣ على اثر الاحداث التي قامت في مقدونيا عقد معاهدة جديدة اتفقتا بموجبها على تقديم عدد من المطاليب الى الدولة العثمانية تتعلق بأقامة رقابة روسية نمساوية مشتركة على عمل الادارة العثمانية في مقدونيا . وفي ١٥ تشرين الاول ١٩٠٤ وقعت الدولتان على اعلان اقرت كل منهما بموجبه التزام الحياد في حالة قيام الحرب نتيجة لهجوم مباشر من قبل دولة ثالثة .

في هذه الاثناء كانت النمسا - المجر والمانيا ماضيتين في التغلغل بالبلقان والدولة العثمانية فقد استحوذت المانيا على الجزء الاكبر من السكك العثمانية وبدأت بأنشاء سكة حديد بغداد التي اصبحت عقدة لخلافات جديدة في الشرق الادنى وفي العلاقات بين

روسيا والمانيا ودفعت روسيا لان توقع مع الدولة العثمانية في ١٩٠٠ على اتفاقية نصت على عدم السماح للاجانب ببناء سكك حديد في تشيرت المتاخمة لحدود القفقاس مباشرة . كذلك وقفت روسيا ضد محاولات المانيا الاستحواذ على النفوذ الاول في الدولة العثمانية عامة وفي المضايق خاصة . غير ان محاولة التوصل مع المانيا الى اتفاقية تقر لروسيا حقوقا استثنائية في المضايق لم تتكلل بالنجاح . لقد كانت السياسة الروسية تهدف الى منع بريطانيا والمانيا من الاستيلاء على المضايق . ومع ان السفير الروسي في اسطنبول نصح حكومته بالاستيلاء عليها الا ان الحكومة الروسية كانت تفضل ان تبقى المضايق بيد الدولة العثمانية الضعيفة وذلك لان روسيا لم تكن في ذلك الوقت تمتلك امكانات فعلية للاستيلاء عليها كما ان اهتمامها كله كان مركزا على الشرق الاقصى ، بالاضافة الى ان العدوان على الدولة العثمانية كان من شأنه كما اعتقد فيته ان يثير حربا اوربية لم تكن روسيا مستعدة لها .

لكن روسيا من الناحية الاخرى كانت تتمتع بمواقع قوية في ايران ، فقد كان الجزء الشمالي من ايران بيد الروس الذين كانت لهم في ذلك البلد ايضا مصرف نشيط وامتياز لبناء ميناء في انزلي على ساحل بحر قزوين وكذلك امتيازات لانشاء طرق خارجية وخطوط للتلغراف وما اشبه . يضاف الى ذلك ان تمويل الحكومة الايرانية كان بيد الحكومة الروسية كلياً وان روسيا عقدت مع ايران في ١٩٠١ اتفاقية تجارية ملائمة للرأسماليين الروس . ولهذا كله فقد رفضت الحكومة الروسية الاقتراح البريطاني القاضي بتقسيم ايران مناطق للنفوذ لانها اعتقدت بأن هذا التقسيم لن يجلب في التطبيق العملي فائدة خاصة لروسيا ولانه يحد من امكانات توسيع النفوذ الروسي في جنوب ايران .

ومع ذلك فقد ظل الكثير من الخطط الروسية الرامية لزيادة التغلغل الروسي في ايران مجرد مخططات على الورق لم يتح لها التنفيذ ، من ذلك مثلاً انشاء سكة حديد وانبوب للنفط يمتد الى الخليج العربي . كما ان الكيروسين الامريكي بدأ في هذه الفترة يرد الى الهند وسواحل الخليج العربي الامر الذي قضى على احتكار روسيا لتجارة الكيروسين مع ايران والهند .

وهكذا يمكن القول بأن المواقع الروسية لم تتعزز في الشرقين الدنى والاوسط عشية الحرب الروسية اليابانية بسبب تركيز الحكومة الروسية لكل جهودها في الشرق الاقصى من جهة وبسبب المجابهة التي صادفتها من بريطانيا ولاسيما في ايران من جهة اخرى .

أما فيما يتصل بالشرق الاقصى فقد تميزت السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر باشتداد التوسع الياباني في الصين وسعي اليابان للاستيلاء بالقوة على كوريا التي كانت آنذاك تابعة للصين كذلك شددت روسيا من توسعها في الشرق الاقصى وتغلغلها

في الصين(١) الامر الذي ادى الى اصطدامها باليابان فتوترت العلاقات بين الدولتين واشتد الصراع بينهما ولاسيما بعد المكاسب التي حققتها اليابان نتيجة لحربها مع الصين عام ١٨٩٤ . وفي خضم هذا الصراع ارسلت روسيا عمارة بحرية احتلت ميناء بورت ارثر (لويشون حالياً) في كانون الاول ١٨٩٧ وتبع ذلك في اذار ١٨٩٨ التوقيع بين روسيا والصين على معاهدة تضمنت شروط استئجار روسيا للقسم الجنوبي من شبه جزيرة لياودون (منطقة كوانتون) والموانيء والجزر المتاخمة له مدة خمس وعشرين سنة . وقد اصبح ميناء بورت آرثر القاعدة الرئيسية لاسطول روسيا في المحيط الهادي وتحول ميناء دالني الى ميناء تجاري مفتوح لسفن الدول جميعاً .

وكانت الولايات المتحدة تعمل على جعل الصين بأجمعها سوقاً للبضائع الامريكية ولهذا لم تكن تسعى لتقسيمها الى مناطق للنفوذ ومن هنا جاء طرحها في اواخر ١٨٩٩ لما يسمى بمبدأ «الأبواب المفتوحة» اي منح حقوق وامتيازات متساوية لجميع الدول في التجارة مع الصين بما في ذلك مناطق الصين المؤجرة من الدول الاخرى ومناطق نفوذ تلك الدول في الصين . وكانت روسيا هي الدولة الوحيدة التي رفضت هذا المبدأ لانها رأت فيه خطراً على مصالحها هنالك ولاسيما في منشوريا . ولهذا اصبحت الحكومة الروسية من ذلك الوقت فصاعداً تجابه في الشرق الاقصى خصماً جديداً هو الولايات المتحدة التي اصبحت تساند اليابان وبريطانيا ضدها . ولكي تحسن روسيا من وضعها في الصراع مع هؤلاء الخصوم الاقوياء سعت الى التخفيف من خلافاتها مع بريطانيا فوقعت معها في نيسان ١٨٩٩ اتفاقية لتحديد مناطق نفوذ كل منهما في مجال بناء السكك الحديد حيث التزمت بريطانيا بعدم الحصول على امتيازات لبناء السكك في المنطقة الواقعة الى الشمال من سور الصين العظيم واقرت بالنفوذ الروسي في تلك المنطقة وتخلت روسيا بالمقابل عن المطالبة بامتيازات لبناء السكك في حوض نهر يانغتسي .

كان التوسع الروسي في الشرق الاقصى يحظى باسناد الحكومة الالمانية لان الدبلوماسية الالمانية كانت تريد ان تدفع روسيا الى التورط في نزاع في الشرق الاقصى لكي ينفسح المجال امام المانيا لتحقيق مخططاتها في اوربا . لكن روسيا كانت تجابه في الشرق الاقصى خصماً قوياً وعنيداً هو اليابان التي أبدت للصين استعدادها لمساعدتها

---

(١) في ١٨٩٥ انشئ المصرف الروسي - الصيني ثم حصلت الصين بضمان من الحكومة الروسية على قرض بشروط جيدة نسبياً . وفي ٣ حزيران ١٨٩٦ عقد بين روسيا والصين حلف دفاعي ضد اليابان حصلت روسيا بعده (في ٨ ايلول ١٨٩٦) على امتياز بانشاء سكة حديد الصين الشرقية عبر منشوريا وكانت لهذه السكة اهمية اقتصادية وعسكرية فائقة . وفي ٩ حزيران ١٨٩٦ عقدت روسيا مع اليابان اتفاقاً اصبح لها بموجبه حق مساو لليابان في تمويل كوريا وفي ان يكون لها هناك خبراء وقوات مسلحة .

ضد روسيا . وقد حاولت الحكومة الروسية أن تدفع اليابان الى التساهل في قضية الصين عن طريق اجراء تنازلات لها في مسألة كوريا ولكن اليابان رفضت ذلك واخذت تستعد للحرب ضد روسيا وازدادت هذه الاستعدادات كثافة بعد فشل المحادثات التي جرت بين الدولتين في بطرسبورغ في تشرين الثاني ١٩٠١ . وفي سياق هذه الاستعدادات عقدت الحكومة اليابانية في ٣٠ كانون الثاني ١٩٠٢ حلفاً مع بريطانيا نص على ان يقف كل من الطرفين على الحياد في حالة دخول الطرف الآخر في حرب مع دولة اخرى من اجل كوريا او الصين وان يتدخل لمساعدة حليفه في حالة دخول دولة ثالثة في هذه الحرب . وبهذا تكون اليابان قد امنت نفسها ضد تدخل الدول الاوربية الاخرى في حالة قيام نزاع مسلح بينها وبين روسيا .

اجبر هذا الحلف روسيا على التراجع فأقرت في معاهدة جديدة عقدتها مع الصين في ٨ نيسان ١٩٠٢ بالتزامها بسحب قواتها من منشوريا خلال سنة ونصف على ان يكون الانسحاب على ثلاث مراحل تستغرق كل منها ستة اشهر وباشرت بتنفيذ عملية الانسحاب الفعلي ، لكن الحزب الرجعي في روسيا الداعي للتوسع في الشرق الاقصى والاحتفاظ بمنشوريا وتحويلها الى اقليم تابع لروسيا حتى لو ادى ذلك الى الحرب لم يلبث ان انتصر فتوقفت عملية سحب القوات الروسية من منشوريا وتقرر اقامة حاميات روسية في الشرق الاقصى لتعزيز المواقع الروسية هناك ، فادى ذلك الى اثارة اليابان وجعل الحرب معها امراً حتمياً . واخذت اليابان تكثف من استعداداتها العسكرية ، وللتغطية على هذه الاستعدادات بدأت مع روسيا في ٣٠ تموز ١٩٠٣ محادثات دبلوماسية في طوكيو ابدت روسيا خلالها استعدادها للاعتراف بمطالب اليابان بشأن كوريا على ان يجري الاعتراف بوقوع منشوريا خارج منطقة النفوذ الياباني . ولكن الاتفاق مع اليابان على هذا الاساس كان مستحيلاً ، والاكثر من ذلك عقدت الحكومة اليابانية وكذلك حكومة الولايات المتحدة معاهدتين تجاريتين مع الصين التزمت هذه الاخيرة بموجبهما بان تفتح امامهما بعض موانئ منشوريا . وبدأت اليابان على هذا الاساس تطالب بحماية مصالحها ومصالح الولايات المتحدة في منشوريا . وكانت روسيا تزيد من تنازلاتها بمقدار ما كان خطر الحرب مع اليابان يقترب وذلك بسبب شعورها بضعفها امام اليابان في الشرق الاقصى . لكن اليابان لم تقتنع واصرت على الحرب ولهذا قطعت محادثاتها مع روسيا في ٩ شباط ١٩٠٤ وهاجمت قواتها روسيا دون ان تعلن عليها الحرب .

خسرت روسيا الحرب بعد سلسلة من الاندحارات المتوالية فاضطرت الى البدء بمحادثات لعقد الصلح . وقد تمخضت محادثات الصلح التي جرت في بورتسموث في الولايات المتحدة عن التوقيع في ٥ أيلول ١٩٠٥ على معاهدة صلح فقدت روسيا

بموجبها نفوذها في كوريا التي اصبحت منطقة للمصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية اليابانية ، وتخلت عن حقها في استئجار بورت ارثر ودالني وعن المنشآت التي تمتلكها فيهما دون مقابل ، كما تنازلت دون مقابل ايضاً عن خط السكة الحديد الذي يربط بين كوانشينز على سكة حديد الصين الشرقية وبورت ارثر مع جميع ملحقاته وعن الجزء الجنوبي من سخالين حتى خط عرض ٥٠ شمالاً . اما مطاليب اليابان في مجال صيد الاسماك فقد تضمنتها اتفاقية خاصة اخرى .

ثـــورة ١٩٠٥

تفاقمت مع سير الحرب ضد اليابان وتوالي الاندحارات العسكرية الازمة السياسية في روسيا فقد شددت الحرب من سوء الوضع الاقتصادي وزادت من معاناة الجماهير وحفزتها الى الثورة ولهذا بدأ منذ ١٩٠٣ نهوض ثوري جديد حيث عمت المظاهرات المعادية للحرب الكثير من المدن وشملت اضرابات العمال في النصف الثاني من ١٩٠٤ عدداً كبيراً منها وحدثت حركات فلاحية عفوية في الكثير من المناطق . وفي نهاية تلك السنة قامت مظاهرات سياسية في بطرسبورغ وموسكو وخاركوف وغيرها من المدن وزاد امتناع المجندين الاحتياط عن الالتحاق بجبهات القتال .

وحاولت الحكومة القيصرية امتصاص النقمة الشعبية المتزايدة عن طريق اتخاذ بعض التدابير التي من شأنها التخفيف من التوتر السياسي السائد في البلاد ، فبعد ان قتل وزير الداخلية المشهور برجعيته فياتشسلاف كونستانتينوفتش بليفه على يد احد الاشتراكيين الثوريين في تموز ١٩٠٤ إتخذ خلفه الامير بيوتر دانيلوفتش سفيتابولك ـ ميرسكي عدداً من الاجراءات في مجال التخفيف من السيطرة على المؤسسات المحلية واعادة اعضاء المجالس المحلية المنفيين من منفاهم وتخفيف الرقابة على الصحافة الليبرالية وغير ذلك من الاجراءات . غير ان ذلك لم يخفف من الاستياء ولم يؤد الى النتيجة المرجوة بل ظل النضال الثوري يتصاعد الى ان تحول الى ثورة حقيقية كان لها اثر كبير في مجمل التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في روسيا .

بدأت الثورة عندما قاد احد رجال الدين هو القس جابون ، اثر اضراب عام قام به عمال بطرسبورغ ، مسيرة سلمية تحمل عريضة تتضمن مطاليب الشعب ليسلمها الى القيصر في قصر الشتاء . لقد اتجهت المسيرة الى قصر الشتاء في يوم الاحد المصادف ٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ وكانت المطاليب التي تضمنتها العريضة هي : ان يكون طول يوم العمل ثمان ساعات وان تعطى الارض للفلاحين وتدعى جمعية تأسيسية وتقر حرية

الكلام والنشر وانشاء الجمعيات والمساواة امام القانون وتنهي الحرب وتفصل الكنيسة عن الدولة . وبدلاً من ان يصغي القيصر لهذه المطاليب قامت قواته باطلاق النار على المسيرة في ساحة القصر فسقط اكثر من الف قتيل وجرح مايقرب من خمسة آلاف شخص . وقد اصبحت هذه الحادثة التي اطلق عليها اسم «الاحد الدامي» السبب المباشر للثورة اذ لم تلبث الجماهير ان رفعت السلاح الذي حصلت عليه من مخازن بيع السلاح ومستودعاته بالقوة واقامت المتاريس في الشوارع وعمت البلاد موجة من الاضرابات لم يسبق لها مثيل اذ بلغ عدد المضربين في كانون الثاني ١٩٠٥ فقط ٤٤٠ ألف . وجرت في بعض المدن صدامات مسلحة مع قوات الجيش والبوليس وفي الوقت نفسه تجددت الحركة الفلاحية ولاسيما في محافظات الارض السوداء فكان الفلاحون يحرقون ضياع الملاكين ويستولون على ممتلكاتهم .

تصاعد النضال الثوري في صيف ١٩٠٥ حيث تحول بعض الاضرابات الى انتفاضة حقيقية استمرت المعارك فيها بين الثوار وقوات الحكومة بضعة ايام . وعم الاستياء في الجيش والاسطول . وفي اسطول البحر الاسود تمرد بحارة الدارعة «بوتومكين» واستولوا على الدارعة وانضمت اليهم سفينة حربية اخرى هي «جورجي بوبيدونوسيتس» ، ولكن بحارة «بوتومكين» اضطروا بعد عدة ايام الى تسليمها الى السلطات الرومانية في ميناء كونستانتسا الروماني بعد ان نفذ الوقود والمواد الغذائية لديهم .

لكن الحكومة استطاعت ان تتفرغ كلياً للثورة بعد عقد صلح بورتسموث مع اليابان فارادت في البداية ان تشق قوى الثورة بأن تجذب الى صفها العناصر المعتدلة فاعلنت في ٦ آب ١٩٠٥ عن انشاء مجلس منتخب هو «دوما الدولة» لكن قانون الانتخاب الذي أعده وزير الداخلية[1] ونشر في اليوم نفسه كان يؤمن الاغلبية المطلقة في المجلس للملاكين والبرجوازية الكبيرة ذلك ان العمال وقسماً كبيراً من البرجوازية المتوسطة حرموا من الانتخاب لعدم توافر الشرط المالي الذي يتطلبه القانون فيهم . كذلك حرم العمال الزراعيون من حق الانتخاب ايضاً لعدم امتلاكهم ارضاً . يضاف الى ذلك ان الانتخابات بموجب هذا القانون كانت على عدة درجات وان الدوما نفسه لم يكن له إلا صلاحيات استشارية فقط .

---

(١) ولهذا يطلق البعض على هذا المجلس اسم «دوما بوليجين» نسبة الى وزير الداخلية أ . ج . بوليجين الذي تولى هذا المنصب من ٢٢ كانون الثاني الى ٢٢ تشرين الاول ١٩٠٥ .

ولهذا كله لم تقنع هذه الخطوة الجماهير الثائرة فاستمرت الثورة بالتصاعد حتى بلغت اعلى ذروة لها في نهاية ١٩٠٥ حيث اتسعت الاضرابات وازدادت وتواترت السياسة منها . لقد بدأت الاضطرابات هذه المرة في موسكو ثم اتسعت بحيث شملت البلاد كلها التي لفها من اقصاها الى اقصاها في تشرين الاول ١٩٠٥ ، اضراب سياسي عام شارك فيه من العمال والمستخدمين فقط مليون و ٧٥٠ ألف شخص فشلت الحياة في البلاد وتحولت قاعات التدريس في الجامعات الى اماكن للتجمعات الجماهيرية وجرت اكثر من مرة صدامات مسلحة ومعارك بمتاريس في الشوارع بين الثوار وقوات السلطة .

ادركت الحكومة بانها لن تستطيع اخماد الثورة بالقوة المسلحة وحدها لاسيما ان الاستياء شمل الجيش الذي ظهر فيه التردد واضحاً ، ولهذا فقد تقررت القيام بتنازلات جديدة الهدف منها كسب الوقت من اجل قمع الثورة . وهكذا اصدر القيصر نيقولا الثاني في ١٧ تشرين الاول ١٩٠٥ بياناً منح فيه الشعب الحقوق السياسية واعلن عن دعوة دوما تشريعي . وفي الوقت نفسه عين وزير المالية ويته رئيساً لمجلس الوزراء وهو منصب استحدث مؤخراً .

قابلت الاوساط الليبرالية بيان القيصر هذا بابتهاج كبير وبادرت الى تأليف الاحزاب السياسية فشكل كبار البرجوازيين وبعض ملاكي الارض حزب «اتحاد ١٧ تشرين الاول» والف قسم من الملاكين الليبراليين وبعض البرجوازيين والمثقفين «الحزب الديمقراطي الدستوري»[1].

كذلك ادى الاضراب السياسي العام في تشرين الاول ١٩٠٥ الى نهوض ثوري كبير والى اتساع حركة التحرر الوطني في الاقاليم غير الروسية . واتسع النشاط السياسي للجماهير فبادرت الى انشاء مجالس خاصة بها ونعني سوفيتات[2] نواب العمال والجنود والفلاحين . ومع ان صراعاً حاداً جرى بين البلاشفة والمناشفة والاشتراكيين الثوريين للسيطرة على هذه المجالس مما كان يعيق اعمالها الا ان بعضها تصرف وكأنه يمثل سلطة الثورة فكان هذا البعض يلغي اوامر الحكومة القيصرية ويستولي على المطابع ويطبع بها مطبوعاته الخاصة ويدافع عن الشغيلة ويحافظ على النظام العام ويشكل فصائل من المتطوعين ويجمع النقود لغرض التسليح وغير ذلك من اوجه النشاط .

---

(١) يطلق على اعضاء حزب «اتحاد ١٧ تشرين الاول» اسم «الاكتوبريون» نسبة الى شهر اكتوبر (تشرين الاول) الذي سمي به ، ويطلق على اعضاء «الحزب الديمقراطي الدستوري» اسم «الكاديت» وهي تسمية مشتقة من الحروف الاولى للكلمات التي تؤلف اسم الحزب باللغة الروسية .

(٢) تعني كلمة «سوفيت» الروسية مجلس وقد استغلت هذه التجربة في ثورة شباط (اذار) ١٩١٧ لتشكلت في روسيا خلال تلك الثورة مجالس من هذا النوع .

وحدثت في هذه الاثناء انتفاضات جديدة في الجيش والاسطول . ففي تشرين الاول حدثت انتفاضات في مينائي كرونشتادت وفلاديفستوك وفي تشرين الثاني قام الجنود والبحارة بانتفاضة كبيرة في سيفاستيبول اشتركت فيها اثنتا عشرة سفينة حربية من سفن اسطول البحر الاسود ، وانتفض الجنود في كل من كييف وخاركوف . ومع ان الحكومة استطاعت اخماد هذه الانتفاضات في المدن الا ان الحركة الفلاحية كانت آخذة بالاتساع في الريف بحيث شملت الاضطرابات الفلاحية في أيلول - كانون الاول نصف أقضية روسيا بأجمعها بعد ان كانت في بداية السنة تشمل خمسها فقط . لقد حطم الفلاحون في هذه الاشهر الثلاثة وأحرقوا اكثر من الفي ضيعة من ضياع الملاكين ، وكانت اللجان والمجالس الفلاحية توزع الارض والاملاك التي تستولي عليها من الملاكين وتعين رواتب العمال الزراعيين وتعزل السلطات الحكومية في القرى والنواحي وتستبدلها بأدارة من الثوار . وفي تشرين الثاني ١٩٠٥ طالب اتحاد فلاحي عموم روسيا وهو منظمة يسيطر عليها الاشتراكيون الثوريون ظهرت في صيف ١٩٠٥ ، بتحويل الارض الى ملكية عامة للشعب وهدد بالاضراب العام في حالة الامتناع عن تنفيذ هذا المطلب .

وفي ٣ كانون الاول اصدر سوفيت بطرسبورغ بالاشتراك مع منظمات ثورية اخرى بيانا دعا فيه السكان الى الامتناع عن دفع الضرائب والى سحب ودائعهم من صناديق التوفير فردت السلطات على ذلك باعتقال جميع اعضاء السوفيت واغلقت عدداً من الصحف اليسارية فأنتقل مركز الحركة الثورية الى موسكو التي كان السوفيت فيها يعد القيام بأنتفاضة مسلحة . وقد بدأت الانتفاضة فعلا بأضراب سياسي عام في ٧ كانون الاول سيطرت بعده السوفيات على المدينة واخذت تتصرف كسلطة لكن القوات الحكومية تمكنت في النهاية من التغلب على الثوار واضطرتهم في ١٩ كانون الاول الى القاء السلاح . وفي الوقت نفسه جرى اخماد انتفاضات مسلحة مشابهة قامت في أنحاء مختلفة من البلاد .

لقد اخفقت هذه الانتفاضات لانها لم تحدث في وقت واحد بل قامت في اوقات متفاوتة مما سهل على الحكومة اخمادها ، كما انها لم تكن تخضع لمركز قيادي موحد ولم تكن لها خطة موحدة . يضاف الى ذلك ان الجماهير لم تكن تمتلك خبرة في الكفاح المسلح .

على اية حال بدأت الثورة بعد اخماد هذه الانتفاضات بالانحسار تحت تأثير القمع الشديد الذي مارسته السلطة فعلى الرغم من النشاط الذي شهدته الحركة الفلاحية في ١٩٠٦ واتساع الحركة الثورية في الجيش فان الثورة كانت بشكل عام آخذة بالانحسار فقد تقلصت الاضرابات واستشرت الرجعية واتسع هجوم عناصر الثورة المضادة ونقلت

وحدثت في هذه الاثناء انتفاضات جديدة في الجيش والاسطول . ففي تشرين الاول حدثت انتفاضات في مينائي كرونشتادت وفلاديفستوك وفي تشرين الثاني قام الجنود والبحارة بانتفاضة كبيرة في سيفاستيبزل اشتركت فيها اثنتا عشرة سفينة حربية من سفن اسطول البحر الاسود ، وانتفض الجنود في كل من كييف وخاركوف . ومع ان الحكومة استطاعت اخماد هذه الانتفاضات في المدن الا ان الحركة الفلاحية كانت آخذة بالاتساع في الريف بحيث شملت الاضطرابات الفلاحية في أيلول - كانون الاول نصف أقضية روسيا بأجمعها بعد ان كانت في بداية السنة تشمل خمسها فقط . لقد حطم الفلاحون في هذه الاشهر الثلاثة وأحرقوا اكثر من الفي ضيعة من ضياع الملاكين ، وكانت اللجان والمجالس الفلاحية توزع الارض والاملاك التي تستولي عليها من الملاكين وتعين رواتب العمال الزراعيين وتعزل السلطات الحكومية في القرى والنواحي وتستبدلها بأدارة من الثوار . وفي تشرين الثاني ١٩٠٥ طالب اتحاد فلاحي عموم روسيا وهو منظمة يسيطر عليها الاشتراكيون الثوريون ظهرت في صيف ١٩٠٥ ، بتحويل الارض الى ملكية عامة للشعب وهدد بالاضراب العام في حالة الامتناع عن تنفيذ هذا المطلب .

وفي ٣ كانون الاول اصدر سوفيت بطرسبورغ بالاشتراك مع منظمات ثورية اخرى بيانا دعا فيه السكان الى الامتناع عن دفع الضرائب والى سحب ودائعهم من صناديق التوفير فردت السلطات على ذلك باعتقال جميع اعضاء السوفيت واغلقت عدداً من الصحف اليسارية فأنتقل مركز الحركة الثورية الى موسكو التي كان السوفيت فيها يعد القيام بأنتفاضة مسلحة . وقد بدأت الانتفاضة فعلا بأضراب سياسي عام في ٧ كانون الاول سيطرت بعده السوفيات على المدينة واخذت تتصرف كسلطة لكن القوات الحكومية تمكنت في النهاية من التغلب على الثوار واضطرتهم في ١٩ كانون الاول الى القاء السلاح . وفي الوقت نفسه جرى اخماد انتفاضات مسلحة مشابهة قامت في أنحاء مختلفة من البلاد .

لقد اخفقت هذه الانتفاضات لانها لم تحدث في وقت واحد بل قامت في اوقات متفاوتة مما سهل على الحكومة اخمادها ، كما انها لم تكن تخضع لمركز قيادي موحد ولم تكن لها خطة موحدة . يضاف الى ذلك ان الجماهير لم تكن تمتلك خبرة في الكفاح المسلح .

على اية حال بدأت الثورة بعد اخماد هذه الانتفاضات بالانحسار تحت تأثير القمع الشديد الذي مارسته السلطة فعلى الرغم من النشاط الذي شهدته الحركة الفلاحية في ١٩٠٦ واتساع الحركة الثورية في الجيش فأن الثورة كانت بشكل عام آخذة بالانحسار فقد تقلصت الاضرابات واستشرت الرجعية واتسع هجوم عناصر الثورة المضادة ونقلت

الحكومة اعداداً كبيرة من قوات الجيش من المناطق الحدودية إلى الداخل واقيمت محاكم ميدان عسكرية واقيل فيته وعين لرئاسة مجلس الوزراء بدلا منه احد الوجهاء المحافظين هو ايفان لوجينوفتش جوريميكين الذي لم يلبث ان استبدل بأحد غلاة الرجعيين هو بيوتر اركاديفتش ستوليبين الذي عين رئيساً لمجلس الوزراء في ٨ تموز ١٩٠٦ مع احتفاظه بمنصب وزير الداخلية الذي كان يشغله منذ ٢٦ نيسان ١٩٠٦ .

غير أن الحكومة القيصرية لم تنتصر على القوة وحدها في محاولتها للقضاء على الثورة بل اتخذت بعض التدابير التي من شأنها التخفيف من الاستياء العام فأصدرت في ١١ كانون الاول ١٩٠٥ ، وكانت الانتفاضة المسلحة في ذروتها ، قانون انتخاب دوما الدولة الذي اعده فيته .

لقد حرم من حق الانتخاب بموجب هذا القانون العسكريون والنساء وافراد بعض الشعوب غير الروسية كذلك كل من يقل عمره عن خمس وعشرين سنة ، كما تضمن عددا من القيود حرم نتيجتها ثلاثة ارباع العمال من المشاركة في الانتخابات . ومع ان الانتخابات لم تكن مباشرة فان القانون قسم الناخبين الى مراتب متعددة حسب الطبقة التي ينتمون اليها وحسب مقدار الملكية التي بحوزتهم . ولم يكن التمثيل بالنسبة الى هذه المراتب متساويا ، ففي الوقت الذي كان فيه كل الفين من مرتبة الملاكين اصحاب الارض ينتخبون ناخباً ثانوياً واحداً كان الناخب الثانوي الواحد يمثل سبعة الاف بالنسبة الى مرتبة سكان المدن وثلاثين الفا بالنسبة الى الفلاحين وتسعين الفا بالنسبة الى العمال . وكانت الانتخابات تجري على اربع درجات بالنسبة الى الفلاحين وعلى ثلاث درجات بالنسبة الى العمال . لقد ارادت الحكومة القيصرية بهذه التدابير المعقدة التأثير في سير الانتخابات وايصال العناصر التي تريدها الى الدوما .

لقد اشتركت القوى السياسية جميعا في الانتخابات بأستثناء البلاشفة الذين دعوا الشعب الى مقاطعتها ولكن دعوتهم هذه لم تصادف النجاح .

جرت الانتخابات وفاز الحزب الديمقراطي الدستوري (الكاديت) بأغلبية المقاعد وافتتح الدوما الاول وهو اول مجلس تشريعي في تاريخ روسيا في ٢٧ نيسان ١٩٠٦ وكانت قضية الارض في مركز متقدم من اهتمامه فقد الف نواب الفلاحين كتلة خاصة بهم فيه اطلق عليها أسم «جماعة العمل» وطرح الكاديت مشروعا لحل القضية الزراعية يقوم على مصادرة جزء من اراضي الملاكين مقابل تعويض عال نسبيا ، لكن نواب «جماعة العمل» رفضوا هذا المشروع وطرحوا بدلا منه مشروعهم الخاص الذي يتضمن نقل ملكية الارض بأجمعها الى الشعب عن طريق انشاء صندوق عام للارض يقوم بتوزيعها بالتساوي على من يزرعها بجهده الخاص على ان يجري اعداد وتنفيذ هذا

الاصلاح من لجان خاصة تنتخب في المكان المعني على اساس التصويت العام المباشر والسري . اما التعويض الذي سيدفع لمالكي الارض التي سيجري الاستيلاء عليها نينبغي ان تدفعه الدولة .

بدأ الدوما بمناقشة المسألة الزراعية في حزيران ١٩٠٦ وكانت هذه المناقشة مدعاة لان تنتعش الحركة الفلاحية مجدداً الامر الذي اثار مخاوف السلطة فأصدر القيصر في ٨ تموز ١٩٠٦ امرا بحل المجلس . وقد رد الكاديت وجماعة العمل على ذلك باصدار بيان دعوا فيه الشعب الى الامتناع عن دفع الضرائب والامتناع عن الخدمة في الجيش وغير ذلك من اوجه المقاومة السلبية . وقد اجبر الضغط الشعبي الحكومة على اجراء انتخابات جديدة في خريف ١٩٠٦ .

افتتح المجلس الجديد (الدوما الثاني) في ٢٠ شباط ١٩٠٧ وكان اكثر يسارية من سابقه حتى ان خطب بعض نوابه تحولت الى تظاهرات سياسية ضد القيصرية الامر الذي جعله خطراً على النظام ولهذا بادرت السلطات في ٣ حزيران ١٩٠٧ الى حله واعتقال النواب الاشتراكيين الديمقراطيين فيه متهمة اياهم بتدبير مؤامرة ضد النظام ، واصدرت في الوقت نفسه قانون انتخاب جديد كان اكثر رجعية من سابقه . وكان هذا العمل خروجاً على بيان ١٧ تشرين الاول ١٩٠٥ الذي نص على ان اي قانون جديد لايمكن ان يقر دون مصادقة الدوما ولهذا يعد الكثير من المؤرخين هذا العمل من جانب الحكومة بمثابة انقلاب حكومي سادت روسيا على اثره موجة من الرجعية السياسية لم يسبق لها مثيل .

وهكذا اخفقت ثورة ١٩٠٥ وكانت اهم اسباب هذا الاخفاق هي افتقار الجماهير للخبرة في الكفاح المسلح وعدم التنسيق في الفعليات الثورية التي قام بها الفلاحون في الريف والعمال وبقية فئات السكان في المدن وعدم استعداد الاغلبية الساحقة من الفلاحين للتخلي عن القيصر رغم رغبتهم في التخلص من الملاكين وبقاء الجيش من حيث الاساس مخلصاً للنظام القيصري رغم الفعاليات الثورية التي قام بها الجنود واخيراً المساعدات المالية الكبيرة التي قدمها الرأسماليون الاجانب للحكومة الروسية خوفاً من فقدان استثماراتهم في روسيا وخشية من انتشار عدوى الثورة الى اقطار اوربا الغربية .

لقد اخفقت ثورة ١٩٠٥ ولكنها تركت آثاراً واضحة واحدثت تغييرات ملحوظة في المجتمع الروسي فلاول مرة في تاريخ روسيا تحصل الجماهير الشعبية على الحريات السياسية بالرغم من ان ذلك لم يستمر الا مدة قصيرة . كذلك ظهرت في اثناء الثورة الصحافة الثورية والديمقراطية علانية وتشكلت احزاب سياسية وقام العديد من النقابات المهنية والمنظمات الثقافية والتنويرية واقرت بعض الاجراءات التقدمية في المجال

الاقتصادي مثل تقليص يوم العمل وتقليل الغرامات وزيادة اجور العمال في عدد من فروع الصناعة والغاء بدلات التعويض عن الارض التي تسلمها الفلاحون بموجب اصلاح ١٨٦١ وتخفيض اسعار الارض وبدلات ايجارها بالنسبة الى الفلاحين . كذلك ادت الثورة الى تعجيل التطور السياسي للشعوب غير الروسية في الامبراطورية وقامت لدى هذه الشعوب صحافتها القومية وخطت اداباها وثقافتها بشكل عام خطوات ملحوظة الى الامام ..

السياسة الداخلية بعد الثورة

كان حل الدوما في ٣ حزيران ١٩٠٧ ايذاناً بطغيان موجة من الرجعية والقمع السياسي لم يسبق لروسيا ان شهدت مثيلا لها من قبل ، فقد اعدم المئات واعتقل ونفى وحكم بالاشغال الشاقة عشرات الالوف ممن شارك في الثورة والغيت المنظمات التي قامت اثناء الثورة ومورست ضد العمال على نطاق واسع الاجراءات التعسفية كالتسريح الكيفي والفصل التأديبي وغيرها والغيت المكاسب الاقتصادية التي انتزعوها في ايام الثورة حيث اطيل يوم العمل مجدداً وأصبح يتراوح مابين ١٠و١٢ ساعة وجرى التوسع في استخدام النساء والاطفال بدلا من الرجال وهكذا .

اما في الريف فقد رفع الملاكون بدلات ايجار الارض وزادوا من الغرامات التي تفرض على الفلاحين لاسباب مختلفة . وفي الاقاليم غير الروسية شددت الحكومة من سياستها الشوفينية فالغت العديد من المكاسب التي حققتها الشعوب غير الروسية وتعرضت ثقافة تلك الشعوب للمضايقة فاغلقت الكثير من الصحف والمجلات والجمعيات الثقافية التي ظهرت اثناء الثورة ومنع اصدار الكتب والصحف باللغات القومية وتعرض المعلمون الذين يدرسون اطفال تلك الشعوب بلغتهم القومية الى الملاحقة .

ومع ذلك فقد ادركت السلطة القيصرية بأن العودة الى اشكال الحكم السابقة لم تعد ممكنة وان الاحتفاظ بالسلطة يحتم اللجوء الى اشكال واساليب جديدة للحكم . ولهذا فقد احتفظت بالدوما لكي تتخذه مركزا تتكتل فيه العناصر المضادة للثورة من جهة ولكي يكون واجهة برلمانية تحتاج اليها القيصرية امام الرأي العالمي من جهة ثانية ولكي تخدع بواسطتها الجماهير وتشق قوى الثورة من جهة ثالثة . ولتحقيق هذه الاهداف جاء قانون الانتخابات الجديد الذي صدر في ٣ حزيران ١٩٠٧ زاخرا بالقيود

التي تحد من حق الانتخاب بحيث لم يحصل على هذا الحق بموجبه الا ١٥٪ فقط من رعايا الامبراطورية الروسية . فقد حرم القانون شعوب آسيا الوسطى من حق المشاركة في الانتخابات ووضع الكثير من القيود على مشاركة سكان بقية المناطق غير الروسية . وفي حين ضاعف القانون الجديد عدد الناخبين الثانويين من الملاكين تقريباً فانه قلص عددهم الى النصف بالنسبة الى الفلاحين ، وقسم سكان المدن الى فئتين تضم الاولى اصحاب الملكيات الكبيرة الذين منحوا افضليات كبيرة بالمقارنة مع افراد الفئة الثانية التي تضم العناصر الاقل ثراء . وهكذا فقد اصبح النبلاء وكبار البرجوازيين يؤلفون ثلاثة ارباع عدد الناخبين الثانويين واصبح معدل تمثيل مالكي الارض يفوق معدل تمثيل التجار واصحاب المصانع بأكثر من اربع مرات . وقد ادى ذلك كله بالاضافة الى الجو الرجعي الذي جرت الانتخابات في ظله الى ان تفوز بأغلبية المقاعد في المجلس العناصر الرجعية واليمينية من مختلف الاتجاهات . وكان لدى هؤلاء من الوسائل ما يمكنهم من افشال اي لائحة قانونية لايريدونها كما ان اي قانون لايعد نافذا حتى لو صادق عليه الدوما الا اذا اقترن بمصادقة مجلس آخر هو مجلس الدولة الذي كان يتألف من عناصر مغرقة في الرجعية . يضاف الى ذلك ان القيصر كان يمتلك حق الاعتراض على اي قانون لايريده ويلغيه .

كانت السلطة تسعى لان توسع من القاعدة الاجتماعية التي ترتكز عليها ولاسيما ان تجربة الثورة اظهرت ان القيصرية لايمكنها الاعتماد على الفلاحين قوة محافظة مؤهلة لان تصبح سندا للحكم المطلق ، ولهذا قررت الغاء الاستغلال الجماعي للارض (المشاعية الفلاحية) الذي ذكرنا في الفصل السابق انها اقرته لانه وسيلة ملائمة لضمان جباية الضرائب وتنفيذ الفلاحين للالتزامات المفروضة عليهم طالما ان المشاعية بأسرها كانت مسؤولة عن كل فلاح فيما يتعلق بدفع الضرائب وايجار الارض وتنفيذ الالتزامات الاخرى .

لقد ارادت الحكومة بالغاء المشاعية التعجيل بأنقسام الفلاحين الى فئة موسرة (الكولاك) أعتقد ستوليبين انها ستصبح سندا موثوقاً للحكم القيصري واخرى فقيرة توفر اليد العاملة الرخيصة للملاكين ورجال الاعمال . وتحقيقاً لهذه الاهداف صدر في ٩ تشرين الثاني ١٩٠٦ مرسوم اعطى لكل صاحب بيت في المشاعية الفلاحية الحق في ان يطلب الانفصال عنها وتحويل قطعة الارض التي يزرعها الى ملكية خاصة له يستطيع ان يبيعها او يرهنها او يورثها لورثته . واصبح من حقه بعد ان يقر له بالانفصال عن المشاعية ان يستبدل قطع اراضيه المتفرقة في قطعة واحدة اكبر وان ينزح عن القرية ويقيم مزرعة خاصة به .

لقد كان هذا الاجراء لصالح الكولاك الذين استطاعوا حتى هذا الوقت أن يستحوذوا بالايجار اوبغيرة على مساحات لايستهان بها من اراضي الفلاحين الفقراء ، فأخذت هذه الفئة من الفلاحين تزداد عددا وتأثيراً حتى انها اصبحت قبل الحرب العالمية الأولى تنتج نصف كمية الحبوب المخصصة للبيع في الاسواق الداخلية والخارجية . وبالرغم من ان هذا الاجراء لم يمس العقبة الاساسية امام تطور الزراعة في روسيا ونعني ملكية الارض الكبيرة الا انه قضى بالغاء شكل لملكية الارض لم يعد ملائماً للظروف الجديدة فأسهم بذلك في دفع التطور في المجال الزراعي بعض الشئ .

وعمدت الحكومة في سياق الاصلاحات الزراعية التي نفذتها في هذه الفترة الى زيادة دور البنك الفلاحي الذي نشط في شراء الارض من كبار الملاكين بالدرجة الاولى وبيعها على شكل قطع منفصلة مما يمكن ذوي الدخل المحدود ولاسيما الكولاك من شرائها ، فأسهم بذلك في التغيير الذي جرى في الريف الروسي . كذلك انتهجت الحكومة سياسة تشجيع الفلاحين على النزوح الى سيبريا والشرق الاقصى وآسيا الوسطى والقفقاس وكان الهدف من هذه السياسة هو التخفيف من طلب الفلاحين للارض في وسط البلاد ولاسيما في محافظات الارض السوداء الكثيفة السكان وابعاد الفلاحين المستائين االى الاطراف مما يؤدي الى اضعاف الحركة الثورية واتخاذ النازحين الروس الى الاقاليم غير الروسية قاعدة جماهيرية لانتهاج سياسة ترويس الشعوب غير الروسية واضطهادها . غير ان هذه السياسة لم يكتب لها النجاح فلم يستقر في المناطق الجديدة ويكون استثمارات خاصة الاعداد قليلة من النازحين ذلك ان الاغلبية الساحقة منهم وقعت تحت استغلال الكولاك المحليين او تشردت في اصقاع سيبريا بحثاً عن عمل او عادت بعد ان اضناها الجوع والفقر الى بلدانها التي نزحت منها ، حتى ان عدد هؤلاء العائدين بلغ في سنة ١٩١١ وحدها ١١٦ الفاً وهو رقم يؤلف ٦٠٪ من النازحين الى سيبريا في تلك السنة .

لقد نفذت الحكومة مرسوم ٩ تشرين الثاني على الرغم من ان الدوما الاول والثاني لم يصادقا عليه . وعندما انعقد الدوما الثالث قدم المرسوم اليه فأقره بعد أن ادخل عليه عدداً من التعديلات عززت الجوانب السلبية فيه ولاسيما تلك التي تعطي للاصلاح طابعا اجبارياً . وفي ١٤ حزيران ١٩١٠ صادق عليه القيصر فأصبح نافذاً . ثم صدر في ايار ١٩١١ قانون آخر مكمل له زاد من وسائل الضغط على المشاعية ومنح لجان تنفيذ الاصلاح صلاحيات واسعة ضدها .

لم تحقق سياسة الحكومة الزراعية هذه النجاح المطلوب اذ لم تحقق الاستثمارات الفردية التي يملكها الفلاحون في الريف الانتشار الذي اريد لها فلم تبلغ هذه الاستثمارات حتى

١٩١٧ الأعشر مجموع الاستمارات الفلاحية الموجودة في روسيا وكان اغلبها يتركز في الشمال الغربي والجنوب الشرقي . اما مناطق روسيا الاخرى ولاسيا محافظات الارض السوداء في الوسط فقد ظلت المشاعية قائمة فيها . كذلك ظلت اساليب الاستغلال السابقة شائعة في الزراعة وظلت الادوات البدائية السابقة هي السائدة في العمل الزراعي بالرغم من توسع الملاكين والكولاك في استخدام المكائن الزراعية الحديثة في مزارعهم وظل فقراء الفلاحين يؤلفون اغلبية سكان الريف حيث كانت نسبتهم ٦٠٪ في ١٩١٢ . ولهذا كله فقد بقيت الزراعة متخلفة وظلت روسيا واحدة من اكثر اقطار اوربا تأخراً من حيث انتاجية العمل الزراعي .

كذلك اخفق الاصلاح الزراعي في تحقيق الاهداف السياسية التي علقها عليه ستوليبين ذلك انه لم يجلب الى صف النظام القيصري الا عدداً قليلاً من الفلاحين الموسرين . وحتى هؤلاء لم يكونوا راضين تماماً عن وضعهم ، هذا في الوقت الذي عمق فيه الاصلاح من التناقضات الاجتماعية في الريف وخلق تناقضات جديدة بين الفلاحين الفقراء والموسرين الى جانب التناقض الذي كان قائماً بين الفلاحين جميعاً والملاكين ، فاشتد التوتر السياسي في الريف بدلاً من ان يخف . ولهذا لم يعد بقاء ستوليبين ملائماً في نظر بعض اجنحة الاوساط الحاكمة واصبح التخلص منه ضرورياً بالنسبة الى هؤلاء . وهكذا اطلق عليه احد وكلاء جهاز الامن (الاوخرانكا) وكان في الوقت نفسه واحداً من الاشتراكيين الثوريين النار في كييف في ايلول ١٩١١ وارداه قتيلاً فحل في منصب رئيس مجلس الوزراء وزير المالية فلاديمير نيكولايفتش كوكوفتسوف .

التطورات الاقتصادية بعد الثورة

جرت في هذه المرحلة تطورات اقتصادية مهمة في روسيا فابتداءً من نهاية ١٩٠٩ وبداية ١٩١٠ انتهى الركود الصناعي واخذت الصناعة تنتعش مرة اخرى بالتدريج . وهكذا ازداد استخراج الفحم وانتاج النحاس من ١٩١٠ الى ١٩١٣ بمقدار مرة ونصف تقريباً كما ازداد صهر الحديد الزهر باكثر من ذلك .

لقد اتسعت بعد ١٩١٠ في الاقتصاد الروسي وتعمقت الظواهر التي لاحظناها فيه في بداية القرن العشرين فقد تعمقت عملية تركيز الانتاج وابتلاع المشاريع والشركات الكبرى للمشاريع الاصغر ، الامر الذي ادى الى تطور الاحتكارات وزيادة الدور الذي تؤديه في الحياة الاقتصادية واتسع دور المصارف وزاد نشاطها فمع ان عدد المصارف التجارية لم يتغير تقريباً منذ نهاية القرن التاسع عشر فان الاموال الموجودة تحت تصرفها

تضاعفت اربع مرات وكانت اغلب هذه الاموال تحت تصرف عدد قليل من مصارف بطرسبورغ التي انشأت لها شبكة من الفروع غطت روسيا باجمعها. ولاول مرة في تاريخ روسيا نجد الاسهم والسندات وغيرها من الاوراق المالية تطرح في داخل روسيا لا في البورصات الاجنبية في الخارج. ولم تقتصر المصارف على المضاربة باسهم الشركات الصناعية وسكك الحديد بل كانت تشارك بنشاط في ادارة المشاريع الصناعية والتجارية وفي تعزيز الاحتكارات القديمة وانشاء احتكارات جديدة. وتكونت فئة من رجال المال المتنفذين كثفت من علاقتها بجهاز الدولة واخذت تستغل هذه العلاقات على نطاق واسع للحصول على القروض والسندات والطلبات الحكومية المختلفة فتحقق بذلك ارباحاً عالية.

شهدت هذه المرحلة زيادة في الانتاج بشكل عام باستثناء استخراج النفط الذي كان في ١٩١٣ اقل مما كان عليه في ١٩١٠ بمقدار ٢٧ مليون بود وعما كان عليه في ١٩٠١ بمقدار ١٤٥ مليون بود، وكان السبب في ذلك هو رغبة اصحاب العمل في تقليل الانتاج لكي يقل العرض فترتفع الاسعار ويزداد الربح.

وعلى الرغم من ان تغلغل الرأسمال الاجنبي في الاقتصاد الروسي تباطأ في اثناء ازمة ١٩٠٠ - ١٩٠٣ وفي فترة الركود التي اعقبتها الا ان استيراد رأس مال لم يتقلص وذلك لان ديون روسيا الخارجية ازدادت بشكل ملحوظ حتى ان روسيا دفعت في عقد واحد فقط (١٩٠٤ - ١٩١٣) لتسديد الديون الخارجية وفوائدها مايزيد على ١ر٧ مليار روبل مقابل مايزيد قليلاً على المليار روبل تسلمتها قروضاً في الفترة المذكورة. والى جانب ذلك ظل الرأسمال الاجنبي يحتل كالسابق مواقع راسخة في الصناعة الروسية ولاسيما في مجال استخراج النفط والتعدين.

لقد انعكست تبعية روسيا اقتصادياً للدول الاجنبية على الجانب السياسي ايضاً فالمصارف الفرنسية مثلاً كانت تمنح روسيا قروضاً لبناء السكك وفق شروط تضعها رئاسة الاركان العامة للجيش الفرنسي، كما ان الحكومة الروسية اوقفت، تحت ضغط الدبلوماسية الفرنسية التحقيق في نشاط احدى الشركات المسؤولة بشكل مباشر عن نقص الوقود الذي عانى منه الاقتصاد الروسي كثيراً. وقد استغلت الاحتكارات الاجنبية من جانبها العلاقات السياسية الجيدة للتغلغل في الاقتصاد الروسي.

ومع ذلك فان التبعية للرأسمال الاجنبي لم تكن تعني ان الاستعمار الروسي قد تخلى عن اهدافه التوسعية الخاصة فالسياسة الخارجية الروسية كانت تخطط وفق مصالح كبار الملاكين الروس اولاً ومصالح الاحتكارات الرأسمالية الروسية ثانياً، وكان هؤلاء واولئك يسعون للاستحواذ على الاسواق الخارجية ولاسيما اسواق الشرق الادنى، وهذا

هو في الواقع مايفسر الخلافات التي كانت قائمة بين روسيا وحلفائها وتصادم مصالحهم في كثير من قضايا السياسة الخارجية .

على اية حال لقد حقق التطور الاقتصادي في روسيا في هذه المرحلة خطوات واضحة الى الامام ومع ذلك فان تأخر روسيا بالمقارنة مع الدول الاوربية المتقدمة لم يتقلص بل ازداد ، فحصة روسيا من الانتاج الصناعي العالمي كانت في ١٩١٣ اقل مما كانت عليه في ١٩٠١ . لقد كانت روسيا بمساحتها الواسعة وثرواتها الهائلة وسكانها الكثيرين تحتل المركز الخامس بين دول العالم في صهر الفولاذ والسادس في استخراج الفحم والخامس عشر في انتاج الطاقة الكهربائية ، كما انها كانت متأخرة جداً من حيث حجم الانتاج بالنسبة الى الفرد الواحد من السكان ولم تكن تمتلك صناعة متطورة للمكائن ولم يكن فيها صناعة طيران على الرغم من ظهور عدد من المخترعين الروس في مجال الطيران . اما الصناعات الجديدة الاخرى كصناعة السيارات والصناعات الكيمياوية وصناعة المعدات الكهربائية وغيرها فقد كانت ماتزال في مرحلة البداية .

الحركة الثورية عشية الحرب العالمية الاولى

زاد وضع العمال سوءاً في مرحلة النهوض الصناعي فقد ظلت اجورهم في كثير من الحالات بمستواها السابق بل وجرى تخفيضها في بعض الحالات علماً بان استفحال الغلاء ادى الى انخفاض كبير في اجورهم الفعلية ولهذا عادت الحركة العمالية الى الانتعاش مجدداً ابتداءً من ١٩١٠ فاتسعت الاضرابات وازدادت شدة واصبحت تتحول من اضرابات لمشاريع منفردة الى اضرابات جماهيرية عامة . وقامت في أواخر ١٩١٠ ، بعد فترة من الهدوء استمرت عدة سنوات ، مظاهرات سياسية كان من ابرزها المظاهرة التي قامت في بطرسبورغ بمناسبة موت الكاتب الروسي الشهير ليف تولستوي حيث ضمت جماهير غفيرة من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية وترددت فيها هتافات معادية للنظام .

كانت الاضرابات آخذة بالتصاعد ففي ١٩١١ اضرب مايزيد على المائة الف عامل وانتهى اكثر من نصف الاضرابات الاقتصادية بانتصار العمال . وقد جابهت السلطات ذلك باجراءات قمع شديدة الامر الذي اثار موجة واسعة من الاحتجاج ، حتى ان مجموعة كبيرة نسبياً من اساتذة جامعة موسكو ومنهم علماء مشهورون على النطاق العالمي مثل ، ك . أ . تمريازوف و ب . ن . ليبديف و ن . د . زيلينسكي ، غادرت الجامعة بشكل تظاهري احتجاجاً على اجراءات السلطة التعسفية .

وفي ٤ نيسان ١٩١٢ اطلقت قوات السلطة النار على عمال شركة لينا لصناعة الذهب المضربين في بواديبو على نهر لينا في سيبريا فقتل ٢٥٠ شخصاً وجرح ٢٧٠ ، فكان ذلك خلاف ما أملته السلطة ، محفزاً لتعاظم النضال الثوري بدلاً من القضاء عليه ، فقد اتسعت اضرابات الاحتجاج بحيث شارك فيها مايقرب من ٣٠٠ الف عامل ثم اتسعت الاضرابات اكثر واقترنت بمظاهرات قامت بها الجماهير في الشوارع حتى زاد عدد المضربين في ١٩١٢ على المليون عامل ، وازداد عدد الاضرابات اكثر من ذلك في ١٩١٣ .

وفي الوقت نفسه انتعشت الحركة الفلاحية مجدداً ولاسيما بعد سوء المحصول الذي حصل في ١٩١١ وادى الى ان تصيب المجاعة مايقرب من ثلاثين مليون فلاح . وقد جابهت اجراءات ستوليبين في المجال الزراعي مقاومة متزايدة من جانب الفلاحين حتى ان مصادمات مكشوفة بينهم وبين البوليس وقوات الجيش حصلت اكثر من مرة . كذلك انتقل النضال الثوري الى الجيش والاسطول فقامت قوات الهندسة العسكرية في طشقند بانتفاضة في ١٩٩٢ ، وتململ بحارة اسطول البحر الاسود واسطول البلطيق ، لكن الحكومة استطاعت ان تتلافى ثورتهم بفضل تدابير القمع الشديدة التي اتخذتها ضدهم والاعتقالات الواسعة التي اجرتها في صفوفهم .

لقد انعكس النهوض الثوري الجديد على الحزب الاشتراكي الديمقراطي فاشتدت الازمة الداخلية التي يعانيها نتيجة للصراع الدائر بين البلاشفة والمناشفة وانتهى الامر بان طُرد المناشفة من صفوف الحزب في كانون الثاني ١٩١٢ واصدر الحزب في ٥ آيار ١٩١٢ ، جريدة مركزية جديدة هي البرافدا التي ماتزال تصدر ناطقة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وادى النهوض الثوري الجديد ايضاً الى اشتداد الخلافات في صفوف الاوساط الحاكمة وانعكس ذلك في خيبة الامل التي اخذت تبديها مختلف فئات تلك الاوساط بسياسة ستوليبين ، وفي الوقت الذي اخذ فيه الاكتوبريون يقتربون من الكاديت في مساعيهم لتعميق النظام البرلماني وترسيخه كان غلاة الرجعيين يريدون العودة الى الحكم المطلق دون اي واجهة برلمانية ، ولكن الاوساط الحاكمة بشكل عام كانت تدرك بان الوضع لايسمح باي تغيير في اسلوب الحكم ولهذا استمرت سياسة ستوليبين حتى بعد مقتله .

وهكذا جرت انتخابات الدوما الرابع في تشرين الاول ١٩١٢ وتميزت بتدخل الحكومة في الانتخابات بدرجة اشد من السابق ولهذا فقد جاءت نتيجة الانتخابات لتعكس التحول نحو اليمين في معسكر العناصر المعادية للثورة وتعزز جناح الرجعيين والبرجوازيين على حساب الاكتوبريين الذين فقدوا تفوقهم السابق . وكان عدد المناشفة

في المجلس اكثر من عدد البلاشفة . وفي هذه الاثناء كانت الحركة الثورية تأخذ بالاتساع فقد وصل عدد المضربين في النصف الاول من عام ١٩١٤ الى مليون ونصف تقريباً ، ففاق بذلك مستوى المرحلة الاولى من ثورة ١٩٠٥ . لقد هزت الحركة الجماهيرية اسس النظام القائم واحدثت خلافاً واضحاً بين ركني النظام : الملاكين والبرجوازية الكبيرة واستاء كل منها من الحكومة واخذ يلومها على عجزها عن السيطرة على الوضع وقد عبر احد ممثلي كبار الرأسماليين في الدوما عن موقف البرجوازية الكبيرة عندما قال مخاطباً الحكومة : «لقد اعطيناكم اموالاً جيدة فاعطونا سياسة جيدة» . لقد كانت البرجوازية التي تقوت وتعززت مواقعها الاقتصادية في اثناء النهوض الصناعي تطالب بان تنتقل السلطة الى ايدي جديدة تؤمن لها مشاركة اكثر فعالية في الحكم . اما الملاكون فقد اخذوا يطالبون من جانبهم بالتصدي للاحتكارات الرأسمالية لانها كما يعتقد معسكر اليمين لن تلبث «ان تملي على الدولة تقرير قضية السلم والحرب» ، واصبح رئيس الوزراء كوكوفتسوف الهدف الذي تركز عليه هجوم غلاة الرجعيين فاستقال في بداية ١٩١٤ وعين بدلاً منه أي . ل . جوريميكين الذي مربنا ذكره في ظرف شاع فيه التأزم في الوضع الداخلي والدولي .

السياسة الخارجية (١٩٠٧ - ١٩١٤)

نضى اندحار روسيا في حربها مع اليابان على خططها التوسعية في الشرق الاقصى واضعف نفوذها في ايران وافغانستان والدولة العثمانية . لذلك فقد كان عليها ، لكي لاتقع في عزلة تهددها بفقدان مواقعها على المسرح الدولي ، ان تنضم الى احدى الكتلتين اللتين انقسمت اليهما اوربا آنذاك ونعنى الحلف الثلاثي او الوفاق البريطاني - الفرنسي . وكانت تبعية روسيا المالية لفرنسا وتحالفها العسكري معها وزيادة التوسع الالماني في البلقان والدولة العثمانية يدفعان روسيا باتجاه الكتلة البريطانية - الفرنسية ، ذلك ان تزايد النفوذ الالماني في الدولة العثمانية وسعي المانيا الى السيطرة على الاقتصاد العثماني ، وعلى القوات المسلحة العثمانية ، كان يؤلف تهديداً مباشراً لروسيا اذ ان سيطرة المانيا على المضايق كانت تعني سيطرتها على التطور الاقتصادي للمنطقة الجنوبية من روسيا وتهديدها لمناطق روسية مهمة من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية .

كان ذلك كله يبعد روسيا عن المانيا ويدفعها باتجاه الكتلة البريطانية - الفرنسية ، وهكذا اصبحت الدبلوماسية الروسية ترى في الاتفاق مع بريطانيا الفرصة الواقعية

الوحيدة في تلك الظروف لتحقيق نوايا روسيا التوسعية في المستقبل تجاه مضايق البحر الاسود علماً بان اهمية المضايق ازدادت كثيراً بالنسبة الى روسيا نتيجة للتطور الاقتصادي الذي جرى فيها على النحو الذي رأيناه .

غير ان الحكومة الروسية ارادت ان تسوي علاقاتها مع اليابان قبل ان تتفق مع بريطانيا لاسيما ان اليابان كانت تسعى للحصول على مكاسب اضافية في الشرق الاقصى ، وان في روسيا اوساطاً تدعو للانتقام من اليابان . وكان ذلك يعيق المفاوضات التي جرت بين الطرفين ، لكن تدخل بريطانيا وفرنسا وضغطهما على اليابان ادى الى الوصول بالمفاوضات الى نتيجة ايجابية . نوقع في ٢٨ تموز ١٩٠٧ بين روسيا واليابان اتفاق تجاري وميثاق خاص بصيد الاسماك ، ثم وقعت الدولتان بعد ذلك بيومين اي في ٣٠ تموز اتفاقية سياسية تألفت من ميثاق علني تعهد فيه الطرفان بالمحافظة على الوضع القائم في الشرق الاقصى ومعاهدة سرية تقرر فيها ان تكون منغوليا الخارجية وشمال منشوريا منطقة نفوذ روسية في حين تكون كوريا وجنوب منشوريا منطقة نفوذ يابانية .

التفتت الدبلوماسية الروسية بعد ذلك الى معالجة قضية الاتفاق مع بريطانيا فتم في ٣١ آب ١٩٠٧ التوقيع في بطرسبورغ على اتفاقية بين روسيا وبريطانيا حددت بموجبها مصالح الدولتين في ايران وافغانستان والتبت . لقد قسمت هذه الاتفاقية ايران الى ثلاث مناطق : الشمالية التي تقرر ان تكون منطقة لنفوذ روسيا والجنوبية الشرقية التي اعترف بكونها منطقة نفوذ لبريطانيا والوسطى التي عدت منطقة محايدة . وقد التزم الطرفان بعدم المطالبة بامتيازات في منطقة الطرف الآخر وبعدم التدخل في التدابير الاقتصادية والسياسية التي يتخذها كل في منطقته ، اما المنطقة المحايدة فقد ظلت مفتوحة للتنافس تتمتع الدولتان بحقوق متساوية في الحصول على الامتيازات والافضليات فيها . وقد اقرت روسيا في هذه الاتفاقية بوقوع افغانستان خارج منطقة نفوذها والتزمت بان لاتقيم معها علاقات سياسية الا عن طريق الحكومة البريطانية والتزمت بريطانيا في مقابل ذلك بان لاتسمح بان تتخذ فيها اية اجراءات من شأنها ان تهدد روسيا واقرت بمبدأ المساواة في التجارة بين التجار الانكليز والهنود والروس . اما فيما يتعلق بالتبت فقد اتفق الطرفان على احترام كيانها الاقليمي وعلى عدم التدخل في امور الحكم الداخلي فيها وعدم الاتصال بها الا عن طريق الحكومة الصينية والتزما بعدم السعي للحصول على امتيازات فيها .

اخذت روسيا في هذه الآونة تزيد من اهتمامها بالشرق الادنى والبلقان ولا سيما بعد الاندحار الذي منيت به في الشرق الاقصى وبعد عقدها لاتفاقية ١٩٠٧ مع بريطانيا ، ولكن تنشيط روسيا لسياستها في تلك المناطق كان سيؤدي بها حتماً الى الاصطدام

بالنمسا - المجر والمانيا اللتين استغلتا الضعف الذي اصاب روسيا نتيجة لحربها الخاسرة مع اليابان فتخلتا عن مبدأ المحافظة على الوضع القائم في البلقان واخذتا تمارسان سياسة توسعية هناك . وفي سياق هذا التوسع باشرت النمسا - المجر بالاعداد لبناء سكة حديد تمتد الى سلانيك عبر سنجق نوفي بازار . وبما ان روسيا لم تكن مستعدة للمجابهة العسكرية ، فقد قررت ان تجابه هذا المشروع النمساوي بمشروع آخر خاص بها وذلك ببناء سكة «سلافية» ، تمتد من الدانوب الى بحر الادرياتيك . وقد اريد لهذه السكة ان توفر لصربيا منفذاً الى البحر فتؤمن لها بذلك استقلالاً اقتصاديا وسياسيا عن النمسا - المجر . غير ان قيام الانقلاب العثماني في صيف ١٩٠٨ اعاق تحقيق المشروع النمساوي .

لقد ارادت حكومة النمسا - المجر استغلال الاوضاع الداخلية المضطربة في الدولة العثمانية والتغيير الذي حصل فيها نتيجة لانقلاب ١٩٠٨ لضم اقليمي البوسنة والهرسك اللذين كان مؤتمر برلين ١٨٧٨ قد اعطاها حق احتلالهما وادارتهما مع بقاء سيادة السلطان الاسمية عليهما ، ولهذا فقد ابدت استعدادها للدخول مع روسيا في مفاوضات حول فتح المضايق امام السفن الحربية على امل ان يدفع موقفها هذا روسيا الى الموافقة على ضمها للاقليمين المذكورين . وقد جرى بحث هذه المسائل في اللقاء الذي تم في بخلاو بين وزير خارجية النمسا - المجر ايرنثال ووزير خارجية روسيا ازوفولسكي حيث وافق ايرنثال على الاحجام عن القيام باي عمل منفرد وعلى عرض المسائل التي جرى بحثها على مؤتمر دولي . ثم قام ازفولسكي بجولة في اوربا للتحضير للمؤتمر المذكور ، وعندما وصل الى باريس اعلنت حكومة النمسا - المجر في ٦ تشرين اول ١٩٠٨ عن ضمها للبوسنة والهرسك واكد ايرنثال ان ذلك جرى بالاتفاق مع ازفولسكي الذي فشل من جانبه في اقناع الدول الاوربية ولاسيما بريطانيا بالموافقة على فتح المضايق للسفن الحربية الروسية .

لقد اثار ضم النمسا - المجر للبوسنة والهرسك صربيا فبادرت الحكومة الصربية الى اعلان التعبئة العامة ، لكن النمسا - المجر تمكنت في شباط ١٩٠٩ ، من اقناع الدولة العثمانية بان تتخلى لها عن الاقليمين مقابل مليونين ونصف مليون جنيه استرليني ، واخذت تطالب صربيا بالغاء التعبئة والموافقة على ضم الاقليمين الى امبراطورية النمسا - المجر . ولما كان موقف صربيا يعتمد على موقف روسيا فقد طلب ايرنثال من المستشار الالماني بيلوف الضغط على الحكومة الروسية ، وكان من الملائم لالمانيا ان تقوم الحرب الاوربية التي كان الجميع مقتنعون الآن بحتمية قيامها بسبب القضايا البلقانية لان النمسا - المجر ، في هذه الحالة ستظل بجانب المانيا حتى النهاية . ولهذا طلبت

بالنمسا - المجر والمانيا اللتين استغلتا الضعف الذي أصاب روسيا نتيجة لحربها الخاسرة مع اليابان تتخليا عن مبدأ المحافظة على الوضع القائم في البلقان واخذتا تمارسان سياسة توسعية هناك . وفي سياق هذا التوسع باشرت النمسا - المجر بالاعداد لبناء سكة حديد تمتد الى سلانيك عبر سنجق نوفي بازار . وبما ان روسيا لم تكن مستعدة للمجابهة العسكرية ، فقد قررت ان تجابه هذا المشروع النمساوي بمشروع آخر خاص بها وذلك ببناء سكة (سلافية) ، تمتد من الدانوب الى بحر الادرياتيك . وقد اريد لهذه السكة ان توفر لصربيا منفذاً الى البحر فتؤمن لها بذلك استقلالاً اقتصاديا وسياسيا عن النمسا - المجر . غير ان قيام الانقلاب العثماني في صيف ١٩٠٨ اعاق تحقيق المشروع النمساوي .

لقد ارادت حكومة النمسا - المجر استغلال الاوضاع الداخلية المضطربة في الدولة العثمانية والتغيير الذي حصل فيها نتيجة لانقلاب ١٩٠٨ لضم اقليمي البوسنة والهرسك اللذين كان مؤتمر برلين ١٨٧٨ قد اعطاها حق احتلالهما وادارتهما مع بقاء سيادة السلطان الاسمية عليهما ، ولهذا فقد ابدت استعدادها للدخول مع روسيا في مفاوضات حول فتح المضايق امام السفن الحربية على امل ان يدفع موقفها هذا روسيا الى الموافقة على ضمها للاقليمين المذكورين . وقد جرى بحث هذه المسائل في اللقاء الذي تم في بخلاو بين وزير خارجية النمسا - المجر ايرنثال ووزير خارجية روسيا ازوفولسكي حيث وافق ايرنثال على الاحجام عن القيام باي عمل منفرد وعلى عرض المسائل التي جرى بحثها على مؤتمر دولي . ثم قام ازفولسكي بجولة في اوربا للتحضير للمؤتمر المذكور ، وعندما وصل الى باريس اعلنت حكومة النمسا - المجر في ٦ تشرين اول ١٩٠٨ عن ضمها للبوسنة والهرسك واكد ايرنثال ان ذلك جرى بالاتفاق مع ازفولسكي الذي فشل من جانبه في اقناع الدول الاوربية ولاسيما بريطانيا بالموافقة على فتح المضايق للسفن الحربية الروسية .

لقد اثار ضم النمسا - المجر للبوسنة والهرسك صربيا فبادرت الحكومة الصربية الى اعلان التعبئة العامة ، لكن النمسا - المجر تمكنت في شباط ١٩٠٩ ، من اقناع الدولة العثمانية بان تتخلى لها عن الاقليمين مقابل مليونين ونصف مليون جنيه استرليني ، واخذت تطالب صربيا بالغاء التعبئة والموافقة على ضم الإقليمين الى امبراطورية النمسا - المجر . ولما كان موقف صربيا يعتمد على موقف روسيا فقد طلب ايرنثال من المستشار الالماني بيلوف الضغط على الحكومة الروسية ، وكان من الملائم لالمانيا ان تقوم الحرب الاوربية التي كان الجميع مقتنعون الآن بحتمية قيامها بسبب القضايا البلقانية لان النمسا - المجر ، في هذه الحالة ستضل بجانب المانيا حتى النهاية . ولهذا طلبت

الحكومة الالمانية من روسيا فيما يشبه الانذار بان تعترف بضم البوسنة والهرسك الى النمسا - المجر ، ولما كانت روسيا غير مستعدة للحرب فقد اذعنت لذلك ووافقت على الضم . وهكذا انتهت الازمة التي عرفت في تاريخ العلاقات الدولية باسم «ازمة البوسنة» ، باخفاق سياسي كبير منيت به روسيا .

كانت الحكومة الالمانية ترى بان اتفاقية ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا لم تقض كلياً على الخلافات بينهما في الشرق الاوسط ولاسيما في ايران فارادت ان تعمق الشك المتبادل بين الدولتين عن طريق عقد اتفاقية منفردة مع روسيا ولهذا فقد اقترحت على الحكومة الروسية استئناف المحادثات بشأن سكة حديد بغداد ، وبشأن تحديد المصالح الروسية والالمانية في ايران . وفي اللقاء الذي جرى في بوتسدام في تشرين الثاني ١٩١٠ بين القيصر الروسي والامبراطور الالماني ، اقترح الجانب الالماني عقد اتفاقية عامة تلتزم روسيا بموجبها بعدم اسناد سياسة بريطانيا المعادية لالمانيا وتتعهد المانيا بالمقابل بعدم اسناد مخططات النمسا - المجر العدوانية في البلقان . لكن الحكومة الروسية لم تشأ الدخول في مثل هذه الاتفاقية لاسيما ان وزير خارجيتها الجديد سيرجي ديمتريفتش سازونوف الذي حل محل ازفولسكي في ١٩١٠ ، كان من المتحمسين للتقارب مع فرنسا وبريطانيا ولهذا لم تتضمن الاتفاقية التي وقعت بين روسيا والمانيا في بطرسبورغ في ١٩ آب ١٩١١ ، بشأن القضايا الايرانية اي التزام من جانب روسيا بعدم المشاركة في احلاف معادية لالمانيا بل اقتصرت على تعهد روسيا بعدم اعاقة بناء سكة حديد بغداد وبناء خط للسكك الحديد يمتد من طهران الى خانقين لكي يرتبط بسكة حديد بغداد عند الحدود العثمانية - الايرانية في حين التزمت المانيا من جانبها بعدم السعي للحصول على امتيازات لبناء سكة حديد او مد طرق او خطوط تلغراف في شمال ايران .

لقد خففت هذه الاتفاقية بعض الشيء من حدة الخلافات بين روسيا والمانيا ولكنها لم تعق روسيا عن اسناد حليفتها فرنسا في اثناء ازمة مراكش الثانية (ازمة اغادير) ١٩١١ ، فكان الاسناد الروسي لفرنسا اثناء تلك الازمة احد العوامل التي ادت الى تراجع المانيا وانتهاء الازمة بتوقيع الاتفاقية المعروفة بين فرنسا والمانيا حيث اعترفت المانيا بالنفوذ الفرنسي في المغرب مقابل تعويض اقليمي حصلت عليه في الكونغو الفرنسي .

عادت علاقات روسيا مع بريطانيا الى التوتر في ١٩١١ بسبب تصادم مصالح الدولتين في ايران فعندما عين الامريكي شوستر مستشاراً مالياً اولاً للحكومة الايرانية وقام هذا على الرغم من احتجاج الحكومة الروسية بتعيين الميجر ستوكس الملحق العسكري البريطاني السابق في ايران قائداً للجندرمة لشؤون جباية الضرائب في ايران كلها وتعيين بريطاني آخر مسؤولاً عن القسم المالي في اذربيجان ، اي في منطقة النفوذ

الروسي ، ادخلت روسيا قواتها العسكرية الى ايران وهددت باحتلال طهران اذا لم يستقل شوستر ولم تتخل عن مطلبها هذا بالرغم من الضغوط الشديده التي تعرضت لها من جانب بريطانيا وفرنسا فاضطرت الحكومة الايرانية في النهاية الى اقالة شوستر وموظفيه الانجليز وسويت المسألة . غير ان توتراً جديداً حل في العلاقات بين روسيا وبريطانيا هناك في عام ١٩١٤ ، وكان الخلاف بينهما كبيرا بحيث جعل بريطانيا تطالب باعادة النظر في اتفاقية ١٩٠٧ وهدفها من ذلك توسيع منطقة النفوذ الانجليزية على حساب المنطقة المحايدة .

اما في الشرق الاقصى فقد دفعت المنافسة الامريكية كلاً من روسيا واليابان الى التقارب الذي افضى الى ان توقع الدولتان في ٤ تموز ١٩١٠ على اتفاقية جديدة اقرت بموجبها كل منهما للاخرى بالحق «في اتخاذ التدابير الضرورية» لحماية «مصالحها الخاصة» في منطقة نفوذها والتزمتا «في حالة الخطر» بالتشاور حول الاجراءات الواجب اتخاذها لاسناد بعضهما البعض . وعندما قامت في الصين ثورة في تشرين الاول ١٩١١ نشطت الدول الاستعمارية جميعها لاستغلالها من اجل تشديد تغلغلها في الصين فاقترحت اليابان ان تقوم قوات يابانية وروسية مشتركة باحتلال منشوريا لكن الحكومة الروسية رفضت ذلك لان جل اهتمامها كان مركزاً في هذه المرحلة على البلقان الذي اشتد التوتر فيه لان الدول البلقانية استغلت الحرب التي شنتها ايطاليا على الدولة العثمانية في ٢٩ ايلول ١٩١١ ، بهدف احتلال طرابلس الغرب ، فزادت من استعدادها لشن الحرب على الدولة العثمانية ، كما ان الاحتلال الياباني لبعض اجزاء الصين من شأنه ان يشكل خطراً على الممتلكات الروسية في الشرق الاقصى .

ولكن الاحداث الصينية ادت الى زيادة اهتمام الحكومة الروسية بمنغوليا ، ولاسيما بعد ان قام الامراء الاقطاعيون المنغوليون في كانون الاول ١٩١١ بطرد الادارة الصينية من بلادهم وتشكيل حكومة خاصة بهم ، فقد جرى في ٣ تشرين الثاني ١٩١٢ التوقيع على اتفاقية روسية - منغولية تعهدت روسيا بموجبها بأعانة منغوليا في المحافظة على استقلالها الذاتي ومساعدتها على تنظيم قواتها الوطنية المسلحة والتزمت حكومة منغوليا من جانبها بمنح الرعايا الروس الحق في ان يعيشوا في منغوليا ويتنقلوا فيها بحرية ويشتغلوا في التجارة والصناعة هناك مع اعفائهم من جميع انواع الضرائب ومنحهم الحق في ان يحصلوا من حكومة منغوليا على امتيازات لاستغلال الثروات الطبيعية في منغوليا . وبعد هذه الاتفاقية دخلت الحكومة الروسية في محادثات مطولة مع الصين تمخضت في ٥ تشرين الثاني ١٩١٣ ، عن توقيع بيان اعترفت الصين بموجبه بالاستقلال الذاتي لمنغوليا والتزمت بعدم ارسال قواتها الى هناك وبالتخلي عن اية سلطات عسكرية او مدنية في منغوليا وكذلك بعدم السماح للصينيين بالاستيطان هناك .

كان قلق الحكومة الروسية يشتد بمقدار ما كان التغلغل الالماني يزداد في الدولة العثمانية علماً بأن هذا التغلغل اتسع لدرجة لم يسبق لها مثيل بعد انقلاب الاتحاد والترقي في ١٩٠٨ وامتد منذ ذلك الوقت ليشمل كل جوانب الحياة في الدولة العثمانية الامر الذي كان يشكل تهديداً خطيراً لكل مخططات روسيا تجاه البلقان والدولة العثمانية . ولذلك فقد كان على روسيا لكي تدرأ هذا الخطر ان تعجل بتوسيع اسطولها الحربي في البحر الاسود ولكن تأخرها في المجال التكنيكي جعل ذلك امراً متعذراً في المدى القريب كما ان روسيا لم يكن بامكانها تعزيز اسطولها ذاك عن طريق شراء سفن من الخارج او بنقل جزء من اسطولها في بحر البلطيق الى البحر الاسود لان المضايق كانت مغلقة في وجه السفن الحربية الروسية . ولهذا اصبح فتح المضايق امام السفن الحربية الروسية امراً حيوياً لروسيا ورأت الحكومة الروسية ان الوضع الدولي آنذاك ونعني تعاظم حركة التحرر القومي لدى الشعوب البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية والحرب التركية - الايطالية وانشغال المانيا وفرنسا وبريطانيا في الصراع حول المغرب ، كان مناسباً لطرح هذه القضية التي ارادت ان تحلها هذه المرة عن طريق عقد اتفاقية منفردة مع الدولة العثمانية . وهكذا بدأ السفير الروسي في اسطنبول تشاريكوف في تشرين الاول ١٩١١ محادثات مع السلطات العثمانية للتوصل الى مثل هذه الاتفاقية لكن مبادرة تشاريكوف هذه لم يكتب لها النجاح بسبب المعارضة الشديدة من جانب بريطانيا وفرنسا .

كانت الحكومة الروسية تسعى في البلقان لان تتخذ من بلغاريا وصربيا حليفتين لها في الحرب التي كانت تستعد لها ضد المانيا والنمسا - المجر ولهذا فقد جهدت لتعزيز العلاقات بينهما واخذت على عاتقها مهمة التوسط في المحادثات التي بدأت بينهما في ربيع ١٩١١ وانتهت في آذار ١٩١٢ بتوقيعهما على حلف اتخذ طابعاً دفاعياً تجاه النمسا - المجر وهجومياً تجاه الدولة العثمانية . وقد اتفقت الدولتان على المناطق التي ينبغي اقتطاعها من الدولة العثمانية ولكنهما لم تتفقا على عائديتها فتقرر عرض القضية في حينها على روسيا لكي تحكم فيها . ولم تلبث اليونان ان انضمت الى الحلف البلغاري - الصربي فشنت الدول الثلاث على الدولة العثمانية حرباً مشتركة تمكنت في اثنائها من الانتصار عليها واقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكاتها في البلقان . وارادت الدول الاوربية الاستعمارية ان تستغل احداث البلقان هذه لتحقيق مخططاتها تجاه الدولة العثمانية ومن هذه الدول روسيا التي كانت تسعى للاستيلاء على المضايق ولكن روسيا لم تكن مستعدة للحرب ولهذا فقد وجهت كل جهودها لحصر الحرب التي اندلعت في البلقان ومنعها من التحول الى حرب اوربية عامة فانتهجت سياسة ضبط النفس تجاه استفزازات النمسا - المجر التي كانت

تسعى بتشجيع واسناد من المانيا لمنع صربيا من الحصول على منفذ الى البحر بعد ان تمكن الجيش الصربي من تحقيق ذلك بقوة السلاح . ولم تتخل روسيا عن هذه السياسة حتى بعد ان ابدت لها فرنسا وبريطانيا استعدادهما لاسنادها اذا ماقررت الحرب ، وكانت النتيجة ان جرت بين الدول البلقانية المتحالفة والدولة العثمانية محادثات في لندن اسفرت عن التوقيع في ٣٠ آيار ١٩١٣ على معاهدة للصلح اقتطع بموجبها الجزء الاغلب من الممتلكات العثمانية في البلقان بحيث لم يتبق للعثمانيين في اوربا الا شريط ضيق من الارض يتاخم المضايق .

ولكن القضية لم تنته عند هذا الحد اذ لم تلبث الخلافات ان اشتدت بين دول حلف البلقان حول عائدية مقدونيا وادت بالنتيجة الى ان تبدأ بلغاريا حرباً جديدة ضد حليفتيها السابقتين صربيا واليونان ثم انضمت رومانيا الى هاتين الاخيرتين لانها كانت تطالب بلغاريا بجزء من دبروجة تعويضاً لها عن موقف الحياد الذي اتخذته اثناء الحرب ضد الدولة العثمانية . واستغلت الدولة العثمانية الفرصة فاشتركت في الحرب ضد بلغاريا واستعادت منها ادرنه التي كانت قد تخلت عنها بموجب معاهدة ٣٠ آيار التي اشرنا اليها . وهكذا توالت الاندحارات على بلغاريا واضطرت الى طلب الصلح فعقد في ٣٠ تموز ١٩١٣ في بخارست مؤتمر للصلح اصبح مسرحاً للصراع الشديد بين الدول البلقانيه وكذلك بين الدول الكبرى التي كانت كل منها تسند هذه او تلك من الدول البلقانية . وقد حظيت بلغاريا في المؤتمر باسناد روسيا لان الدبلوماسية الروسية كانت تسعى لابعادها عن النمسا ـ المجر . وقد استطاعت روسيا ان تقلل من الخسائر الاقليمية التي تكبدتها بلغاريا على الرغم من ان معاهدة بخارست التي وقعت في ١٠ آب ١٩١٣ ، لم تكن ملائمة لها .

لم تكد حرب البلقان تنتهي على النحو الذي رأيناه حتى قامت ازمة دبلوماسية جديدة اشتدت خلالها الخلافات بين الدول الكبرى وتعمقت العداوة بينهما ، فقد وصلت الدولة العثمانية في كانون الاول ١٩١٣ بعثة عسكرية المانية استدعيت لاعادة تنظيم الجيش العثماني وعين رئيس البعثة الجنرال ليمان فون ساندرس قائداً للفيلق العثماني الاول المرابط في اسطنبول . ولأن ذلك من شانه ان يجعل المانيا المسيطرة الفعلية على المضايق فقد اثارت البعثة قلقاً كبيراً لدى الاوساط الحاكمة في روسيا التي بادرت الى الاحتجاج ولكن المانيا كانت متصلبة جداً في هذه القضية ولم تصغ الى الاحتجاجات الروسية كما ان فرنسا وبريطانيا لم تبديا لحليفتهما روسيا الاسناد اللازم في هذه المسألة ورفضتا الاجراءات التي اقترحتها عليهما للضغط على الدولة العثمانية . ولهذا لم يبق امام روسيا الا ان تقنع بتراجع شكلي حيث نقل ليمان فون ساندرس من قائد للفيلق الاول

الى مراقب عام للجيش العثماني وطبيعي ان منصبه الجديد هذا لم يقلل من تاثيره الحاسم في الشؤون العسكرية العثمانية لاسيما ان منصب قائد فرقة سكوتاري وهي من تشكيلات فيلق اسطنبول ظل يشغله ضابط الماني .

وفي خلال ذلك كانت الدول الكبرى منهمكة في مناقشة قضية عثمانية اخرى هي القضية الارمنية ، ففي خريف ١٩١٢ توجه جاثليق الارمن الى الحكومة الروسية بطلب حمايتها للارمن القاطنين في الدولة العثمانية فتلقفت الحكومة الروسية هذا الطلب وارادت استغلاله لتحقيق اهدافها في المنطقة ذلك انها كانت ترى ان الاراضي الارمنية التي كانت ضمن الدولة العثمانية قد تصبح مسرحاً للعمليات العسكرية في الحرب الاوربية التي اصبحت كل الدول مقتنعه بحتمية قيامها ولهذا فانها ارادت ان تضمن لنفسها مسبقاً تعاطف الارمن القاطنين هناك نشنت الصحف الروسية لهذا الغرض حملة دعت فيها الدولة العثمانية الى اجراء اصلاحات للارمن ودعت الحكومة الروسية الدول الكبرى الاخرى لمناقشة القضية فعقد سفراء تلك الدول في اسطنبول بمبادرة من روسيا مؤتمراً في ٢ تموز ١٩١٣ طرحت روسيا فيه مشروعاً للاصلاحات لكن هذا المشروع جوبه بمقاومة عنيفة من دول الحلف الثلاثي ومن بريطانيا ايضاً الامر الذي اضطر روسيا الى تعديله فوقعت مع الدولة العثمانية في ٨ شباط ١٩١٤ على اتفاقية لم تعط الارمن ذلك الاستقلال الذاتي الواسع الذي تضمنه المشروع الروسي الاول وان تضمنت بعض الاصلاحات التي لم يتح لها التحقيق بسبب قيام الحرب العالمية الاولى . والواقع ان تراجع روسيا في هذه القضية لم يكن سببه عدم اسناد الدول الاخرى ولاسيما حلفاؤها لها فقط بل كان هناك سبب آخر اهم هو ان الحكومة الروسية لم تكن ترغب حقاً في منح الارمن في الدولة العثمانية استقلالاً ذاتياً واسعاً لان ذلك من شانه ان يشجع الارمن القاطنين في روسيا ذاتها ويعزز من حركتهم القومية .

الاستعداد للحـــرب

كان الوضع الدولي يزداد تأزماً سنة بعد اخرى فما تكاد تنتهي ازمة دولية حتى تبدا اخرى اشد واصبحت اية حادثة مهما كانت بسيطة كافية لان تخلق ازمة دولية حادة قد تفضي الى قيام الحرب . ولهذا فقد اقتنعت الدول الاوربية الكبرى بان قيام الحرب اصبح حتمياً فاخذت تستعد لها على كل المستويات .

وكانت هذه الاستعدادات تحتاج الى مجهود اكبر في روسيا نظراً لتاخرها قياساً على

دول اوربا الكبرى الاخرى ونتيجة للضربات الشديدة التي اصابت جيشها واسطولها في الحرب مع اليابان وللاضطراب الذي احدثته ثورة ١٩٠٥ في اوضاعها الداخلية .

باشرت الحكومة الروسية بعد اخماد ثورة ١٩٠٥ باتخاذ جملة من التدابير لاصلاح الجيش والاسطول فالغي في ١٩٠٩ مجلس الدفاع واصبحت الاركان العامة تابعة لوزير الحرب ، وفي ١٩١٠ صدر قانون اصبح المراقبون العامون في عدد من اصناف الجيش بموجبه تابعين لوزير الحرب ايضاً واعيد توزيع قطعات الجيش على مناطق البلاد المختلفة بشكل اكثر توازناً من السابق واستبدلت الخطة القديمة التي وضعت لاعتمادها في حالة الحرب مع دول الحلف الثلاثي بخطة جديدة واعيد تنظيم الجيش بما يؤدي الى تعزيز المشاة والمدفعية وسلاح الهندسة . وقد ادى التنظيم الجديد الى تحسين حالة الجيش بعض الشيء كما خلق ظروفاً افضل لنقله الى حالة الحرب . وسمح لغير النبلاء بعد ١٩٠٥ بالدخول الى الكليات والمعاهد العسكرية والغيت القيود الطبقية التي كانت تعتمد عند قبول الطلاب في المعاهد العسكرية وجرى الاهتمام بالشؤون الادارية وبقضايا الامداد بالمؤن والذخيرة وتوفير احتياطات كافية من الاسلحة والعتاد .

وفي الوقت نفسه كانت المشاورات بين السلطات العسكرية في كل من روسيا وفرنسا مستمرة فكانت الخطط توضع وتعدل في ضوء الظروف المستجدة باستمرار استعداداً للحرب ، ولابد ان نلاحظ بأنّ روسيا في هذه الآونة لم تعد في موضع الند تماماً بالنسبة الى حليفتها فرنسا بل بدأت تتحول بالتدريج الى تابع لها فكثيراً ما كان الروس يغيرون من خططهم عندما يصر الجانب الفرنسي حتى ولو كان ذلك ضد مصلحة روسيا وكثيراً ماكانوا يقبلون من الجانب الفرنسي شروطاً تحد من هذه المصلحة .

وادت حرب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣) الى زيادة التوتر الدولي فشددت من استعداد الدول الاوربية للحرب بشكل ملحوظ . وهكذا وضعت الحكومة الروسية في ١٩١٣ منهاجاً واسعاً لتقوية الجيش ، كان سيؤدي الى زيادة افراده حتى عام ١٩١٧ بمقدار ٤٨٠ الف شخص كما ان منهاج بناء السفن الذي وضع في ١٩١٢ واريد له ان يعيد بناء الاسطول ويوسعه كان ينبغي ان ينفذ في ١٩١٧ ايضاً . وكان الدوما متضامناً مع الحكومة في هذه القضية فكان يوافق على تخصيص الاموال اللازمة لذلك دون تردد . ففي ١٩١٢ وافق على تخصيص ما يقرب من نصف مليار روبل لتقوية الاسطول الحربي وفي ١٩١٤ صادق على لائحة قانونية خصص بموجبها اكثر من مائة مليون روبل لتقوية اسطول البحر الاسود من ١٩١٤ الى ١٩١٨ في الوقت نفسه الذي صادق فيه على القروض المخصصة لمنهاج تقوية الجيش . وهكذا كانت المصروفات العسكرية في روسيا تزداد مع الوقت حتى بلغت نسبتها في السنوات التي سبقت الحرب ٣٠٪ من باب النفقات في ميزانية الدولة .

ومع ذلك فان روسيا لم تكن مستعدة للحرب كما يجب فتأخرها الصناعي ... هذه الاستعدادات ويعرقلها كما ان السكك الحديد كانت قليلة فيها وموزعة بشكل غير ملائم . وكان القيصر والعاملون في وزارة الحرب لايقدرون قيمة التكنيك الحديث ويهتمون بالمظهر دون الجوهر ولهذا لم يجهز الجيش بالاسلحة الحديثة كالبندقية الاوتوماتيكية والمدافع المضادة للطائرات ومظلات الهبوط وغيرها . وعلى الرغم من الميزات المشهودة التي كانت تتمتع بها الطائرات الروسية فان الجيش الروسي كان يستخدم طائرات اجنبية وكان سلاح الطيران فيه ضعيفاً جداً كما انه كان يفتقر الى مدافع الهاون ولم يكن يستخدم السيارات لان انتاجها لم يكن قد بدأ بعد . بالاضافة الى ذلك تفشت في وزارتي الحربية والبحرية البيروقراطية وانتشرت الرشوة والاختلاس وعدم المحافظة على الاسرار العسكرية . وكان الرأسمال الاجنبي يسيطر على الشركات الصناعية التي تنفذ الطلبات العسكرية وكانت الحكومة الروسية تشتري ما تحتاجه من اسلحة ومعدات ولاسيما البحرية منها من الدول الاجنبية بما في ذلك الدول التي يحتمل ان تكون من اعدائها كالمانيا ، كما استشرى التجسس الى درجة ان دائرة الموظفين القريبين من وزير الحرب كانت تضم عدداً من الجواسيس التابعين لالمانيا والنمسا المجر .

اما في الجانب الأيديولوجي فقد جرى الاعداد للحرب تحت شعار «السلافيانية الجديدة» وهو شعار يدعو الى توحيد الاقطار السلافية تحت زعامة روسيا ويحاول ان يستغل لهذا الغرض نضال السلاف الجنوبيين والسلاف الغربيين ضد سيطرة الدولة العثمانية والنمسا ـ المجر ، فقد كانت الاوساط الحاكمة في روسيا تعتقد بأن الحرب ضد النمسا ـ المجر والمانيا ستكون لها اذا شنت تحت شعار «تحرير السلاف» شعبية واسعة وسترفع من مكانة النظام القيصري في نظر الشعب الروسي والشعوب السلافية الاخرى . وكانت الصحف السائرة في ركاب السلطة تستغل اية حادثة لتأجيج مشاعر العداء ضد المانيا والنمسا ـ المجر وهدفها من ذلك اعداد الراي العام للحرب ضد هاتين الدولتين ، فلقد شنت هذه الصحف مثلاً حملة صاخبة ضد المعاهد التجارية بين روسيا والمانيا التي كانت مدتها ستنتهي في ١٩١٣ ـ ١٩١٤ مطالبة «بتحرير» روسيا من «النير الاقتصادي الالماني» وصورت المانيا والنمسا ـ المجر وكأنهما الدولتان الوحيدتان اللتان تعيقان روسيا عن تحقيق هدفها في السيطرة على المضايق ..... وهكذا .

وبعد ان استقال كوكوفتسوف الذي كان يعد رئيساً «لحزب السلام» في كانون الثاني ١٩١٤ رجحت كفة العناصر التي كانت تدعو للحرب وترى فيها الوسيلة الوحيدة

الكنيلة بحل المشاكل التي تعاني منها روسيا في الداخل من جهة وبتحقيق نوايا النظام القيصري التوسعية في الخارج من جهة اخرى ، ولهذا زادت الاستعدادات للحرب وتكثف نشاط الحكومة الروسية في هذا الاتجاه .

قيام الحرب ودخول روسيا فيها

قامت الحرب العالمية الاولى كما هو معروف بسبب تصادم المصالح الاستعمارية للدول الاوربية الكبرى وبسبب رغبة المانيا في السيادة العالمية وسعيها لاعادة اقتسام المستعمرات لصالحها مما يشكل تهديداً مباشراً للامبراطوريتين الاستعماريتين البريطانية والفرنسية . وقد ادى تصادم المصالح الاستعمارية للدول الاوربية الكبرى الى ان تنقسم هذه الدول معسكرين متعادين هما الحلف الثلاثي الذي كان يضم المانيا والنمسا ـ المجر وايطاليا والوفاق الثلاثي الذي كان يشمل بريطانيا وفرنسا وروسيا ، واخذت الخلافات بين هاذين المعسكرين تتسع مع الوقت والعداوة تشتد بحيث اصبحت الحرب بينهما امراً محتماً .

وبالنسبة الى روسيا فقد كانت خلافاتها تشتد مع كل من المانيا والنمسا ـ المجر بسبب تصادم مصالح الجانبين في البلقان والشرق الادنى وبسبب مساعي الاوساط الاستعمارية الالمانية المتمثلة بـ «الاتحاد الجرماني» للاستيلاء على اجزاء من الاراضي الواقعة ضمن الامبراطورية الروسية ذاتها . كما ان روسيا كانت تسعى بالمقابل للاستيلاء على غاليسيا التي كانت تابعة للنمسا ـ المجر وللسيطرة على المضايق . واذا ما اضفنا الى ذلك الخلافات الاقتصادية العميقة القائمة بين روسيا والمانيا وتبعية روسيا الاقتصادية لحلفائها الغربيين مع بقائها دولة كبرى لها اهدافها الاستعمارية الخاصة ادركنا العداء العميق الذي كان قائماً بين روسيا من جهة والنمسا ـ المجر والمانيا من جهة اخرى .

كان السبب المباشر لقيام الحرب هو مقتل ولي عهد النمسا الارشيدوق فرانسيس فرديناند في سيراجيفو في ٢٨ حزيران ١٩١٤ ، على يد احد الصربيين من اعضاء جمعية اليد السوداء . فقد ارادت حكومة النمسا ـ المجر ان تستغل هذا الحادث للقضاء على صربيا ولكنها ارادت في البداية ان تعرف موقف المانيا لانها كانت تعلم بان الحرب ضد صربيا قد تؤدي الى تدخل روسيا . وبما ان الاوساط الحاكمة في المانيا كانت تعد الظرف مناسباً لاشعال الحرب بسبب عدم استعداد روسيا ونظراً لاعتقادهم بان بريطانيا سوف تقف على الحياد ، فقد اعطى الامبراطور الالماني لحكومة النمسا ـ المجر الضوء الاخضر في الهجوم على صربيا واكد لها ان المانيا ستساندها حتى لو ادى ذلك قيام حرب واسعة .

واستناداً الى موقف المانيا هذا قدمت النمسا ـ المجر الى الحكومة الصربية في ٢٣ تموز انذاراً مدته ٤٨ ساعة وضع بحيث لايمكن قبوله لانه تضمن جملة من الشروط المهينة للسيادة الصربية ومع ذلك فقد قبلت الحكومة الصربية في ٢٥ تموز بنود هذا الانذار جميعاً عدا واحداً منها وهو البند المتعلق بطلب حكومة النمسا-المجر ان يشترك ممثلون عنها في التحقيق بمقتل الارشيدوق على الاراضي الصربية ، لكن حكومة النمسا ـ المجر لم تقبل بهذا الموقف وبادرت الى قطع علاقاتها مع صربيا . وبما ان روسيا لم تكن مستعدة للحرب لان استعداداتها التي بدأتها لن تنتهي قبل ١٩١٧ ، كما رأينا فقد حاولت ان تدرأ الصدام بين النمسا ـ المجر وصربيا وذلك على الرغم من ان فرنسا أكدت لها على لسان رئيس جمهوريتها بوانكاريه الذي كان في زيارة رسمية لبطرسبورغ بانها ستنفذ التزاماتها التي يفرضها عليها الحلف القائم بين البلدين . وهكذا نجد الحكومة الروسية تقدم ابتداءً من ٢٥ تموز سلسلة من الاقتراحات الرامية الى تسوية النزاع الصربي ـ النمساوي سلمياً لكن حكومة النمسا ـ المجر المدعومة من المانيا رفضت هذه المقترحات جميعاً ثم عبأت قسماً من قواتها واعلنت الحرب على صربيا في ٢٨ تموز . عند ذلك قرر القيصر الروسي في ٢٩ تموز اعلان التعبئة العامة ، ولكن برقية سلمية اللهجة وصلته من الامبراطور الالماني في اليوم نفسه جعلته يلغي قراره ويكتفي بتعبئة جزئية للقوات الروسية شملت المناطق العسكرية التي ترابط فيها القوات المخصصة للعمل ضد النمسا ـ المجر واسطولي البحر الاسود وبحر البلطيق .

لقد كان الالمان الى ماقبل ٢٩ تموز يأملون بان تقف بريطانيا التي لم تتخذ الى الان موقفاً محدداً ، على الحياد ، غير ان وزير الخارجية البريطاني ادورد جرى اعلن للسفير الالماني في لندن في ذلك اليوم أي في ٢٩ تموز بشكل لايحتمل اللبس بان الحرب اذا قامت بين النمسا والمانيا فان بريطانيا ستدخلها الى جانب فرنسا . وكان لهذا التصريح اثره في موقف الحكومة الالمانية فاخذت تسعى لاقناع النمسا ـ المجر بالموافقة على حل توفيقي لكن هذه المساعي جاءت متأخرة كما انه اصطدمت بمقاومة العسكريين الالمان الذين كانوا يصرون على الحرب لان تأخيرها يجرد المانيا من الافضليات التي كانت ستتمتع بها في الاسابيع الاولى من الحرب وهي الافضليات الناجمة عن طول الوقت الذي تستغرقه التعبئة الروسية . ولهذا فقد هددت المانيا في ٢٩ تموز بانها ستعلن التعبئة اذا لم تتوقف الاستعدادات العسكرية الروسية لكن روسيا لم تلتفت الى ذلك بل استطاع وزير خارجيتها سازونوف ان يقنع القيصر بحتمية الحرب ضد المانيا وجعله يوقع في اليوم التالي اي في ٣٠ تموز امراً باعلان التعبئة العامة . وفي اليوم نفسه اعلنت النمسا ـ المجر التعبئة العامة ايضاً قبل ان يصلها خبر التعبئة الروسية . وفي اليوم التالي اي في ٣١ تموز

قدمت المانيا انذاراً نهائياً الى روسيا طالبت فيه بايقاف الاستعدادات العسكرية وعندما رفضت روسيا هذا الانذار اعلنت المانيا الحرب عليها في ١ آب . وفي ٢ آب قدمت المانيا انذاراً الى بلجيكا ثم اعلنت الحرب على فرنسا في اليوم التالي اي في ٣ آب ، وفي ٤ آب وجهت الحكومة البريطانية الى المانيا انذاراً طالبت فيه بالالتزام القطعي بحياد بلجيكا وعندما لم تتسلم جواباً على ذلك دخلت الحرب ضد المانيا في ليلة ٤ على ٥ آب ١٩١٤ ، وفي ٦ آب اعلنت النمسا - المجر الحرب على روسيا .

وهكذا اتخذت الحرب منذ البداية طابعاً اوربياً عاماً وتحولت على الفور الى حرب عالمية اذ لم تلبث اليابان ان دخلتها ضد المانيا في ١٠ آب وبعد ذلك بثلاثة اشهر تقريباً اي في بداية تشرين الثاني ١٩١٤ اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية على اثر قصف السفن العثمانية لبعض الموانئ الروسية على البحر الاسود ، ثم توالى بعد ذلك دخول الدول المختلفة الحرب الى ان بلغ عدد الدول المحاربة في معسكر الوفاق الثلاثي تسعاً وعشرين دولة ، اما معسكر الدول المركزية فقد ضم اربع دول فقط .

العلم والثقافة في بداية القرن العشرين

ادى تطور الحياة الاجتماعية في روسيا الى طرح قضايا جديدة لم تكن مطروحة في السابق ومنها قضية التربية في مرحلة ما قبل المدرسة ، وضرورة اقرار التعليم الشامل . وهكذا ظهرت في روسيا في هذه المرحلة الحضانات ورياض الاطفال وما شابهها من مؤسسات التربية في مرحلة ما قبل المدرسة ولكن هذا التوجه كان آنذاك مايزال في بدايته بحيث ان عدد رياض الاطفال في روسيا باجمعها لم يتعد في ١٩٠٧ العشر . اما بالنسبة الى التعليم الشامل فقد اصبحت الحاجة اليه محسوسة الى درجة ان وزارة التعليم قدمت الى الدوما في خلال ثورة ١٩٠٥ لائحة قانون لاقرار التعليم الابتدائي الشامل في الامبراطورية الروسية ، لكن هذا المشروع لم يتح له التحقيق آنذاك . ومن الظواهر الاخرى التي برزت في روسيا في مجال التعليم في هذه المرحلة اتساع التعليم الابتدائي والمتوسط المتحرر من وصاية الكنيسة المباشرة فلقد تجاوزت المدارس المدنية في نموها المدارس الدينية ولاسيما بعد ١٩٠٥ ، ونما عدد المدارس المتوسطة بشكل ملحوظ ايضاً فقد ازداد عدد المدارس المتوسطة غير المتخصصة التابعة لوزارة التعليم من ٨٩٨ مدرسة (٦١٤ منها للبنين و ٢٨٤ للبنات) في ١٨٩٦ الى ١٧٩٨ مدرسة (٧٩٧ للبنين و ١٠٠١ للبنات) في ١٩١٥ ، وكان السبب في تفوق مدارس البنات على مدارس البنين في العدد هو ان اعداداً كبيرة نسبياً من الاولاد كانوا يدرسون في المدارس الصناعية والتجارية

المتخصصة وكذلك في المدارس العسكرية والمدارس غير التابعة لوزارة التعليم . على اية حال لقد فرض التطور نفسه بالرغم من كل العوائق فاتسع التعليم وكان من مظاهر ذلك ايضاً انشاء «اتحاد معلمي عموم روسيا» في ١٩٠٥ وزيادة عدد الدوريات التي تعنى بشؤون التربية والتعليم وغير ذلك من المظاهر . ومع ذلك فقد ظل عدد المدارس بعيداً عن سد الحاجة المتزايدة للتعليم وظل كثير من الاطفال خارج المدرسة فقد بلغ عدد الاطفال الذين لم يقبلوا في المدارس الابتدائية في ١٩١٠ مثلاً مايقرب من المليون طفل . ولهذا فقد ظلت الامية متفشية ولاسيما بين الشعوب غير الروسية .

اما التعليم العالي فقد صادف في هذه المرحلة ظروفاً صعبة ذلك ان مشاركة الطلاب في الحركة الثورية على نطاق واسع جعلت الجامعات والمعاهد بؤراً للخطر في نظر السلطة التي كانت تلاحق المنظمات الطلابية وتقتص من الذين يشاركون في الحركة الثورية فكانت تجند الطلاب الثوريين في الجيش وتطرد الاساتذة الليبراليين او تعمل على مضايقتهم حتى يضطروا الى الاستقالة . ففي ١٩١١ مثلاً اضطر الى الاستقالة من جامعة موسكو وحدها ١٣٠ من خيرة الاساتذة والمدرسين . ولهذا فان عدد الجامعات والمعاهد العليا في روسيا لم يزدد تقريباً في بداية القرن العشرين ولم تنشأ الا جامعة جديدة واحدة هي جامعة ساراتوف التي افتتحت بعد ثورة ١٩٠٥ . وعلى كل حال بلغ العدد الاجمالي للمعاهد العليا في روسيا عام ١٩١٤ ثلاثة وتسعين معهداً تضم ١١٧ الف طالب غير ان هذه المعاهد لم تكن موزعة على انحاء البلاد المختلفة بشكل متساو فقد تركز ثلاثة ارباعها تقريباً في بطرسبورغ وموسكو في حين لم يكن يوجد اي واحد منها في القفقاس وفي آسيا الوسطى ، كما ان عددها في سيبريا كلها لم يكن يتعدى الثلاثة .

ومما يميز هذه المرحلة في روسيا ايضاً زيادة الدور الذي تؤديه وسائل المعرفة والتنوير الاخرى غير المدرسة كالمكتبات والمسارح الشعبية والمدارس المسائية الخاصة وصالات القراءة وبيوت الثقافة وما اشبه . كما حازت الصحافة ولاسيما الدورية منها اهمية بالغة في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، حيث اخذت المجلة التي كانت تحتل مكاناً بارزاً في الحياة الاجتماعية والادبية في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتخلى عن مكانتها هذه للجريدة اليومية ، فقد اصبح من الصعب على المجلة التي تصدر شهرياً عادة مواكبة وتائر تطور الحياة الاجتماعية والسياسية التي اصبحت تتميز بالسرعة . وقد كانت هناك مجلات وجرائد تعبر عن مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية السائدة في المجتمع الروسي .

لقد تميزت هذه المرحلة ايضاً باحتدام الجدل في روسيا حول المسائل النظرية التي تخص الاسس الفلسفية والمنهجية للعلم واشتد الصراع بين المادية والمثالية في الدراسات

الاجتماعية وفي العلوم الطبيعية وكان ذلك كله انعكاساً لتفاقم الصراع الاجتماعي في روسيا وزيادة حدته .

والملاحظ ايضاً ان الصلات العلمية بين العلماء الروس ازدادت وثوقاً وكان من مظاهر ذلك تواصل عقد المؤتمرات العلمية التي ادت البحوث التي القيت فيها دوراً لايستهان به في تطور العلوم المختلفة ، وقيام منظمات مهنية وعلمية ادت هي ايضاً دوراً مشهوداً في تعزيز الصلات العلمية ودراسة الثروات الطبيعية في روسيا . والى جانب ذلك تعززت الصلات العلمية بين العلماء الروس والاجانب فقد شارك علماء روسيا ومخترعوها بشكل فعال في الجمعيات والمؤتمرات العلمية الدولية وقدم عدد منهم اسهامات قيمة في تطور العلم والتكنيك وحاز الجهد العلمي الروسي على مكانة مشهودة في الاوساط العلمية في العالم وقد تجلى ذلك مثلاً في منح جائزة نوبل لبافلوف في ١٩٠٤ ولميتشنيكوف في ١٩٠٨ وفي انتخاب جوليتسين بالاجماع رئيساً للجمعية الدولية للزلازل في ١٩١١ وغير ذلك .

وظهر في هذه المرحلة عدد من العلماء البارزين في مختلف العلوم الطبيعية وحاز بعضهم على شهرة عالمية ففي حقل الدراسات الفزيولوجية اشتهر اي . ب . بافلوف و اي . م . سيتشينوف و اي . اي . ميتشنيكوف فقد اعترفت الاوساط العلمية في العالم ببافلوف قمة عظمى في الفزيولوجيا واصبح مختبره منذ نهاية القرن التاسع عشر مركزاً عالمياً لهذا العلم . واشتهر ايضاً من علماء البيولوجيا كل من ب . ن . تمريازوف و اي . ف . ميتشورين . اما في الفيزياء فقد ذاع صيت ب . ن . ليبديف و ن . ي . زكوفسكي و ك . ي . تسلكوفسكي و أ . س . بوبوف الذين اسهموا بشكل فعال في تطوير الفيزياء المعاصرة وفي تطور الراديو والطيران ونظريات الملاحة الفضائية . فقد برهن ليبديف بالتجربة العملية على وجود ظاهرة الضغط الضوئي وتمكن من قياسه وركز تسلكوفسكي جهوده في هذه المرحلة على وسائل تخص نظرية حركة الصورايخ والمحركات الفضائية واهتم بمسألة استخدام الصورايخ للسفر في الفضاء الخارجي غير ان بحوثه ونظرياته في هذا المجال لم تصادف الاعتراف اللائق بها آنذاك . اما زوكوفسكي فعلى الرغم من انه لقب «ابا الطيران الروسي» الا ان نشاطه لم يقتصر على هذا الميدان بل تعداه الى صناعة السفن والمعدات الكهربائية ونظرية حركة الاجسام السائلة والصلبة وغير ذلك .

اما العلوم الانسانية فقد احتدم فيها الصراع الحامي بين الاتجاهات الفكرية والسياسية المختلفة وانعكس فيها بشكل اوضح مما حصل في العلوم الطبيعية ، ضغط القوى الرجعية ففي حين نجد كتاباً ومفكرين من امثال ل . م . لوباتين و ن . أ .

بردياييف في الفلسفة و ن . أ . كارييف في التأريخ و ب . أ . تستيكونسكي و ب . أي . نوفجورودتسيف في الدراسات الحقوقية يلتزمون بالمنهج المثالي ويدافعون عن النظريات الرجعية ويحاولون دحض اي فكرة تقول بامكانية التغيير الاجتماعي وقلب الانظمة الاجتماعية القائمة ، نجد عناصر المنهج المادي في تفسير الظواهر الاجتماعية في مؤلفات عدد لايستهان به من المفكرين والكتاب الذين تحول بعضهم الى الماركسية واتخذها منهجاً التزم به في بحوثه وكتاباته . فقد اسهم مؤرخون برجوازيون ديمقراطيون من امثال ي . ف . تارلي و د . م . بتروشيفسكي بشكل فعال في صياغة تاريخ الصراع الطبقي في بربطانيا وفرنسا وفي دراسة التاريخ الاقتصادي لاوربا الغربية في حين اسهم المؤرخ البلشفي م . ن . بكرونسكي في تطوير دراسة تاريخ روسيا من منطلقات ماركسية ، وكان لمؤلفات المؤرخ المنشفي ن . أ . روزكوف دورها الايجابي المهم في تطوير الدراسات التاريخية في روسيا . والى جانب هؤلاء برز عدد من المؤرخين المتميزين الذين اختصوا بتاريخ روسيا وكتبوا فيه عدداً من الدراسات القيمة والرصينة ومن هؤلاء أ . ي . بزسنياكوف و ب . ن . بافلوف ـ سيلفانسكي و ب . د . جريكوف .

ومن الملاحظ ان روسيا شهدت آنذاك زيادة في الاهتمام بدراسة تاريخ العالم القديم والدراسات المصرية والاستشراق وبرز في هذا الميدان علماء لهم باعهم الطويل منهم س . أ . زيبليف و ب . أ . توراييف و ف . ف . بارتولد ، كما حصل تطور ملحوظ في الدراسات الاثارية وبرز عدد من الاثاريين وعلى رأسهم ف . أ . جوروودتسوف الذي يعد مؤسس علم الاثار في روسيا .

اما عن الادب الروسي فقد مر في تطوره في بداية القرن العشرين بمرحلتين تشمل الاولى الحقبة التي سبقت ثورة ١٩٠٥ وتستغرق الثانية العقد الاخير من عمر النظام القيصري اي من ١٩٠٧ حتى ١٩١٧ . لقد انعكس النضال الثوري المتنامي في المرحلة الاولى في انتاج الكتاب الروس فكتب ممثلو الواقعية الانتقادية ادباً تميز بالصدق المتناهي والاصرار على فضح المساوىء والمظالم السائدة في الانظمة الاجتماعية والسياسية القائمة . ان ذلك واضح بشكل خاص في كتابات ليف تولستوي وانطون تشيخوف في هذه المرحلة ولاسيما «البعث» و «الاب سيرجي» و «بعد الحفلة الراقصة» ، و «الحاج مراد» و «الجثة الحية» لتولستوي و «النورس» و «الخال فانيا» و «الاخوات الثلاث» و «بستان الكرز» لتشيخوف . لقد تميز انتاج الكتاب الواقعيين الروس بالتصوير الصادق لحياة الناس من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية ومحاولة مساعدتهم على تلمس السبل الكفيلة بتحسين حياتهم على المستوى الاجتماعي والشخصي . ومع ان كل واحد من هؤلاء الكتاب كانت له شخصيته الفنية التي تميزه من اقرانه الا ان ذلك لاينفي

بردیاییف في الفلسفة و ن . أ . كارییف في التأريخ و ب . أ . تستیكوفسكي و ب . أي . نوفجورودتسیف في الدراسات الحقوقیة یلتزمون بالمنهج المثالي ویدافعون عن النظریات الرجعیة ویحاولون دحض اي فكرة تقول بامكانیة التغییر الاجتماعي وقلب الانظمة الاجتماعیة القائمة ، نجد عناصر المنهج المادي في تفسیر الظواهر الاجتماعیة في مؤلفات عدد لایستهان به من المفكرین والكتاب الذین تحول بعضهم الى الماركسیة واتخذها منهجاً التزم به في بحوثه وكتاباته . فقد اسهم مؤرخون برجوازیون دیمقراطیون من امثال ي . ف . تارلي و د . م . بتروشیفسكي بشكل فعال في صیاغة تاریخ الصراع الطبقي في بربطانیا وفرنسا وفي دراسة التاریخ الاقتصادي لاوربا الغربیة في حین اسهم المؤرخ البلشفي م . ن . بكروفسكي في تطویر دراسة تاریخ روسیا من منطلقات ماركسیة ، وكان لمؤلفات المؤرخ المنشفي ن . أ . روزكوف دورها الایجابي المهم في تطویر الدراسات التاریخیة في روسیا . والى جانب هؤلاء برز عدد من المؤرخین المتمیزین الذین اختصوا بتاریخ روسیا وكتبوا فیه عدداً من الدراسات القیمة والرصینة ومن هؤلاء أ . ي . برسنیاكوف و ب . ن . بافلوف ـ سیلفانسكي و ب . د . جریكوف .

ومن الملاحظ ان روسیا شهدت آنذاك زیادة في الاهتمام بدراسة تاریخ العالم القدیم والدراسات المصریة والاستشراق وبرز في هذا المیدان علماء لهم باعهم الطویل منهم س . أ . زیبلیف و ب . أ . تورایف و ف . ف . بارتولد ، كما حصل تطور ملحوظ في الدراسات الاثاریة وبرز عدد من الاثاریین وعلى رأسهم ف . أ . جورودتسوف الذي یعد مؤسس علم الاثار في روسیا .

اما عن الادب الروسي فقد مر في تطوره في بدایة القرن العشرین بمرحلتین تشمل الاولى الحقبة التي سبقت ثورة ١٩٠٥ وتستغرق الثانیة العقد الاخیر من عمر النظام القیصري اي من ١٩٠٧ حتى ١٩١٧ . وقد انعكس النضال الثوري المتنامي في المرحلة الاولى في انتاج الكتاب الروس فكتب ممثلو الواقعیة الانتقادیة ادباً تمیز بالصدق المتناهي والاصرار على فضح المساوىء والمظالم السائدة في الانظمة الاجتماعیة والسیاسیة القائمة . ان ذلك واضح بشكل خاص في كتابات لیف تولستوي وانطون تشیخوف في هذه المرحلة ولاسیما «البعث» و «الاب سیرجي» و «بعد الحفلة الراقصة» ، و «الحاج مراد» و «الجثة الحیة» لتولستوي و «النورس» و «الخال فانیا» و «الاخوات الثلاث» و «بستان الكرز» لتشیخوف . لقد تمیز انتاج الكتاب الواقعیین الروس بالتصویر الصادق لحیاة الناس من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعیة ومحاولة مساعدتهم على تلمس السبل الكفیلة بتحسین حیاتهم على المستوى الاجتماعي والشخصي . ومع ان كل واحد من هؤلاء الكتاب كانت له شخصیته الفنیة التي تمیزه من اقرانه الا ان ذلك لاینفي

كونهم سعوا جميعاً لتحقيق هدف واحد هو تصوير الواقع تصويراً صادقاً وانشاء أدب واقعي عميق وصادق في روسيا .

ومن الملاحظ على الادب الروسي في هذه المرحلة ان الاتجاه الادبي الجديد للممثل بمكسيم جوركي (اسمه الحقيقي الكسي مكسيمونتش بشكوف) الذي عد ممثل الطبقة العاملة في ميدان الادب قد رسخ وضرب جذوراً عميقة في الحياة الادبية في روسيا . لقد تميز هذا الاتجاه بمناهضة كل ماهو سلبي في المجتمع والحقد الشديد على كل مظاهر الاستبداد والاستغلال القائمة فيه والسعي لمساعدة الجماهير على ان تعي قوتها فتتصدى بثقة وشجاعة للاطاحة بالانظمة الاستغلالية القائمة . ان ذلك واضح في مؤلفات جوركي التي كتبها في بداية القرن العشرين مثل «في القاع» و «ابناء الشمس» . . . الخ اما روايته «الام» التي كتبها في ١٩٠٦ فتؤشر بداية مرحلة جديدة في تاريخ الواقعية في روسيا تميزت بولادة عناصر الاسلوب الفني للادب الاشتراكي ، فقد رسم جوركي في هذه الرواية صورة نضال العمال ضد الرأسمالية والاستبداد السياسي . وقد ترسم خطى جوركي في هذا الاتجاه كتاب وشعراء آخرون اصبح لهم وزنهم في الحياة الادبية في روسيا ، منهم الشاعر الشاب ف . ف . ماياكوفسكي الذي دخل معترك الحياة الادبية في ١٩١٢ والذي كان آنذاك في مرحلة التحول من المستقبلية باتجاه الحركة الثورية .

والى جانب ذلك كان هناك ادباء التزموا بالمذهب الطبيعي وآخرون انضموا تحت لواء الانحطاطية[1] والرمزية ، وفريق ثالث رفع شعار «الفن للفن» مؤثراً بذلك الابتعاد عن حلبة الصراع الاجتماعي والوقوف موقف المتفرج منه . لقد تمثلت الانحطاطية في انتاج ادباء من امثال د . س . مبرزكوفسكي و ك . د . بالمونت و ف . ي . بريوسوف الذين كانت كتاباتهم تتميز بالفوضوية وانعدام القيم وطغيان النزعة الفردية ومناهضة المنحى الاجتماعي في الادب ولعل ابيات الشعر التالية التي كتبها ك . د . بالمونت تعبر عن جوهر هذه الاتجاهات :

انني اكره البشرية
انني اسارع بالهرب منها
ان وطني الوحيد
هو روحي الخاوية

---

(١) الانحطاطية اتجاه في الادب والفن مناهض للواقعية برز في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ويتميز بالهبوط وانعدام المحتوى الفكري وطغيان النزعة الفردية .

ومع ذلك فان ظروف الحياة نفسها ولاسيما النهوض الثوري الذي عم روسيا في بداية القرن العشرين اثرت ايجابياً في انتاج الكثير من الانحطاطيين والرمزيين وكان هذا التاثير واضحاً بشكل خاص في كتابات ف . ي . بريوسوف و أ . أ . بلوك ، اللذين اصبح انتاجهما ظاهرة متميزة في الشعر الروسي آنذاك . وهكذا ففي حين اثرت الاحداث الثورية التي وقعت في روسيا في ١٩٠٥ - ١٩١٤ في شعراء وكتاب يمثلون الانحطاطية والرمزية من امثال بلوك وبريوسوف وجعلتهم يتخذون مواقف مناهضة للواقع ويدعون الى تغييره ، زخرت الحلقات والصالونات الادبية في الحقبة التي سادت فيها الرجعية بعد ١٩٠٧ ، بالعديد من الاتجاهات التي تميزت بالتشاؤم والاسفاف والبهرجة اللفظية والتعبيرات الخليعة غير المحتشمة . ان مثل هذه الصفات واضحة في كتابات ل . اندرييف و م . آرتسيباشيف و ف . فينيتشنكو .

لقد تأثرت الفنون الروسية الاخرى كالمسرح والموسيقى والرسم بالادب الروسي وترسمت خطاه وانعكست عليها الاتجاهات التي سادت فيه . فلكي تتجسد شخصيات تشيخوف وجوركي كان ينبغي ان يكون هناك مسرح جديد مرتبط بالواقع الاجتماعي والسياسي في روسيا ومستقل عن المسارح الحكومية التي يسودها الجمود وعن اصحاب المسارح الخاصة الذين لم يكونوا يرون في المسرح غيروسيلة للربح المادي فقط . وقد انبرى للاضطلاع بهذه المهمة المسرح الذي اسسه في موسكو عام ١٨٩٨ المخرج والممثل الشهير ك . س . ستانسلافسكي بالاشتراك مع فل . نميروفتش دانتشنكو . وقد اسس الاثنان فرقة مسرحية فكانت اكثر الفرق المسرحية موهبة وازدهاراً في بداية القرن العشرين وانشآ نظاماً للفن المسرحي عرف باسم «نظام ستانسلافسكي» وسعياً لان يجعلا مسرحهما الذي اصبح اسمه في ١٩٠٣ «مسرح موسكو الفني» مسرحاً شعبياً بحق . ولهذا فقد حاز مسرح ستانسلافسكي شهرة واسعة واسهم في تربية وتدريب ممثلين ومخرجين بارزين من امثال ف . ي . ميرهولد و ي . ب فاختانجوف والواقع ان ستانسلافسكي لم يكن وحيداً في هذه القضية فقد هجرت الممثلة الشهيرة ف . ف . كوميسا رزيفسكايا مسرح الكسندر في بطرسبورغ احتجاجاً على البيرقراطية السائدة فيه وانشأت مسرحاً جديداً اخذ يقدم عروضاً مسرحية تفوح منها رائحة الرفض للانظمة الاجتماعية القائمة والتبشير بضرورة التغيير . وهكذا فقد احتدم في المسرح ايضاً الصراع بين الاتجاه الديمقراطي الرافض للواقع السيء والرجعي المتحفظ الساعي لتكريس هذا الواقع . وفي خلال هذا الصراع رفع ممثلو وممثلات مسرح مالي (الصغير) في موسكو ومغنو ومغنيات المسرح الموسيقي الروسي لواء الواقعية عالياً في مواجهة الاتجاهات الرجعية والانهزامية . وفي هذه المرحلة خرج الغناء الروسي الى العالم واثرت مدرسة

الغناء الروسية التي تتميز باقتران الغناء بالتعبيرات الدرامية او مايسمى بمفهوم «المغني الممثل» في فن الاوبرا في العالم خارج روسيا .

اما في الموسيقى فقد لمع في هذه المرحلة اسم الموسيقار ريمسكي - كورساكوف الذي مر بنا ذكره في الفصل السابق فقد ظل هذا الموسيقار الشهير في قمة نشاطه الموسيقي الى ان توفي في ١٩٠٨ وكانت مؤلفاته التي كتبها في بداية القرن العشرين ذات منحى اجتماعي واضح بحيث ان عزف بعض مؤلفاته كان يقترن في بعض الاحيان بهتافات احتجاج يطلقها الجمهور ضد الحكم المطلق . لقد تأثر بريمسكي - كورساكوف وتشايكوفسكي جيل من الموسيقيين الموهوبين من امثال س . أي . تانييف و س . ف رحمانينوف و س . س . بروكوفييف وغيرهم وقد احتل هؤلاء مكانة مميزة في تاريخ الموسيقى الروسية في نهاية لقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وساروا بالموسيقى الروسية خطوات واسعة الى الامام واستطاع كل منهم بطريقته الخاصة ان يعبر في موسيقاه عن ميول معاصريه وعن الافكار والمشاعر المرتبطة بالظواهر الجديدة في المجتمع الروسي .

وقد ساعدت حفلات الموسيقى الروسية التي اخذت تقام في باريس ابتداءً من ١٩٠٧ والجولات التي قام بها عدد من الموسيقيين الروس البارزين في اوربا الغربية على خروج الموسيقى الروسية والبالية الروسي الى الخارج وعلى تعريف العالم بهما .

لقد انعكس المنحى الواقعي والديمقراطي في الرسم الروسي في هذه المرحلة في انتاج الرسامين أي . ي . ريبين و ف . أي . سوريكوف و ف . أ . سيروف وغيرهم . وفي الوقت نفسه تأثر الكثير من الرسامين بالاتجاهات الانحطاطية والعصرانية ووقفوا ضد الواقعية والمنحى الفكري في الفن داعين لمبدأ «الفن للفن» . وقد تمثل هذا الاتجاه الاخير في انتاج رسامين موهوبين من امثال ك . أ . سوموف و أ . ن . بنوا ، و ف . ي . بوريسوف - موساتوف الذين رسموا صوراً جميلة تمثل حياة النبلاء في ضياعهم او قصورهم وحدائقهم سواء في داخل روسيا او خارجها . والى جانب هؤلاء وأولئك كان هناك رسامون استمدوا موضوعاتهم من المواضيع الدينية والتزموا بالرمزية في انتاجهم الفني .

اما النحت فقد ارتبط في هذه المرحلة باسمي النحاتين س . ت . كونينكوف و أ . س . جولوبينا فقد اشتهر الاول بنحت التماثيل المستمدة موضوعاتها من الملاحم والقصص والحكايات الشعبية وعرفت الثانية بنحت نماذج للناس البسطاء والتعبير الدقيق المحكم عن معاناتهم . والى جانب ذلك ظهرت تأثيرات الانطباعية والعصرانية في نتاجات بعض النحاتين الاخرين ولاسيما في منحوتات ب . ب . تروبيتسكي و م . أ . فروبل

هؤلاء وغيرهم في تنوير الجماهير واثر انتاجهم الرفيع في تطوير لغاتهم القومية . وفي الموسيقى ظهر في لاتفيا ولتوانيا واستونيا عدد من الموسيقيين استطاعوا ان يبدعوا ، على اساس الانغام اللاتيفية واللتوانية والاستونية ، موسيقى قومية لشعوب هذه المناطق فظهر العديد من الاجواق الموسيقية والجمعيات الفنية القومية والاوركسترات السيمفونية القومية وافتتح في ١٩١٢ في لاتفيا مسرح اوبرالي لاتيفي .

كذلك كان انتعاش الموضوعات القومية والدوافع الشعبية وتنامي المنحى الواقعي وظهور الاتجاهات التحررية والثورية وتطورها ظواهر مشتركة في تطور ثقافة وشعوب القفقاس وآسيا الوسطى وكازاخستان ومنطقة الفولغا وسيبريا . ففي جورجيا شارك بعض الكتاب البارزين جماهير الشعب في ثورتها في ١٩٠٥ وعبروا عن الاحتجاج ضد الاضطهاد القومي الذي كانت تمارسه الحكومة الروسية في بلادهم فتعرضوا للاذى بل وقتل بعضهم بسبب هذه المواقف . وفي ارمينيا تميز عدد من الشعراء الذين انتقدوا سلبيات الحياة في المدن ونظموا امثلة جيدة من الشعر الوطني الى جانب قصائد الغزل الرقيقة . وظهرت في هذه المرحلة بوادر الواقعية الانتقادية في الادب التتري ، وانتشرت افكار الجامعة الاسلامية والجامعة التركية في آسيا الوسطى بين عدد كبير نسبياً من المثقفين الى جانب عناصر الاتجاهات الديمقراطية الداعية للتصدي للسلبيات القائمة في المجتمع . وتطورت ايضاً الموسيقى الجورجية والاذربيجانية والارمنية ، فقد شهدت هذه المرحلة تأليف اول الاوبرات الجورجية والاذربيجانية وزست فيها اسس المدرسة الموسيقية الارمنية .

لقد اسرع في هذه المرحلة من تاريخ روسيا ايضاً التطور الثقافي للشعوب والمجموعات القومية الصغيرة حتى تلك التي لم تكن قد عرفت الكتابة بلغاتها بعد . فقد ظهرت في فولكلور القرغيز والبشكير والتشوفاش والمردوف وشعوب داغستان وغيرها اغان وقصص يرتبط محتواها بظروف الحياة الجديدة وبنضال هذه الشعوب ، وبدأت رياح التغيير تهب على هذه الشعوب فتترك آثارها على حياتها ومعيشتها وعلى ثقافتها . و كذا شهدت المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة ولادة الادب القرغيزي المكتوب وخطت طباعة الكتب الافارية (داغستان) والمردوفية خطواتها الاولى وبرز عدد من رواة القصص والشعراء من بين شعوب شمال القفقاس وداغستان واتخذت ثقافة الشعب البشكيري طريقاً مستقلاً في تطورها .

وهكذا تميزت بداية القرن العشرين بتنامي الثقافة القومية للشعوب غير الروسية في الامبراطورية ، وظهرت فيها التيارات الديمقراطية والاشتراكية الامر الذي جعل تلك الثقافات توفر سلاحاً ماضياً للحركة القومية المناضلة ضد الاضطهاد والتعسف القيصري من جهة واساساً لتطور الثقافة الاشتراكية من جهة اخرى .

المصـــــادر

أولاً : باللغـــة العربيـــة

١ . اندرسون ، ماتيو : تأريخ القرن الثامن عشر في اوربة ، تعريب الدكتور نور الدين حاطوم ، دمشق ، ١٩٧٧ .

٢ . جرانت أ . ج . و تمبرلي ، هارولد : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ١٧٨٩ - ١٩٥٠ ، ج . ١ ترجمة بهاء فهمي ، دار الحمامي للطباعة ، د . ت .

٣ . رنوفان ، بيير : تأريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤ ، تعريب دكتور جلال يحيى ، دار المعارف بمصر ، د . ت .

٤ . صالح ، محمد محمد : تأريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠ - ١٧٨٩ ، بغداد ١٩٨٢ .

٥ . صالح ، محمد محمد : تأريخ اوربه الحديث ، ١٨٧٠ - ١٩١٤ ، بغداد ١٩٦٨ .

٦ . عنايتوف ، حميد : رد على مزيفي تأريخ جمهوريات آسيا الوسطى وكازاخستان السوفيتية ، موسكو د . ت .

٧ . فشر ، هربرت : اصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الاوربية الى الثورة الفرنسية ، نقله الى العربية زينب عصمت الراشد والدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف بمصر د . ت .

٨ . فشر ، هربرت : تأريخ اوربا في العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠ ، تعريب احمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، دار المعارف بمصر د . ت .

٩ . قلفاط ، نخلة : بطرس الكبير ، بيروت ١٨٨٦ .

١٠ . نوار ، عبد العزيز ونعنعي عبد الحميد : التاريخ المعاصر ، اوربا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ١٩٧٣ .

١١ . يبيفانوف وفيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفياتي ، ترجمة خيري الضامن ونيقولا الطويل ، موسكو د . ت .

ثانياً : باللغة الروسية

١ - ايفانوف ، ل . م . وآخرون (الناشر) ، تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ؛ ج . ٢ : ١٨٦١ - ١٩١٧ ؛ مرحلة الرأسمالية ، موسكو ١٩٥٩ .
٢ - بيريبيليتسينا ، ل . ن . دور الثقافة الروسية في تطور ثقافات شعوب آسيا الوسطى ، موسكو ١٩٦٦ .
٣ - بوتيومكين ، ف . ب وآخرون ، تأريخ الدبلوماسية ، ج . ١ ، موسكو ١٩٥٩ .
٤ - تيخوميروف ، م . ن . ودمتربيف س . س ، تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، ج . ١ ، منذ اقدم العصور حتى ١٨٦١ ، الدار الحكومية لنشر الادب السياسي ١٩٤٨ .
٥ - خفوستوف ، ف . م ، تاريخ الدبلوماسية ج . ٢ ، الدبلوماسية في العصر الحديث ١٨٧١ - ١٩١٤ ، موسكو ١٩٦٣ .
٦ - دائرة المعارف السوفياتية التاريخية ج . ١ - ١٦ ، موسكو ١٩٦١ - ١٩٧٦ .
٧ - داتسيوك ، ب . د . (الناشر) تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، القسم الاول ، موسكو ١٩٧٣ .
٨ - دوستيان ، اي . س . ، روسيا والمسألة البلقانية ، من تاريخ العلاقات السياسية الروسية البلقانية في الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، موسكو ١٩٧٢ .
٩ - زوتكوف ، ي . م . واخرون (الناشر) ، تاريخ العالم ج . ٥ ، ٦ ، ٧ موسكو ١٩٥٨ - ١٩٦٠ .
١٠ - ستيبنياك - كرافتشينسكي س . م . ، روسيا تحت سلطة القياصرة ، ترجمته عن الانكليزية ايرماشوفا ، موسكو ١٩٦٥ .
١١ - فيدوسوف ، اي . أ . ، تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، مرحلة الاستعمار ، موسكو ١٩٦٩ .
١٢ - گاليكوف ، گ . ن . واخرون ، دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي ، موسكو ١٩٧٢ .
١٣ - گروميكو ، أ . أ . واخرون (الناشر) القاموس الدبلوماسي ج . ١ - ٣ ، موسكو ١٩٦٠ - ١٩٦٤ .
١٤ - بيفانوف ، پ . پ . تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، موسكو ١٩٦٦ .

ثالثاً : باللغة الانكليزية

1 - Allworth , Edward , et ..al , Central Asia , Acentury of Russian Rule , London , 1967 .

2 - Beik , Paul H. , and Lafore Laurance , Modern Europe , A History since 1500 , New - York , 1961 .

3 - Bernard , Leon and Hodges , Theodore , B . , Readings in European History , New - York , 1958 .

4 - Buchanan , Meriel , Recollection of Imperial Russia , New - York , 1924 .

5 - Clarkson , Jesse D . A History of Russia from the Ninth Century , Edinburgh , 1962 .

6 - Dukes , Paul , A History of Russia , Medieval , Modern , Contemporary , London , 1974 .

7 - Florinsky , Michael , T . , Russia , A History and interpretatio Vol . 1 , New - York , 1965 .

8 - Hayes , Carlton J . H , Modern Europe to 1840 , New - york , 1959 .

9 - Hayes , Carlton J . H , Contemporary Europe Since 1870 , New - York , 1958 .

10 - Hayes , Carlton J . H ., A Political and cultural History of Europe , V . 1 , New - York , 1932 V . 11 New - York , 1939 .

11 - Jones , Dorsey , D , Russia . A concise History , Harrisburg Pensylvania , 1955 .

12 - Kaus , Gina , Catherine , The portrait of an Empress , Translated from the German by June Head , New - York , 1935 .

13 - Kluchevsky , V . O . , A History of Russia , Translated by C . J . Hocarth , Vols . 4 . 5 . New - York , 1960 .

14 - Masaryk , Thomas carrigue , The spirit of Russia , Studies in History , Literature and philosophy , Translated from German Original by Eden and Cedar paul ., Vols . 1 - 2 , London , 1955 .

15 - Outline History of the U . S . S . R . Translated from Russian by George Hanna , Foreign Languages publishing House , Moscow , 1960 .

16 - Pares , Bernard , A History of Russia , London , 1958 .

17 - Rosses , Andrew , Russia and the Balkans , Inter - Balkan Rivalries and Russian foreign poliey 1908 - 1914 , University of toronto press , 1981 .

18 - Walsh , Waren Bartlett , Russia and the Soviet Union , A Modern History , the University of Michigan press , 1958 .

19 - Warner , philip , the Crimean War , A reappraisal , Newton Abbot , 1973 .